ومعنى «يعتلجن» يعاضّ بعضها بعضا، ويترامحن من النشاط فيجدّ الفحل معهنّ مرّة، وأخرى يأخذ معهنّ فى اللعب فيشمع، وفى يجدّ لغتان: يجد ويجدّ، والمفتوح لغة هذيل؛ ويقال فلان جادّ مجدّ على اللغتين معا.

وقيل إن معنى يشمع الحمار أنه يتشمّع، ثم يرفع رأسه فيكشّر عن أسنانه، فجعل ذلك بمنزلة الضحك، قال الشّماخ:

ولو أنّ أشاء كننت نفسى ... إلى لبّات بهكنة شموع (1)

وقال المتنخل الهذلىّ:

ولا والله نادى الحىّ ضيفى ... هدوءا بالمساءة والعلاط (2)

سأبدؤهم بمشمعة وأثنى ... بجهدى من طعام أو بساط

أراد بقوله «نادى الحىّ ضيفى» أى لا ينادونه، من النداء بالسوء والمكروه ولا يتلقونه بما لا يؤثر/.

والعلاط: من أعلطه واعتلط به؛ إذا خاصمه وشاغبه ووسمه بالشر؛ وأصله من علاط البعير، وهو وسم فى عنقه.

وقيل إن معنى «نادى الحىّ» من النادى؛ أى لا يجالسونه بالمكروه والسوء.

ومعنى «سأبدؤهم بمشمعة» أى بلعب وضحك، لأن ذلك من علامات الكرم والسرور بالضيف، والقصد إلى إيناسه وبسطه، ومنه قول الآخر:

وربّ ضيف طرق الحىّ سرى ... صادف زادا وحديثا ما اشتهى

إنّ الحديث جانب من القرى (3)

وروى الأصمعىّ عن خلف الأحمر قال: سنّة الأعراب أنهم إذا حدّثوا الرجل الغريب

---

(1) ديوانه: 17؛ وروايته: «هيكلة»؛ وهى الضخمة. وكننت نفسى: سترتها. ولبات: جمع لبة؛ هى موضع القلادة؛ والبهكنة: الغضة الحسنة الخلق.

(2) ديوان الهذليين 2: 21.

(3) الأبيات للشماخ يقولها فى عبد الله بن جعفر، وقبلها:

إنّك يا ابن جعفر نعم الفتى ... ونعم مأوى طارق إذا أتى

وانظر الأغانى 9: 168 (طبع دار الكتب المصرية).

وهشّوا إليه ومازحوه أيقن بالقرى، وإذا أعرضوا عنه عرف الحرمان.

ومعنى: «أثنى* بجهدى من طعام أو بساط»، أى أتبع ذلك بهذا.

ومعنى الخبر على هذا أنّ من كان من شأنه العبث بالناس والاستهزاء بهم، والضحك منهم أصاره الله

تعالى إلى حالة يعبث به فيها، ويستهزئ أمنه.
ويقارب هذا الحديث من وجه حديث آخر؛ وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله: «من يسمّع الناس بعمله يسمّع الله به»؛ والمعنى: من يرائى (1) بأعماله ويظهرها تقربا إلى الناس واتخاذا للمنازل عندهم؛ يشهره (2) الله بالرياء ويفضحه ويهتكه.
ويمكن أيضا فى الخبر الأول وجه آخر لم يذكر فيه؛ وهو أن من عادة العرب أن يسمّوا الجزاء على الشيء باسمه؛ ولذلك نظائر فى القرآن وأشعار العرب كثيرة مشهورة، فلا ينكر أن يكون المعنى: من يتّبع اللهو بالناس، والاستهزاء بهم يعاقبه الله تعالى على ذلك ويجازيه؛ فسمى الجزاء على الفعل باسمه؛ وهذا الوجه أيضا ممكن فى الخبر الثانى.

*** [خبر الأصمعىّ مع عجوز فى سوق ضريّة حينما أنشدها شعر بشر بن عبد الرحمن:]
أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال: إنى لفى سوق ضريّة (3)، وقد نزلت على رجل من بنى كلاب كان متزوجا بالبصرة، وكان له ابن بضريّة، إذ أقبلت عجوز على ناقة لها، حسنة البزّة، فيها بقايا جمال، فأناخت/ وعقلت ناقتها، وأقبلت تتوكّأ على محجن (4) لها فجلست قريبا منّا، وقالت: هل من منشد؟ فقلت للكلابىّ: أيحضرك شيء؟ قال: لا، قال: فأنشدتها شعر البشر بن عبد الرحمن الأنصارىّ:
وقصيرة الأيام ودّ جليسها ... لو باع مجلسها بفقد حميم (5)

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «من يراء».
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «يشهره»، بالجزم.
(3) ضرية: قرية بنجد فى طريق مكة من البصرة.
(4) المحجن: عصا معوجة معقفة الرأس؛ فى رأسها حديدة كالمعلاق.
(5) الأبيات فى الحماسة- بشرح التبريزى 3: 301، وأمالى القالى. 1: 203، من غير عزو مع اختلاف فى الترتيب. والبيت الأول منها فى اللسان (ردع) منسوب إلى قيس بن معاذ مجنون بنى عامر. وفى الحماسة:
«لو نال مجلسها»، وفى أمالى القالى: «لو دام مجلسها».

[من محذيات أخى الهوى غصص الجوى] (1) ... بدلال غانية ومقلة ريم
صفراء من بقر الجواء كأنما ... خفر الحياء بها رداع سقيم (2)
قال: فجثت على ركبتيها وأقبلت تحرش (3) الأرض بمحجنها، وأنشأت تقول (4):
قفى يا أميم القلب (5) نقرأ تحيّة ... ونشك الهوى، ثم افعلى ما بدا لك (6)
فلو قلت: طأ في النار أعلم أنّه (7) ... هوى لك، أو مدن لنا من وصالك
لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها [هدى منك لى، أو ضلّة من ضلالك] (8)

[سلى البانة العليا من الأجرع] (9) الّذي ... به البان: [هل حيّيت أطلال دارك] (10)
وهل قمت فى أطلالهنّ عشيّة [مقام سقيم القلب] (11)، واخترت ذلك

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
* من محذيات أخى الأسى غصص الهوى*.
(2) الجواء: موضع بعمان.
(3) تحرش: تضرب عليها؛ من حرش الضب، والحرش كالخرش وهو الخدش.
(4) الأبيات لابن الدمينة؛ ديوانه: 15، وأمالى الزجاجى 110 عن ابن الأعرابى، وأمالى القالى 2: 33 عن ابن دريد، ومعاهد التنصيص 1: 159؛ وهى أيضا فى الحماسة- بشرح التبريزى 3: 263، من غير عزو.
(5) حاشية الأصل: «أضافها إلى القلب كرامة لها وإعجابا بها».
(6) فى حاشيتى الأصل ف: «الأحسن أن يقال: «بدا لك» بكسر اللام لتتوازن القوافى، والعلة فيه مجاورة كسرة الكاف كقراءة من قرأ: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ، وكقوله تعالى: عِتِيًّا، وصِلِيًّا.
(7) حاشية الأصل (من نسخة): «أنها».
(8) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
* سرورا لأنى قد خطرت ببالك*.
(9) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «سلى البانة الغيناء بالأجرع»، وهى رواية الحماسة. والغيناء: الشجرة العظيمة الواسعة الظل. والأجرع: السهل المختلط بالرمل.
(10) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «هل حييت أظلال ضالك»، والضال: شجر.
(11) من نسخة بحاشية الأصل، ف: «قيام سقيم البال».

ليهنئك (1) إمساكى بكفّى على الحشا ... ورقراق عينى (2) رهبة من زيالك (3)
قال الأصمعىّ: فأظلمت والله علىّ الدنيا بحلاوة منطقها، وفصاحة لهجتها؛ فدنوت منها فقلت:
نشدتك الله لما زوّدتنى (4) من هذا! فرأيت الضحك فى عينها، وأنشدت:
ومستخفيات ليس يخفين زرننا ... يسحّبن (5) أذيال الصّبابة والشّكل (6)
جمعن (7) الهوى حتّى إذا ما ملكنه ... نزعن، وقد أكثرن فينا من القتل
مريضات رجع القول (8) خرس عن الخنا
تألّفن أهواء القلوب بلا بذل
موارق من ختل المحبّ، عواطف ... بختل ذوى الألباب بالجدّ والهزل (9)
يعنّفنى العذّال فيهنّ، والهوى ... يحذّرنى من أن أطيع ذوى العذل
أما قول الأنصارى «وقصيرة الأيام» فأراد بذلك أنّ السرور يتكامل بحضورها لحسنها/ وطيب حديثها فتقصر أيام جليسها، لأن أيام السرور وموصوفة بالقصر.

ويمكن أن يريد بقصيرة الأيام أيضا حداثة سنّها وقرب عهد مولدها؛ وإن كان الأول أشبه بما أتى فى آخر البيت.

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «ليهنك»؛ وهى رواية الحماسة.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «ورقراق دمع».
(3) بعد هذا البيت فى ف:
لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة ... لقد سرنى أنّى خطرت ببالك
وهو أيضا فى حاشية الأصل.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «زودتينى» ومن نسخة أخرى. «زدتنى».
(5) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ويسحبن».
(6) الأبيات فى أمالى القالى 2: 287 غير منسوبة.
(7) من نسخة بحاشيتى. الأصل:
«بلغن».
(8) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «الطرف».
(9) فى حاشيتى الأصل، ف: «أى لا يختلهن المحب، بل يختلن ذوى الألباب».

ومعنى:
* لو باع مجلسها بفقد حميم*
أى ابتاعه، وهذا اللفظ من الأضداد؛ لأنه يستعمل فى البائع والمشترى معا، قال الفراء:
سمعت أعرابيا يقول: بع لى تمرا بدرهم، أى اشتر لي تمرا بدرهم، وقال الشاعر:
فيا عزّ ليت النأى إذ حال بيننا ... وبينك باع الودّ لى منك تاجر (1)
أى ابتاع.
وقوله: «من محذيات أخى الهوى» أى من معطيات، يقال: أحذيت الرجل من العطية (2) والغنيمة أحذيه إذا أعطيته، والاسم الحذيّة والحذوة والحذيا؛ كل ذلك العطية.
وقوله:
* كأنما خفر الحياء بها رداع سقيم*
فالرّداع هو الوجع فى الجسد؛ فكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كالسقيم، أو يريد تغيّر لونها وصفرتها (3) كما يتغير لون السقيم؛ ويجرى ذلك مجرى قول ليلى الأخيلية:
ومخرّق عنه القميص تخاله ... بين البيوت من الحياء سقيما (4)
*** أخبرنا المرزبانىّ قال حدّثنا أبو عبد الله الحكيمىّ قال حدثنى ميمون بن هارون الكاتب قال:
حدثنا ابن أخى الأصمعىّ عن عمه قال: لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان، فأرشدنى وأنشدنى:

(1) البيت لكثير؛ وهى ق ديوانه 1: 91.
(2) ساقطة من م.
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «صفرته».
(4) من أبيات فى الحماسة- يشرح التبريزى 4: 155؛ والعينى 2: 47، وأمالى القالى 1: 248 وفى م بعد هذا البيت:
حتّى إذا خفق اللواء رأيته ... تحت اللواء على الخميس زعيما.

ليس العمى طول السّؤال وإنما ... تمام العمى طول السّكوت على الجهل
ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حينا، ثم قدمت البادية، فإذا بالأعرابىّ جالسا بين ظهرانى قوم؛ وهو يقضى بينهم، فما رأيت قضية أخطأت قضية الصالحين من قضيّته؛ فجلست إليه، فقلت: يرحمك! الله أما من رشوة؟ أما من هدية؟ أما من صلة؟ فقال: لا إذا جاء هذا ذهب التوفيق؛ فشكوت إليه ما ألقى من عذل حليلة لى إياى فى طلب المعيشة، فقال: لست فيها بأوحد، وإنى لشريكك، ولقد قلت فى ذلك شعرا، فقلت: أنشدنيه، فأنشدنى:
/ باتت تعيّرنى الإقتار والعدما ... لمّا رأت لأخيها المال والخدما
عنف لرأيك! ما الأرزاق من جلد، ... ولا من العجز؛ بل مقسومة قسما
يا أمة الله إنّى لم أدع طلبا ... للرّزق- قد تعلمين- الشّرق والشأما
وكلّ (1) ذلك بالإجمال فى طلب ... لم أرد عرضا، ولم أسفك لذاك دما
لو كان من جلد ذا المال أو أدب ... لكنت أكثر من نمل القرى نعما
ارضى من العيش ما لم تحوجى معه ... أن تفتحى لسؤال الأغنياء فما
واستشعرى الصّبر علّ الله خالقنا ... يوما سيكشف عنّا الفقر والعدما (2)
لا تحوجينى (3) إلى ما لو بذلت له ... نفسى لأعقبك التّهمام والنّدما
بالله سرّك أنّ الله خوّلنى ... ما كان خوّله الأعراب والعجما
ما سرّنى أنّنى خوّلت ذاك ولا ... ألّا أقول لباغى حاجة نعما
وأننى لم أحز (4) عقلا ولا أدبا ... ولم أرث والدى مجدا ولا كرما
فعسرة المرء (5) أحرى فى معاشك من ... أمر يجرّ عليك الهمّ والألما

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «فكل».
(2) حاشية الأصل (من نسخة):
«الضر والعدما».
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «لا تحوجنى» مع نون التوكيد.
(4) حاشيتى الأصل (من نسخة): «لم أفد عقلا».

(5) حاشية الأصل (من نسخة):
«فعسرة المال».

(1/498)

قال: فو الله ما أنشدتها حتى حلفت ألّا تعذلنى أبدا.

*** [خبر الأصمعىّ مع شاب بدوى فصيح من بنى عامر واستنشاده الشعر:]
حدثنا عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال: رأيت بقباء شابا من بنى عامر؛ فما رأيت بدويا أفصح منه، ولا أظرف؛ فو الله لكأنه شواظ يتلظّى، فاستنشدته فأنشدنى:
فلم أنسكم يوم اللّوى إذ تعرّضت ... لنا أمّ طفل خاذلا قد تخلّت (1)
وقالت سأنسيك العشيّة ما مضى ... وأصرف منك النّفس عمّا أجنّت (2)
فما (3) فعلت- لا والّذي أنا عبده- ... على ما بدا من حسنها إذ أدلّت
أبت سابقات الحبّ إلّا مقرّها ... إليك، وما تثنى إذا ما استقرّت
هواك الّذي فى النّفس أمسى دخيلها ... عليه انطوت أحشاؤها واستمرّت
وأنشدنى أيضا:
ديار للّتى طرقتك وهنا ... بريّا روضة وذكاء رند (4)
تسائلنى وأصحابى هجود ... وتثنى عطفها من غير صدّ
فلمّا أن شكوت الحبّ قالت: ... فإنّ فوق وجدك كان وجدى
ولكن حال دونك ذو شذاة ... أسرّ بفقده ويهرّ فقدى (5)

*** [خبر الأصمعىّ مع إسماعيل بن عمار الأعرابىّ:]
وبهذا الإسناد عن الأصمعىّ قال: قعدت إلى أعرابىّ يقال له إسماعيل بن عمار، وإذا هو يفتل أصابعه ويتلهف،
فقلت له: علام تتلهف؟ فأنشأ يقول:
عينا مشئومتان ويحهما! ... والقلب حيران (6) مبتلى بهما

---

(1) الخاذل من الظباء: التى تتخلف عن صواحبها.
(2) حاشية الأصل: «أى أصرف نفسى عنك عما أجنته».
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «فلا فعلت».
(4) الدهن: الليل ساعة يدبر. والرند: شجر طيب الرائحة.
(5) الشذاة: الحدة، ويهر: يكره.
(6) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «حران».

عرّفتاه الهوى بظلمهما ... يا ليتنى قبلها عدمتهما
هما إلى الحين قادتا وهما ... دلّ على ما أجنّ دمعهما
سأعذر القلب فى هواه فما ... سبّب هذا البلاء غيرهما

*** [خبر الأصمعىّ حين سافر إلى البصرة؛ وسماعه لشعر استحسنه ورواه:]
وبهذا (1) الإسناد عن الأصمعىّ قال: نزلت ذات ليلة فى وادى بنى العنبر، وهو إذ ذاك معان (2) بأهله- أى آهل- فإذا فتية يريدون البصرة؛ فأحببت صحبتهم، فأقمت ليلتى تلك عليهم؛ وإنّى لوصب محموم؛ أخاف ألّا أستمسك على راحلتى؛ فلمّا أقاموا ليرحلوا أيقظونى؛ فلما رأوا حالى رحلوا وحملونى؛ وركب أحدهم ورائى يمسكنى؛ فلما أمعن السير تنادوا ألا فتى يحدو بنا أو ينشدنا! فإذا منشد فى سواد الليل بصوت ند حزين ينشد:
لعمرك إنّى يوم بانوا فلم أمت ... خفاتا على آثارهم لصبور
غداة المنقّى إذ رميت بنظرة ... ونحن على متن الطّريق نسير (3)
فقلت لقلبى حين خفّ به الهوى ... وكاد من الوجد المُئنّ يطير (4)
فهذا ولمّا تمض للبين ليلة ... فكيف إذا مرّت عليه شهور
/ وأصبح أعلام الأحبة دونها ... من الأرض غول نازح ومسير
وأصبحت نجديّ الهوى متهم الثوى ... أزيد اشتياقا أن يحنّ بعير
عسى الله بعد النأى أن يسعف النّوى ... ويجمع شمل بعدها وسرور
قال: فسكنت والله الحمّى عنّى، حتى ما أحسّ بها، فقلت لرفيقى: انزل رحمك الله إلى راحلتك، فإنى متماسك؛ وجزاك الله عن حسن الصّحبة خيرا.
***

(1) الخبر والأبيات فى حماسة ابن الشجرى 161 - 162 بروايته عن ابن قدامة عن المرتضى، وهو أيضا فى أمالى القالى 2: 267 بروايته عن ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه.
(2) فى ابن الشجرى: «مغان آهلة».
(3) المنقى: موضع بين أحد والمدينة.
(4) المُئنّ: اللازم المقيم، وفى س: «المبر».

[خبر الأصمعىّ مع أحد الطفيليين وما ورد فى ذلك من الشعر:]
أخبرنا المرزبانىّ قال حدثنا محمد بن العباس قال حدثنا محمد بن يزيد النحوىّ قال حدّثني بعض

أصحابنا عن الأصمعىّ قال: كان (1) بالبصرة أعرابىّ من بنى تميم؛ يتطفّل على الناس، فعاتبته على ذلك فقال: والله ما بنيت المنازل إلّا لتدخل، ولا وضع الطعام إلّا ليؤكل؛ وما قدّمت هدية فأتوقّع رسولا؛ وما أكره أن أكون ثقلا ثقيلا على من أراه شحيحا بخيلا؛ أتقحم عليه مستأنسا، فأضحك إن رأيته عابسا، فآكل برغمه، وأدعه بغمّه؛ وما اخترق اللهوات طعام أطيب من طعام لا ينفق فيه درهم، ولا يعنّى إليه خادم، ثمّ أنشد:

كلّ يوم أدور فى عرصة الح ... ىّ أشمّ القتار شمّ الذّئاب (2)
فإذا ما رأيت آثار عرس ... أو ختان أو مجمع الأصحاب (3)
لم أروّع دون التّقحّم لا أر ... هب دفعا ولكزة البوّاب (4)
مستهينا بما هجمت عليه ... غير مستأذن، ولا هيّاب
فترانى ألفّ بالرغم منهم ... كلّ ما قدموه لفّ العقاب (5)
ذاك أدنى من التّكلّف والغر ... م وغيظ البقّال والقصّاب (6)

---

(1) الخبر فى التطفيل للخطيب البغدادى 73 – 74 يرويه عن الحسن بن أبى القاسم عن أبى الفرج عن جعفر بن قدامة عن أبى هفان.

(2) فى التطفيل: «عرصة الباب»، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «شم الذباب».

(3) فى التطفيل: «أو دعوة لصحاب».

(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «لم أورع»، ورواية الخطيب فى هذا البيت وتاليه:

لم أعرّج دون التقحّم فيها ... غير مستأذن ولا هيّاب
مستخفّا بمن دخلت عليه ... لست أخشى تجهّم البواب.

(5) رواية البيت فى حاشيتى الأصل (من نسخة):

فترانى ألفّ ما قدّم القو ... م على رغمهم كلف العقاب.

(6) زاد الخطيب بعد هذا البيت:

قابل إن جرى علىّ امتهان ... فى سبيل الحلواء والجوذاب

38 مجلس آخر [المجلس الثامن والثلاثون:]

تأويل آية [: وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ ...]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ، فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ؛ [هود: 45، 46].

فقال: ظاهر قوله تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ يقتضي تكذيب/ قوله: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي والنبىّ لا يجوز عليه الكذب، فما الوجه فى ذلك؟ وكيف يصحّ أن يخبر عن ابنه بأنه عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ؟ وما المراد به؟

الجواب، قلنا: فى هذه الآية وجوه:

أولها أن نفيه لأن يكون من أهله لم يتناول نفى النّسب، وإنما نفى أن يكون من أهله الذين وعده الله بنجاتهم؛ لأنه عزّ وجل كان وعد نوحا عليه السلام بأن ينجّى أهله، ألا ترى إلى قوله: قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ [هود: 40]، فاستثنى تعالى من أهله من أراد إهلاكه بالغرق! ويدل عليه أيضا قول نوح:
إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وعلى هذا الوجه يتطابق الأمران (1) ولا يتنافيان؛ وقد روى هذا التأويل بعينه عن ابن عباس وجماعة من المفسرين.
والجواب الثانى، أن يكون المراد بقوله تعالى: لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أى أنه ليس على دينك؛ وأراد تعالى أنه كان كافرا مخالفا لأبيه؛ فكأنّ كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام

---

(1) حاشية ف (من نسخة): «الخبران».

أهله؛ ويشهد لهذا التأويل قوله عزّ وجل على طريق التعليل: إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ، فبيّن أنه إنما خرج عن أحكام أهله لكفره وسيّئ عمله، وقد روى هذا التأويل أيضا عن جماعة من المفسرين؛ وحكى عن ابن جريج أنه سئل عن ابن نوح فسبّح طويلا ثم قال لا إله إلا الله! يقول الله: وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ؛ وتقول: ليس منه! ولكنه خالفه فى العمل فليس منه من لم يؤمن.
وروى عن عكرمة أنه قال: كان ابنه ولكن كان مخالفا له فى النية والعمل؛ فمن ثمّ قيل: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ.
والوجه الثالث أنه لم يكن ابنه على الحقيقة؛ وإنما ولد على فراشه، فقال عليه السلام:
إنه ابنى على ظاهر الأمر؛ فأعلمه الله أن الأمر بخلاف الظاهر، ونبهه على خيانة امرأته؛ وليس فى ذلك تكذيب لخبره، لأنه إنما أخبر عن ظنه، وعمّا يقتضيه الحكم الشرعىّ، فأخبره الله تعالى بالغيب الّذي لا يعلمه غيره؛ وقد روى هذا الوجه عن الحسن وغيره.
وروى قتادة عن الحسن قال: كنت عنده؛ فقال: وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ لعمر الله ما هو ابنه، قال: فقلت: يا أبا سعيد؛ يقول الله: وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وتقول: ليس بابنه!
قال: أفرأيت قوله: لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ؟ قال: قلت معناه: / ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه، فقال: أهل الكتاب يكذبون؛ وروى عن مجاهد وابن جريج مثل ذلك.
وهذا الوجه يبعد إذ فيه منافاة للقرآن؛ لأنه تعالى قال: وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ، فأطلق عليه اسم البنوّة؛ ولأنه أيضا استثناه من جملة أهله بقوله تعالى: وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ؛ ولأنّ الأنبياء عليهم السلام يجب أن ينزّهوا عن مثل هذه الحال؛ لأنّها تعرّ وتشين وتغضّ من القدر؛ وقد جنّب الله تعالى أنبياءه عليهم السلام ما هو دون ذلك؛ تعظيما لهم وتوقيرا، ونفيا لكل ما ينفّر عن القبول منهم؛ وقد حمل ابن عباس ظهور ما ذكرناه من الدّلالة على أنّ تأوّل قوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط: فَخانَتاهُما على أن الخيانة

لم تكن منهما بالزّنا، بل كانت إحداهما تخبر الناس بأنه مجنون؛ والأخرى تدل على الأضياف؛ والمعتمد فى تأويل الآية هو الوجهان المتقدمان.
فأما قوله تعالى: إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فالقراءة المشهورة بالرفع، وقد روى عن جماعة من المتقدمين أنهم قرءوا: إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ بنصب اللام وكسر الميم ونصب «غير»؛ ولكل وجه.
فأما الوجه فى الرفع فيكونُ على تقدير أن ابنك ذو عمل غير صالح؛ وصاحب عمل غير صالح؛ فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه؛ وقد استشهد على ذلك بقول الخنساء:
ما أمّ سقب على بوّ تطيف به ... قد ساعدتها على التّحنان أظآر (1)
ترتع ما رتعت حتى إذا ذكرت ... فإنما هى إقبال وإدبار (2)
أرادت إنما هى ذات إقبال وإدبار.
وقال قوم: إن المعنى أصل ابنك هذا الّذي ولد على فراشك وليس بابنك فى الحقيقة [عمل غير صالح، يعنى الخيانة من امرأته، وهذا جواب من ذهب إلى أنه لم يكن ابنه على الحقيقة] (3) والّذي اخترناه خلاف ذلك.
وقال آخرون إن الهاء فى قوله: إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ راجعة إلى السؤال؛ والمعنى:

---

(1) ديوانها: 78؛ وروايته:
فما عجول على برّ تطيف به ... لها حنينان: إصغار وإكبار
والسقب: الذكر من ولد الناقة. والبو: أن ينحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه فتر أمه والتحنان: الحنين. والأظئار: جمع ظئر؛ وهى التى تعطف على ولد غيرها.
(2) بعدهما:
لا تسمن الدّهر فى أرض وإن ربعت ... فإنما هى تحنان وتسجار
يوما بأوجد منّى يوم فارقنى ... صخر، وللدّهر إحلاء وإمرار.
(3) ساقط من م.

إن سؤالك إياى ما ليس لك به علم عمل غير صالح لأنه قد وقع من نوح دليل (1) السؤال والرغبة فى قوله: إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ/ ومعنى ذلك أى نجّه كما نجيتهم، ومن يجيب بهذا الجواب يقول: إن ذلك صغيرة من النبي؛ لأن الصغائر تجوز عليهم، ومن يمنع أن يقع (2) من الأنبياء شيء من القبائح يدفع هذا الجواب؛ ولا يجعل الهاء راجعة إلى السؤال بل إلى الابن، ويكون تقدير الكلام ما تقدم.
فإذا قيل له: فلم قال: فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ؟ وكيف قال نوح عليه السلام من بعد: رَبِّ

إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ
؟ .
قال: لا يمتنع أن يكون نهى عن سؤال ما ليس له به علم؛ وإن لم يقع منه وأن يكون تعوّد من ذلك وإن لم يوافقه؛ ألا ترى أن الله قد نهى نبيه عن الشّرك والكفر؛ وإن لم يكن ذلك قد وقع منه؛ فقال: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ؛ [الزمر: 56]، وكذلك لا يمتنع أن يكون نهاه فى هذا الموضع عمّا لم يقع منه، ويكون عليه السلام إنما سأله نجاة ابنه باشتراط المصلحة لا على سبيل القطع؛ وهكذا يجب فى مثل هذا الدعاء.
فأما القراءة بنصب اللام فقد ضعّفها قوم وقالوا: كان يجب أن يقال: إنه عمل عملا غير صالح؛ لأن العرب لا تكاد تقول هو يعمل غير حسن، حتى يقولوا: عملا غير حسن، وليس وجهها بضعيف فى العربية؛ لأنّ من مذهبهم الظاهر إقامة الصفة مقام الموصوف عند انكشاف المعنى وزوال اللبس؛ فيقول القائل: قد فعلت صوابا، وقلت حسنا، بمعنى فعلت فعلا صوابا وقلت قولا حسنا؛ وقال عمر بن أبى ربيعة المخزومىّ:
أيّها القائل غير الصواب ... أخّر النّصح وأقلل عتابى (3)

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «دليل فى السؤال»، وحاشية ف من نسخة: «دليل على السؤال».
(2) ف: «على الأنبياء».
(3) ديوانه: 425.

وقال أيضا:
وكم من قتيل ما يباء به دم ... ومن غلق رهن إذا لفّه منى (1)
ومن مالئ عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدّمى (2)
أراد: وكم إنسان قتيل! وأنشد أبو عبيدة لرجل من بجيلة:
كم من ضعيف العقل منتكث القوى ... ما إن له نقض ولا إبرام
/ مالت له الدّنيا عليه بأسرها ... فعليه من رزق الإله ركام
ومشيّع جلد أمين حازم ... مرس له فيما يروم مرام
أعمى عليه سبيله (3) فكأنّه ... فيما يحاوله عليه حرام
أراد: كم من إنسان ضعيف القوى.

*** [من أفاكيه الأصمعىّ:]
أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال حدثنا ميمون بن هارون قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال: كان محمد بن منصور بن زياد الملقّب بفتى العسكر يميل إلى

الأصمعيّ ويفضّله، ويقوم بأمره قال: فجئته يوما بعد موت محمد، وعنده عبد كان لمحمد أسود، وقد ترك الناس، وأقبل عليه وساءله وتحفّى به وحادثه، فلما خرج لمته على ذلك وقلت: من هذا حتى أفنيت عمر يومك به؟ فقال: هذا غلام ابن منصور، ثم أنشدنى:
وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت: أتى الحبيب أخو الحبيب (4)

---

(1) ديوانه: 451 لا يباء به دم، أى ليس من يكافئه فيقتل به. وغلق الرهن إذا صار لا سبيل إلى فكاكه، وفى حاشية ف (من نسخة): «ومن غلق رهنا إذا ضمه».
(2) حاشية ف (من نسخة):
* إذا راح نحو الحيرة البيض كالدّمى*.
(3) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «سبيله» بضم اللام.
(4) حاشية ف: «صفة الحبيب»، أى الّذي هو أخو الحبيب.

أحبّك والقريب بنا بعيد ... لأن ناسبت بثنة من قريب
فقلت له- وكنت أفعل هذا كثيرا به لأستجرّ كلامه وعلمه-: يا أبا سعيد، ذاك أخوها، وهذا غلامها (1) فضحك، وقال: أنشد أبو عمرو- أو قال غيره:
أرى كلّ أرض (2) أوطنتها وإن خلت ... لها حجج تندى بمسك ترابها
وأقسم لو أنّى أرى تبعا لها (3) ... ذئاب الغضى حبّت إلى ذئابها
قال: فجعلت أعجب من قرب لسانه من قلبه وإجادة حفظه له متى أراده.

*** [تأويل الأصمعيّ لبيت من شعر امرئ القيس:]
وبهذا الإسناد عن إسحاق الموصلىّ قال قرأت على الأصمعيّ شعر امرئ القيس، فلما بلغت إلى هذا البيت:
أمن أجل أعرابية حلّ أهلها ... بروض الشّرى عيناك تبتدران! (4)
فقال لى أتعرف فى هذا البيت خبئا باطنا غير ظاهر؟ قلت: لا، فسكت عنّى، فقلت:
إن كان فيه شيء فأفدنيه، فقال: نعم، أما يدلّك البيت على أنه لفظ ملك مستهين ذى قدرة على ما يريد؟ / قال إسحاق: وما رأيت قطّ مثل الأصمعيّ بالعلم بالشعر.

---

(1) من نسخة بحاشية الأصل: «غلامة».
(2) ف: «كل دار».
(3) حاشية الأصل من نسخة: «حلفت لو أنى»، ومن نسخة أخرى: «حلفت إلهى»، ومن نسخة أخرى:
* حلفت بأنى لو أرى تبعا لها*.

(4) ديوانه: 124؛ وروايته:
أمن ذكر نبهانيّة حلّ أهلها ... بجزع الملا عيناك تبتدران!
قال شارحه: «نبهانية: امرأة من نبهان، ونبهان من طيئ، وكان امرؤ القيس نازلا فيهم ثم ارتحل عنهم، والجزع: منعطف الوادى، والملا: ما استوى من الأرض؛ ومعنى تبتدران تستبقان بالدمع؛ أى أنه لما أبدع به الشوق وغلبه البكاء لام نفسه على ذلك. وفى حاشية الأصل: «قبله:
فدمعهما سحّ وسكب وديمة ... ورشّ وتوكاف وتنهملان.

(1/507)

وروى عن إسحاق أيضا أنه قال: قال لى الأصمعىّ: ما يعنى امرؤ القيس بقوله:
فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذى تمائم محول (1)
فقلت: تخبرنى، فقال: كان مفرّكا (2) فيقول: ألهيت هؤلاء عن كراهتهنّ للرجال، فكيف أنا عند المحبات لهم.

*** [نقد الأصمعىّ لرواية ابن الأعرابىّ أبياتا روّاها ولد سعيد بن سلم:]
وروى أنّ السبب الّذي هاج التنافر بين الأصمعىّ وابن الأعرابىّ أنّ الأصمعىّ دخل ذات يوم على سعيد بن سلم وابن الأعرابىّ حينئذ يؤدب ولده- فقال لبعضهم: أنشد أبا سعيد، فأنشد الغلام أبياتا لرجل من بنى كلاب، روّاه إياها ابن الأعرابىّ، وهى:
رأت نضو أسفار أميمة قاعدا ... على نضو أسفار فجنّ جنونها (3)
فقالت: من ايّ الناس أنت ومن تكن؟ ... فإنّك راعى صرمة لا يزينها (4)
فقلت لها: ليس الشّحوب على الفتى ... بعار، ولا خير الرّجال سمينها
عليك براعى ثلّة مسلحبّة ... يروح عليها محضها وحقينها (5)

---

(1) ديوانه: 24. وفى حاشية الأصل. «روى أن النبي صلى الله عليه وآله استنشد هذه القصيدة، فلما سمع البيت الّذي قبله هذا قال: لا تنشد البيت الّذي بعده، وهذا دليل على أنه عليه السلام كان يعرف الشعر. ولما سمع قوله:
* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل*
قال: وقف واستوقف، وبكى وأبكى، وذكر الحبيب والمنزل فى نصف بيت؛ فقالوا: يا رسول الله؛ فديناك! أنت فى هذا النقد أشعر منه».
(2) المفرك: الّذي تبغضه النساء.
(3) الخبر بتمامه فى اللسان (ضحا)، والمزهر 2: 379، والمجالس المذكورة للعلماء 9، وإنباه الرواة 3: 133 – 134؛ والأبيات وردت متفرقة فى اللسان (ضحا، جنن، حقن، نعم).
النضو: الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها. وفى اللسان: «أميمة شاحبا».
(4) الصرمة: القطعة من الإبل؛ ما بين العشرين إلى الثلاثين. ورواية اللسان:

* فإنّك مولى أسرة لا يدينها*.
(5) الثلة، بالفتح: جماعة الغنم. والمسلحبّة: الممتدة؛ وأصله فى الطريق. والمحض: اللبن الخالص، والحقين: اللبن الحبيس فى الوطب؛ وقد ورد البيت فى اللسان (حقن) ونسبه للمخبل، والرواية فيه:
وفى إبل ستّين حسب ظعينة ... يروح عليها محضها وحقينها
وفى حاشية الأصل: «أى لست بالراعى فاطلبى غيرى لو كنت تطلبين راعيا».

سمين الضّواحى لم تؤرّقه ليلة ... وأنعم أبكار الهموم وعونها
ورفع «ليلة» فقال الأصمعىّ: من روّاك هذا؟ فقال مؤدبى؛ فأحضره فاستنشده فأنشده، ورفع «ليلة»، فأخذ ذلك عليه؛ وفسر البيت فقال: إنما أراد: لم تؤرّقه ليلة أبكار الهموم وعونها، وأنعم، أى زاد على هذه الصفة.
وقوله: «سمين الضواحى» أى ما ظهر منه وبدا سمين، ثم قال الأصمعى لابن سلم:
من لم يحسن هذا المقدار فليس موضعا لتأديب ولد الملوك.

*** [حديث الأصمعىّ عن بشار بن برد:]
وأخبرنا المرزبانىّ قال: حدثنا أحمد بن المكىّ قال حدثنا أبو العيناء قال حدثنا الأصمعىّ قال: ولد بشّار بن برد أكمه لم ينظر إلى الدنيا قطّ- وكان ذا فطنة- فقلت له يوما: من أين لك هذا الذكاء؟ قال: من قدم العمى؛ وعدم
النواظر يمنع من كثير من الخواطر المذهلة فيكسب فراغ الذهن؛ وصحة الذكاء، وأنشد لنفسه يفخر بالعمى:
/ عميت جنينا والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظّنّ للعلم موئلا (1)
وغاض ضياء العين للعقل رافدا ... بقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا
وشعر كنور الرّوض لا أمت بينه ... بقول إذا ما أحزن الشّعر أسهلا

*** [نقد بشار لشعر سمعه:]
وأخبرنا المرزبانىّ قال أخبرنا محمد بن العباس اليزيدىّ قال حدثنا أبو العيناء قال حدثنا الأصمعىّ قال: أنشد رجل وأنا حاضر بشارا قول الشاعر:
وقد جعل الأعداء ينتقصوننا ... وتطمع فينا ألسن وعيون (2)
ألا إنما ليلى عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكفّ تلين
فقال بشار: والله لو جعلها عصا مخ أو زبد لما كان إلّا مخطئا مع ذكر العصا! ألا قال كما قلت:

---

(1) الأغانى 3: 23.
(2) الخبر والأبيات فى أمالى الزجاجى: 136.

وحوراء المدامع من معدّ ... كأنّ حديثها قطع الجنان
إذا قامت لسبحتها تثنّت ... كأنّ قوامها من خيزران
ينسّيك المنى نظر إليها ... ويصرف وجهها وجه الزمان

*** [أبيات لبشار يمدح فيها سليمان بن هشام بن عبد الملك:]
وأخبرنا المرزبانىّ قال حدثنا عليّ بن أبي عبد الله الفارسىّ قال حدثنى أبي عن عمر بن شبة قال قال لى أبو عبيدة: رحل بشار إلى الشام، فمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان مقيما بحرّان، ؛ فقال قصيدة طويلة أوّلها:
نأتك على طول التّجاور زينب ... وما علمت أنّ النّوى سوف يشعب (1)
وكان سليمان بخيلا فأعطاه خمسة آلاف درهم، ولم يصب غيرها بعد أن طال مقامه، فقال:
إن أمس منشنج اليدين عن النّدى ... وعن العدوّ محبّس الشّيطان (2)
فلقد أروح على اللّئام مسلّطا ... ثلج المقيل (3) منعّم النّدمان
فى ظلّ عيش عشيرة محمودة ... تندى يدى، ويخاف فرط لسانى
أزمان سربال الشّباب مذيّل ... وإذ الأمير عليّ من جيرانى
/ رئم بأحوية العراق إذا بدا ... برقت عليه أكلة المرجان (4)
فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى ... وبوشك رؤيتها من الهملان
فلقرب من تهوى وأنت متيّم ... أشفى لدائك من بنى مروان
فلما رجع إلى العراق برّه ابن هبيرة ووصله، وكان ابن هبيرة يقدّمه ويؤثره لمدحه قيسا وافتخاره بها، فلما جاءت دولة خراسان عظم شأنه.

---

(1) الأغانى 3: 56؛ ويشعب: يفرق، وبعده:
يرى الناس ما تلقى بزينب إذ نأت ... عجيبا، وما تخفى بزينب أعجب.
(2) الخبر والشعر فى الأغانى 3: 56. ومن نسخة بحاشية الأصل: «مخيس الشيطان».
(3) م: «ثلج المقام».
(4) أحوية جمع حواء؛ والحواء: جماعة البيوت المتدانية.
والأكلة: جمع إكليل؛ وهو التاج؛ أو شبه عصابة تزين بالجواهر.

[أبيات مختلفة فى وصف الثغر واللون والعيون والنجيب والظليم والاعتذار، رواها الأصمعىّ:]
وأخبرنى المرزبانىّ قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب قال حدثنا أحمد بن يحيى النحوىّ قال قال

الأصمعى: ما وصف أحد الثّغر إلّا احتاج إلى قول بشر بن أبى خازم:
يفلّجن الشّفاه عن اقحوان ... جلاه غبّ سارية قطار
ولا وصف أحد اللون بأحسن من قول عمر بن أبى ربيعة:
وهى مكنونة تحيّر منها ... فى أديم الخدّين ماء الشّباب (1)
شفّ منها محقّق جندىّ ... فهى كالشّمس من خلال السّحاب (2)
ولا وصف أحد عينى امرأة إلا احتاج إلى قول عدى بن الرّقاع:
لولا الحياء وأنّ رأسى قد بدا ... فيه المشيب لزرت أمّ القاسم (3)
وكأنّها وسط النّساء أعارها ... عينيه أحور من جآذر جاسم (4)
وسنان أفصده النّعاس فرتّقت ... فى عينه سنة وليس بنائم (5)
ولا وصف أحد نجيبا إلا احتاج إلى قول حميد بن ثور:
محلّى بأطواق عتاق يبينها ... على الضّرّ راعى الضّأن لو يتقوّف (6)
ولا وصف أحد ظليما إلا احتاج إلى قول علقمة بن عبدة:

---

(1) ديوانه: 423.
(2) ثوب محقق محكم النسج، وجند: بلد باليمن.
(3) الشعر والشعراء 602، واللآلئ 521، وفى حاشية الأصل (من نسخة): «قد فشا»، ومن نسخة أخرى: «قد غشا».
(4) الجئاذر: جمع جؤذر، بضم الذل وفتحها، وهو ولد البقرة الوحشى. جاسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ.
(5) أفصده: صرعه. رنقت: خالطت، والبيت أيضا فى اللسان (رنق).
(6) ديوانه 111؛ وفى حاشيتى الأصل، ف: «يصف بعيرا ومحلى؛ أى عليه نجار العتق، وإذا رآه صاحب الضأن الّذي لا بصيرة له عرف عتقه ونجابته على ما مسه من الضر. لم يتقوف، من القيافة، ويروى: «لو يتعيف». شبه ما يبين من عتقه بأطوق تظهر لمن رآها ويروى: «يبينه» أى البعير، وقبل هذا البيت:
فطرت إلى عارى العظام كأنّه ... شقا ابن ثلاث ظهره متحرّف
طوته الفلا حتى كأنّ عظامه ... مآسير عيدان تموج وترجف
فثار وما يمسى فويق عظامه ... برمّ ولكن عارف متكلّف
–

هيق كأنّ جناحيه وجؤجؤه ... بيت أطافت به خرقاء مهجوم (1)
ولا اعتذر أحد إلا احتاج إلى قول النابغة:
/ فإنّك كاللّيل الّذي هو مدركى ... وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع (2)

قال سيدنا أدام الله علوّه: أما قول حميد بن ثور: «محلّى بأطواق عتاق» فإنه يريد أن عليه نجار الكرم والعتق، فصارت دلالتهما وسماتهما حلية له من حيث كان موسوما بهما.
ومعنى: «يبينها على الضراء» يتبينها ويعرفها هذا الراعى فيعلم أنه كريم، والتقوّف:
من القيافة.
فأما قول علقمة «هيق ... » فالهيق: ذكر النعام. ومعنى: «أطافت به خرقاء»، أى عملته وابتنته، وقيل: إن خرقاء هاهنا
هى الحاذقة، وأن هذه اللفظة تستعمل على طريق الأضداد فى الحاذقة وغير الحاذقة، ومعنى «مهجوم»: أى مهدوم، وقال الأصمعىّ: معنى «أطافت به»، أى عملته فخرقت فى عمله، يقول: قد أرسل جناحيه كأنه خباء امرأة خرقاء، كلما رفعت ناحية استرخت أخرى؛ والوجه الثانى أشبه وأملح.
فأما قول بشر فى وصف الثغر فأحسن منه وأكشف وأشد استيفاء قول النابغة:

– قوله: «عارى العظام» أى بعير مهزول، وشقا ابن ثلاث أى هلال ابن ثلاث. وماء أسير عيدان ويروى «ماء آسر عيدان»، أى عيدان مأسورة مشدودة. والرم. المخ، يريد أنه ليس يمسى برم، أى ليس فى عظامه مخ؛ ولكنه عارف؛ أى معترف بالسير، ذليل متكلف يتكلف السير على جهد».
(1) حاشية الأصل: «هيق، أى ظليم، وهو اسم له، والجؤجؤ: الصدر؛ وأراد بالبيت بيتان الشعر أو الوبر. الخرقاء: المرأة التى ليست بصناع. ومهجوم: مصروع ساقط، يقول: أتت البيت هذه الخرقاء لتصلحه فلم تحسن، واستخرجت عيدانه وأطنابه، فشبه الظليم به، لاسترخاء جناحيه ونشره إياهما. وقال المازنى: إذا بنت الخرقاء بيتا انهدم سريعا. وقال غيره: خرقاء هنا: ريح لا تدوم على جهة واحدة» والبيت فى ديوانه 130، والمفضليات: 400، (طبعة المعارف) وروايته فيهما: .
(2) ديوانه:
* صعل كأنّ جناحيه وجؤجؤه*.

كالأقحوان غداة غبّ سمائه ... جفّت أعاليه وأسفله ند (1)
فإنما وصف أعاليه بالجفوف؛ ليكون متفرقا متنضّدا غير متلبّد ولا مجتمع؛ فيشبه حينئذ الثغور، ثم قال: «وأسفله ند» حتى لا يكون قحلا يابسا، بل يكون فيه الغضاضة والصّقالة، فيشبه غروب الأسنان التى تلمع وتبرق.
وروى الرياشىّ قال: سمعت الأصمعىّ يقول: أحسن ما قيل فى وصف الثّغر قول ذى الرّمة:
وتجلو بفرع من أراك كأنّه ... من العنبر الهندىّ والمسك يصبح (2)
ذرا أقحوان واجه الليل وارتقى ... إليه النّدى من رامة المتروّح (3)
هجان الثّنايا مغربا لو تبسّمت ... لأخرس عنه كاد بالقول يفصح (4)

---

(1) ديوانه: 31. الأقحوان: نبت له نوار أصفر، حواليه ورق أبيض وفى حاشيتى الأصل، ف:

«ضمن اللجام الحرانى هذا البيت فى هجو فجعله
آبدة من الأوابد فقال:
يا سائلى عن جعفر، علمى به ... رطب العجان وكفّه كالجلمد
كالأقحوان غداة غب سمائه ... جفّت أعاليه وأسفله ند
والبيتان فى خاص الخاص: 144.
(2) ديوانه: 83. يصبح: يسقى وقت الصباح.
(3) فى الديوان: «راحة الليل»، بالرفع. رامة: رملة بعينها. المتروح: الّذي جاء رواحا. وبعد هذا البيت فى رواية الديوان:
تحفّ بترب الرّوض من كلّ جانب ... نسيم كفأر المسك حين يفتّح.
(4) المغرب: الأبيض من كل شيء.

39 مجلس آخر [المجلس التاسع والثلاثون:]
تأويل آية [: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ...]
إن سأل سائل عن تأويل قوله تعالى: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ/ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ؛ [التوبة: 55].
فقال: كيف يعذبهم بالأموال والأولاد، ومعلوم أن لهم فيها مسرورا ولذة؟ وما تأويل قوله تعالى: وَهُمْ كافِرُونَ وظاهره يقتضي أنه أراد كفرهم من حيث أراد أن تزهق أنفسهم فى حال كفرهم، لأن القائل إذا قال: أريد أن يلقانى فلان وهو لابس أو على صفة كذا وكذا، فالظاهر أنه أراد كونه على تلك الصفة؟
الجواب، قلنا: أما التعذيب بالأموال والأولاد ففيه وجوه:
أولها ما روى عن ابن عباس وقتادة، وهو أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير، ويكون التقدير: فلا تعجبك يا محمد ولا تعجب المؤمنين معك أموال هؤلاء الكفار والمنافقين ولا أولادهم فى الحياة الدنيا؛ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة عقوبة لهم على منعهم حقوقها؛ واستشهد على ذلك بقوله تعالى: اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ؛ [النمل: 28]، والمعنى: فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تول عنهم؛ وأنشد فى ذلك قول الشاعر:
عشيّة أبدت جيد أدماء مغزل ... وطرفا يريك الإثمد الجون أحورا (1)
يريد: وطرفا أحور يريك الإثمد الجون؛ وقد اعتمد هذا الوجه أيضا أبو عليّ قطرب، وذكره أبو القاسم البلخىّ
والزّجاج.

(1) مغزل: معها غزالها.

وثانيها أن يكون معنى التعذيب بالأموال والأولاد فى الدّنيا هو ما جعله للمؤمنين من قتالهم وغنيمة أموالهم وسبى أولادهم واسترقاقهم؛ وفى ذلك لا محالة إيلام لهم، واستخفاف بهم، وإنما أراد تعالى بذلك إعلام نبيه عليه السلام والمؤمنين أنه لم يرزق الكفار الأموال والأولاد؛ ولم يبقها فى أيديهم كرامة لهم، ورضا عنهم؛ بل للمصلحة الداعية إلى ذلك، وأنهم مع هذه الحالة معذبون بهذه النعم من الوجه الّذي ذكرناه، فلا يجب أن يغبطوا، ويحسدوا عليها؛ إذ كانت هذه عاجلتهم، والعقاب الأليم فى النار آجلتهم؛ وهذا جواب أبى علىّ الجبائىّ.

وقد طعن عليه بعض من لا تأمّل له فقال: كيف يصح هذا التأويل، مع أنا نجد كثيرا من الكفّار لا تنالهم أيدى/ المسلمين، ولا يقدرون على غنيمة أموالهم، ونجد أهل الكتاب أيضا خارجين عن هذه الجملة لمكان الذّمة والعهد؟ وليس هذا الاعتراض بشيء، لأنه لا يمتنع أن تختص الآية بالكفار الذين لا ذمة لهم ولا عهد؛ ممن أوجب الله تعالى محاربته؛ فأما الذين لا تنالهم الأيدى، أو هم من القوة على حدّ لا يتم معه غنيمة أموالهم؛ فلا يقدح الاعتراض بهم فى هذا الجواب لأنهم ممن أراد الله تعالى أن يسبى ويغنم، ويجاهد ويغلب؛ وإن لم يقع ذلك؛ وليس فى ارتفاعه بالتعذّر دلالة على أنه غير مراد.

وثالثها أن يكون المراد بتعذيبهم بذلك كلّ ما يدخله فى الدنيا عليهم من الغموم والمصائب بأموالهم وأولادهم التى لهؤلاء الكفار المنافقين عقاب وجزاء، وللمؤمنين محنة وجالبة للعوض وللنفع.

ويجوز أيضا أن يراد به ما ينذر به الكافر قبل موته، وعند احتضاره، وانقطاع التكليف عنه مع أنه حىّ، من العذاب الدائم الّذي قد أعدّ له، وإعلامه أنه صائر إليه، ومنتقل إلى قراره؛ وهذا الجواب قد روى معنى أكثره عن قوم من متقدمى المفسرين (1)، وذكره أبو علىّ الجبائىّ أيضا.

---

(1) حاشية الأصل: «نسخة الشجرى: أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى».

ورابعها [جواب] (1) يحكى عن الحسن البصرىّ، واختاره الطبرىّ وقدّمه على غيره، وهو أن يكون المراد بذلك ما ألزمه هؤلاء الكفار من الفرائض والحقوق فى أموالهم؛ لأن ذلك يؤخذ منهم على كره، وهم إذا أنفقوا فيه أنفقوا بغير نيّة ولا عزيمة؛ فتصير نفقتهم غرامة وعذابا من حيث لا يستحقون عليها أجرا.

[قال السيد قدس الله روحه: وهذا وجه غير صحيح؛ لأن الوجه فى تكليف الكافر إخراج الحقوق من ماله كالوجه فى تكليف المؤمن ذلك؛ ومحال أن يكون إنما كلّف إخراج هذه الحقوق على سبيل العقاب والجزاء؛ لأن ذلك لا يقتضي وجوبه عليه] (2)؛ والوجه فى تكليف الجميع هذه الأمور هو المصلحة واللطف فى التكليف.

ولا يجرى ذلك مجرى ما قلناه فى الجواب الّذي قبل هذا؛ من أن المصائب والغموم قد تكون للمؤمنين

محنة، وللكافرين عقوبة؛ لأن تلك الأمور مما يجوز أن يكون وجه حسنها العقوبة والمحنة جميعا؛ ولا يجوز فى هذه الفرائض أن يكون لوجوبها على المكلّف إلا وجه واحد، وهو المصلحة فى الدّين، فافترق الأمران.

وليس لهم أن يقولوا: / ليس التعذيب فى إيجاب الفرائض عليهم؛ [وإنما هو لإخراجهم أموالهم على وجه التكرّه والاستثقال] (3)؛ وذلك أنه إذا كان الأمر على ما ذكروه خرج من أن يكون مرادا لله تعالى؛ لأنه جلّ وعز ما أراد منهم إخراج المال على هذا الوجه، بل على الوجه الّذي هو طاعة وقربة؛ فإذا أخرجوها متكرّهين مستثقلين لم يرد ذلك؛ فكيف يقول: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها! ويجب أن يكون ما يعذبون به شيئا يصحّ أن يريده الله تعالى.

وجميع هذه الوجوه التى حكيناها فى الآية- إلا جواب التقديم والتأخير- مبنيّة على أنّ

---

(1) من ف.

(2) ساقط من الأصل، وما أثبته عن ف.

(3) ف: «وإنما هو فى إخراجهم لأموالهم على وجه التكره والاستثقال».

الحياة الدنيا ظرف للعذاب؛ فتحمّل (1) كل متأوّل من القوم ضربا من التأويل؛ طابق (2) ذلك. وما يحتاج عندنا إلى جميع ما تكلّفوه، ولا إلى التقديم والتأخير إذا لم تجعل (3) الحياة ظرفا للعقاب، بل جعلناها ظرفا للفعل الواقع بالأموال والأولاد؛ والمتعلّق بهما؛ لأنا قد علمنا أولا أنّ قوله: لِيُعَذِّبَهُمْ بِها لا بد من الانصراف عن ظاهره؛ لأن الأموال والأولاد أنفسها لا تكون عذابا؛ والمراد على سائر وجوه التأويل الفعل المتعلّق بها والمضاف إليها؛ سواء كان إنفاقها والمصيبة بها والغمّ عليها، أو إباحة غنيمتها وإخراجها عن أيدى مالكيها؛ فكأنّ تقدير (4) الآية: إنما يريد الله ليعذّبهم بكذا وكذا؛ مما يتعلق بأموالهم وأولادهم، ويتّصل بها؛ وإذا صحّ هذا جاز أن تكون الحياة الدنيا ظرفا لأفعالهم القبيحة فى أموالهم وأولادهم التى تغضب الله تعالى وتسخطه؛ كإنفاقهم الأموال فى وجوه المعاصى، وحملهم الأولاد على الكفر، وإلزامهم الموافقة لهم فى النّحلة، ويكون تقدير الكلام: إنما يريد الله ليعذّبهم بفعلهم فى أموالهم وأولادهم؛ الواقع ذلك منهم فى الحياة الدنيا؛ وهذا وجه ظاهر يغنى عن التقديم والتأخير؛ وسائر ما ذكروه من الوجوه.

فأما قوله تعالى: وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ فمعناه تبطل وتخرج؛ أى أنّهم يموتون على الكفر؛ وليس يجب إذا كان مريدا لأن تزهق أنفسهم وهم على هذه الحال أن يكون مريدا للحال نفسها على ما ظنّوه؛ لأنّ الواحد منّا قد يأمر/ غيره ويريد منه أن يقاتل أهل البغى وهم محاربون، ولا يقاتلهم وهم منهزمون، ولا يكون مريدا لحرب أهل البغى للمؤمنين؛ وإن أراد قتالهم على هذه الحالة، وكذلك قد يقول لغلامه: أريد أن تواظب على المصير إلى فى السّجن وأنا محبوس، وللطبيب: صر إلى ولازمنى وأنا مريض، وهو لا يريد المرض ولا

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «فتمحل».
(2) ف: «يطابق».
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «لم نجعل الحياة».
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «فكان تقدير الكلام».

الحبس؛ وإن كان قد أراد ما هو متعلق بهاتين الحالتين.
وقد ذكر فى ذلك وجه آخر على ألّا يكون قوله: وَهُمْ كافِرُونَ حالا لزهوق أنفسهم؛ بل يكون كأنه كلام مستأنف، والتقدير فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ إنما يريد الله ليعذّبهم بها فى الحياة الدنيا؛ وتزهق أنفسهم وهم مع ذلك كافرون صائرون إلى النار؛ وتكون الفائدة أنهم مع عذاب الدنيا قد اجتمع عليهم عذاب الآخرة؛ ويكون معنى تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ على هذا الجواب غير الموت وخروج النفس على الحقيقة، بل المشقة الشديدة والكلف (1) الصّعبة، كما يقال: ضربت فلانا حتى مات وتلفت نفسه، وخرجت روحه، وما أشبه ذلك.

*** [رأى الشريف المرتضى فى شعر مروان بن أبى حفصة ومختارات من محاسن شعره:]
قال سيدنا أدام الله تمكينه: ذاكرنى قوم من أهل الأدب بأشعار المحدثين وطبقاتهم وانتهوا إلى مروان بن يحيى بن أبى حفصة (2)؛ فأفرط بعضهم فى وصفه وتقريظه، وآخرون فى ذمه وتهجينه والإزراء على شعره وطريقته؛ واستخبروا عما أعتقده فيه، فقلت لهم:
كان مروان متساوى الكلام، متشابه الألفاظ، غير متصرّف فى المعانى ولا غواص عليها ولا مدقّق لها؛ فلذلك قلّت
النّظائر فى شعره، ومدائحه مكرّرة الألفاظ والمعانى، وهو غزير الشعر قليل المعنى؛ إلا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحذق، وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته، وأشعر شعراء أهله؛ ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد فى تنقيح الألفاظ وتدقيق المعانى، وحسن الألفاظ، ووقوع التشبيهات، ودون بشّار بن برد فى الأبيات النادرة السائرة، فكأنه طبقة بينهما؛ وليس بمقصّر دونهما شديدا، ولا منحط عنهما بعيدا.
وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يقدّمه على بشار ومسلم، وكذلك أبو عمرو الشيبانىّ

(1) ف: «والكلفة».
(2) هو أبو السمط- وقيل أبو الهندام مروان بن أبى حفصة؛ ولد سنة 105، وهلك فى أيام الرشيد سنة 182. (وانظر ترجمته وأشعاره فى الشعر والشعراء.
739 - 741، وابن خلكان 2: 79 - 81).

وكان الأصمعى يقول: مروان/ مولّد (1)، وليس له علم باللغة. واختلاف الناس فى اختيار الشعر بحسب اختلافهم فى التنبيه على معانيه؛ وبحسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقه.
فسئلت عند ذلك أن أذكر مختار ما وقع إلى من شعره وأنبه على سرقاته ونظائر شعره، وأن أملى ذلك فى خلال المجالس وأثنائها.
فمما يختار من شعره قوله من قصيدة يمدح بها المهدىّ أولها:
أعادك من ذكر الأحبّة عائدا! ... أجل، واستخفّتك الرسوم البوائد
يقول فيها:
تذكّرت من تهوى فأبكاك ذكره ... فلا الذّكر منسىّ ولا الدّمع جامد
تحنّ ويأبى أن يساعدك الهوى ... وللموت خير من هوى لا يساعد
ألا طالما أنهيت دمعك طائعا ... وجارت عليك الآنسات النّواهد
تذكّرنا أبصارها مقل المها ... واعناقها أدم الظّباء العواقد (2)
تساقط منهنّ الأحاديث غضّة ... تساقط درّ أسلمته المعاقد
إليك أمير المؤمنين تجاذبت ... بنا اللّيل خوص كالقسىّ شوارد
يمانية ينأى القريب محلّة ... بهنّ، ويدنو الشاحط المتباعد
النّظائر فى شعره، ومدائحه مكرّرة الألفاظ والمعانى، وهو غزير الشعر قليل المعنى؛ إلا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحذق، وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته، وأشعر شعراء أهله؛ ويجب أن يكون دون مسلم بن الوليد فى تنقيح الألفاظ وتدقيق المعانى، وحسن الألفاظ، ووقوع التشبيهات، ودون بشّار بن برد فى الأبيات النادرة السائرة، فكأنه طبقة بينهما؛ وليس بمقصّر دونهما شديدا، ولا منحط عنهما بعيدا.
وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ يقدّمه على بشار ومسلم، وكذلك أبو عمرو الشيبانىّ

---

(1) ف: «والكلفة».
(2) هو أبو السمط– وقيل أبو الهندام مروان بن أبى حفصة؛ ولد سنة 105، وهلك فى أيام الرشيد سنة 182. (وانظر ترجمته وأشعاره فى الشعر والشعراء. 739 – 741، وابن خلكان 2: 79 – 81).

وكان الأصمعى يقول: مروان/ مولّد (1)، وليس له علم باللغة. واختلاف الناس فى اختيار الشعر بحسب اختلافهم فى التنبيه على معانيه؛ وبحسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقه.
فسئلت عند ذلك أن أذكر مختار ما وقع إلى من شعره وأنبه على سرقاته ونظائر شعره، وأن أملى ذلك فى خلال المجالس وأثنائها.
فمما يختار من شعره قوله من قصيدة يمدح بها المهدىّ أولها:

أعادك من ذكر الأحبّة عائدا! ... أجل، واستخفّتك الرسوم البوائد
يقول فيها:
تذكّرت من تهوى فأبكاك ذكره ... فلا الذّكر منسيّ ولا الدّمع جامد
تحنّ ويأبى أن يساعدك الهوى ... وللموت خير من هوى لا يساعد
ألا طالما أنهيت دمعك طائعا ... وجارت عليك الآنسات النّواهد
تذكّرنا أبصارها مقل المها ... واعناقها أدم الظّباء العواقد (2)
تساقط منهنّ الأحاديث غضّة ... تساقط درّ أسلمته المعاقد
إليك أمير المؤمنين تجاذبت ... بنا اللّيل خوص كالقسيّ شوارد
يمانية ينأى القريب محلّة ... بهنّ، ويدنو الشاحط المتباعد
تجلّى السّرى عنها، وللعيس أعين ... سوام وأعناق إليك قواصد
إلى ملك تندى إذا يبس الثّرى ... بنائل كفّيه الأكفّ الجوامد

---

(1) ف: «المولدون الذين بعد المخضرين» وفى حاشية الأصل (من نسخة): «مولد» بكسر اللام؛ أى يولد الكلام.
(2) العاقد: هو الظبى الّذي عطف عنقه إلى ناحية عجزه؛ وقيل إن الصغائر تفعل ذلك كثيرا؛ قال ساعدة:
وكأنّما وافاك يوم لقيتها ... من وحش وجرة عاقد متربّب
ولا يبعد أن يكون العواقد اللائى يأوين إلى عقدات الرمل، أو يكون معناه أنها عقدت أعناقها ملتفة إلى أذنابها، وذلك معهود من عادتها.

له فوق مجد النّاس مجدان منهما ... طريف وعادىّ الجراثيم تالد
وأحواض عزّ حومة الموت دونها ... وأحواض عرف ليس عنهنّ ذائد
أيادى بنى العبّاس بيض سوابغ ... على كلّ قوم باديات عوائد
هم يعدلون السّمك من قبّة الهدى ... كما تعدل البيت الحرام القواعد
سواعد عزّ المسلمين، وإنما ... تنوء بصولات الأكفّ السّواعد
/ يكون غرارا نومه من حذاره ... على قبّة الإسلام والخلق راقد
كأنّ أمير المؤمنين محمّدا ... لرأفته بالنّاس للنّاس والد
أما قوله:
تساقط منهنّ الأحاديث غضّة ... تساقط درّ أسلمته المعاقد
فكثير فى الشعر، وأظن أن الأصل فيه أبو حيّة النميرى فى قوله:
إذا هنّ ساقطن الأحاديث للفتى ... سقوط حصى المرجان من كفّ ناظم
وإنما عنى بالمرجان صغار اللؤلؤ، وعلى هذا يتأول قوله تعالى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ؛ [الرحمن:

22].

ومثله قول الآخر:

هى الدّرّ منثورا إذا ما تكلّمت ... وكالدّرّ منظوما إذا لم تكلّم

ومثله:

من ثغرها الدّرّ النّظي ... م ولفظها الدّرّ النثير

ونظيره قول البحترىّ- وأحسن غاية الإحسان:

ولمّا التقينا والنّقا موعد لنا ... تعجّب رائى الدّرّ حسنا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ... ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

(1/520)

ومثله قول الأخيطل (1).

خلوت بها وسجف الليل ملقى ... وقد أصغت إلى الغرب النّجوم

كأنّ كلامها درّ نثير ... ورونق ثغرها درّ نظيم

ولغيره:

تبسّمت فرأيت الدّرّ منتظما ... وحدّثت فرأيت الدّرّ منتثرا

ولآخر:

وتحفظ لا من ريبة يحذرونها ... ولكنها من أعين النّاس تحفظ

وتلفظ درّا فى الحديث إذا جرى ... ولم نر درّا قبل ذلك يلفظ

ولبعض من تأخر زمانه من الشعراء وقرب من عصرنا هذا:

أظهرن وصلا إذ رحمن متيّما ... وأرين هجرا إذ خشين مراقبا

/ فنظمن من درّ المباسم جامدا ... ونثرن من درّ المدامع ذائبا

قال قدس الله روحه: وليس قول أبي دهبل فى صفة الحديث (2):

كتساقط الرّطب الجنىّ من ال ... أقناء لا نثرا ولا نزرا

من هذا الباب فى شيء، لأن جميع ما تقدم هو فى وصف الثّغر؛ وهذا فى وصف حسن الحديث وأنه متوسّط فى القلة والكثرة، لازم للقصد كانتثار الرّطب من الأقناء؛ ويشبه أن يكون أراد أيضا مع ذلك وصفه بالحلاوة والغضاضة لتشبيهه له بالرطب، ثم إنه غضّ طرىّ غير مكرّر ولا معاد؛ لقوله: «الرطب الجنىّ» فتجتمع له أغراض: الوصف بالاقتصاد فى القلة والكثرة، ثم وصفه بالحلاوة، ثم الفصاحة، ثم الغضاضة.

---

(1) فى م: «الأخطل» خطأ؛ وفى حاشية الأصل: «الأهوازى، يقال له برقوقا»؛ وهو محمد بن عبد الله، شاعر مجيد من أهل الأهواز.

(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فى وصف حسن الحديث والثغر».

ونظير قول أبي دهبل قول ذى الرمّة:
لها بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر (1)
فأما قول مروان:
إلى ملك تندى إذا يبس الثّرى ... بنائل كفّيه الأكفّ الجوامد
فمثل قول أبي حنش النميرىّ فى يحيى بن خالد البرمكيّ:
لا ترانى مصافحا كفّ يحيى ... إنّنى إن فعلت أتلفت (2) مالى
لو يمسّ البخيل راحة يحيى ... لسخت نفسه ببذل النّوال
ومثله قول ابن الخياط (3) المدنىّ فى المهدىّ:
لمست بكفّى كفّه أبتغى الغنى ... ولم أدر أنّ الجود من كفّه يعدى (4)
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت، وأعدانى فأتلفت ما عندى
وقد قيل إن هذا الشاعر كأنه مصرّح بالهجاء؛ لأنه زعم أنّ الّذي لمس كفّه لم يفده شيئا بل أعداه جوده، فأتلف ماله، ولم يرد الشاعر إلا المدح؛ ولقوله وجه، وهو أنّ ذوى الغنى هم الذين تستقر الأموال فى أيديهم وتلبث تحت أيمانهم؛ ومن أخرج ما يملكه حالا بحال لا يوصف بأنه ذو غنى، فأراد الشاعر أننى لم أفد منه ما بقى فى يدى واستقرّ تحت ملكى؛ فلهذا قال: لم أفد ما أفاد ذرو الغنى.
ومن هذا المعنى قول مسلم:
/ إلى ملك لو صافح النّاس كلّهم ... لما كان حىّ فى البريّة يبخل
ومثله قول العكوّك:
لو لمس النّاس راحتيه ... ما بخل النّاس بالعطاء

---

(1) ديوانه 212.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «أتلف».
(3) حاشية الأصل: «ابن الخياط، هو عبد الله بن محمد، ويعرف بابن الخياط؛ ذكر ذلك أبو الفرج الأصبهانى رحمه الله» وترجمته فى الأغانى 18: 94 – 100.
(4) الأغانى 18: 94.

وأحسن من هذا كلّه وأشبه بالمدح، وأدخل فى طريقته قول البحترىّ:
من شاكر عنّى الخليفة بالذّي ... أولاه من طول ومن إحسان (1)
ملأت يداه يدى وشرّد جوده ... بخلى، فأفقرنى كما أغنانى
حتى لقد أفضلت من إفضاله ... ورأيت نهج الجود حيث أرانى

ووثقت بالخلف الجميل معجّلا ... منه، فأعطيت الّذي أعطانى
ومن هذا قول الآخر:
رأيت الندى فى آل عوف خليقة ... إذا كان فى قوم سواهم تخلّقا
ولو جزت فى أبياتهم (2) لتعلّمت ... يداك النّدى منهم فأصبحت مملقا
ولابن الرومىّ:
يجود البخيل إذا ما رآك ... ويسطو الجبان إذا عاينك
فأما قوله:
وأحواض عزّ حومة الموت دونها ... وأحواض عرف ليس عنهنّ ذائد
فيشبه أن يكون إبراهيم بن العباس الصولىّ أخذه فى قوله:
لنا إبل كوم يضيق بها الفضا ... وتفترّ عنها أرضها وسماؤها (3)
فمن دونها أن تستباح دماؤنا ... ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمى وقرى فالموت دون مرامها ... وأيسر خطب عند حقّ فناؤها
وقد أحسن إبراهيم بن العباس فى أبياته كل الإحسان.
فأما قوله:
يكون غرارا نومه من حذاره ... على قبّة الإسلام والخلق راقد
/ فكثير متداول، ومن حسنه قول محمد بن عبد الملك الزيات:

---

(1) ديوانه 2: 272.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «فى أثنائهم».
(3) ديوانه: 153، والأغانى 10: 59 (طبع دار الكتب المصرية). الكوم: الإبل الضخمة العظيمة السنام؛ الواحد أكوم والأنثى كوماء.

نعم الخليفة للرّعيّة من إذا ... رقدت وطاب لها الكرى لم يرقد
ومثله:
ويظلّ يحفظنا ونحن بغفلة ... ويبيت يكلؤنا ونحن نيام
ومثله للبحترىّ:
أربيعة الفرس اشكرى يد منعم ... وهب الإساءة للمسيء الجانى (1)
روّعتموا جاراته فبعثتمو ... منه حميّة آنف غيران
لم تكر عن قاصى الرّعية عينه ... فتنام عن وتر القريب الدّانى
فأما قوله:
كأن أمير المؤمنين محمدا ... لرأفته بالناس للناس والد
فنظير قول بعض الشعراء فى يحيى بن خالد البرمكي:

أحيا لنا يحيى فعال خالد ... فأصبح اليوم كثير الحامد
يسخو بكلّ طارف وتالد ... على بعيد غائب وشاهد
الناس فى إحسانه كواحد ... وهو لهم أجمعهم كالوالد
ومن جيد قول مروان من قصيدة أوّلها:
خلت بعدنا من آل ليلى المصانع ... وهاجت لنا الشّوق الدّيار البلاقع
يقول فيها:
ومالى إلى المهدىّ لو كنت مذنبا ... سوى حلمه الضّافى على النّاس شافع
ولا هو عند السّخط منه ولا الرّضا ... بغير التى يرضى بها الله واقع (2)
تغضّ له الطّرف العيون وطرفه ... على غيره من خشية الله خاشع

(1) ديوانه 2: 272. وفى حاشية الأصل: «ربيعة رجل ورث أباه دوابه، فقيل له ربيعة الفرس؛ وسميت القبيلة باسم ربيعة وهى التى تذكر مع مضر».
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «ولا هو» وفيها (من نسخة): «قانع».

أما قوله:
* ولا هو عند السخط منه ولا الرّضا* ... البيت
فمثل قول أشجع:
ولست بخائف لأبى علىّ ... ومن خاف الإله فلن يخافا
/ ومثله:
أمّنى منه ومن خوفه ... خيفته من خشية البارى
ولأبى نواس:
قد كنت خفتك ثمّ أمّنى ... من أن أخافك خوفك الله (1)
ويشبه هذا المعنى ما روى عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله أنه دعا غلاما مرارا فلم يجبه، فخرج فوجده على الباب (2) فقال له: ما حملك على ترك إجابتى؟ قال: كسلت عن إجابتك، وأمنت عقوبتك، فقال: عليه السلام: الحمد لله الّذي جعلنى ممن يأمنه خلقه.
فأما قوله: «تغضّ له الطرف العيون» فيشبه أن يكون مأخوذا من قول الفرزدق، أو ممّن تنسب إليه هذه الأبيات:
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلّم إلّا حين يبتسم (3)

(1) ديوانه 109؛ من أبيات بعث بها إلى الفضل بن الربيع.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «على باب البيت».
(3) ينسب هذا البيت مع غيره أيضا للحزين الكنانى؛ وانظر ما مر من حواشى ص 68.

40 مجلس آخر [المجلس الأربعون:]
تأويل آية [: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا ...]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ؛ [الأنفال: 24].
فقال: ما معنى الحول بين المرء وقلبه؟ وهل يصحّ ما تأوّله قوم من أنّه يحول بين الكافر وبين الإيمان؟
وما معنى قوله: لِما يُحْيِيكُمْ؟ وكيف تكون الحياة فى إجابته؟
الجواب، قلنا: أما قوله تعالى: يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ففيه وجوه:
أوّلها أن يريد بذلك أنّه تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت، وهذا حثّ من الله عز وجل على الطاعات والمبادرة بها قبل الفوت وانقطاع التّكليف، وتعذّر ما يسوّف به المكلّف نفسه من التوبة والإقلاع؛ فكأنه تعالى قال: بادروا إلى الاستجابة لله وللرسول من قبل أن يأتيكم الموت فيحول بينكم وبين الانتفاع بنفوسكم وقلوبكم، ويتعذر عليكم ما تسوّفون به (1) نفوسكم من التوبة بقلوبكم. ويقوّى ذلك قوله تعالى: وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (2).
وثانيها أن يحول بين المرء وقلبه بإزالة عقله وإبطال تمييزه، وإن كان حيّا، وقد يقال لمن فقد عقله وسلب تمييزه: إنّه بغير عقل (3)؛ قال الله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ؛ [ق: 37].
وقال الشاعر:
/ ولي ألف وجه قد عرفت مكانه ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب!

وهذا الوجه يقرب من الأوّل؛ لأنه تعالى أخرج هذا الكلام مخرج الإنذار لهم،

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة) «فيه».
(2) بقية الآية السابقة.
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «بغير قلب».

والحث لهم (1) على الطاعات قبل فوتها، لأنه لا فرق بين تعذّر التوبة وانقطاع التكليف بالموت وبين تعذّرها بإزالة العقل.
وثالثها أن يكون المعنى المبالغة فى الإخبار عن قربه من عباده وعلمه بما يبطنون ويخفون؛ وأنّ الضمائر المكنونة (2) له ظاهرة، والخفايا المستورة لعلمه بادية؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى:
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؛ [ق: 16]، ونحن نعلم أنه لم تعالى يرد بذلك قرب المسافة، بل

المعنى الّذي ذكرناه.
وإذا كان عزّ وجل هو أعلم بما فى قلوبنا منّا، وكان ما نعلمه أيضا يجوز أن ننساه، ونسهو عنه، ونضلّ عن علمه- وكل ذلك لا يجوز عليه- جاز أن يقول: إنه يحول بيننا وبين قلوبنا؛ لأنه معلوم فى الشاهد أن كل شيء يحول بين شيئين فهو أقرب إليهما.
ولما أراد تعالى المبالغة فى وصف القرب خاطبنا بما نعرف ونألف؛ وإن كان القرب الّذي عناه جلّت عظمته لم يرد به المسافة، والعرب تضع كثيرا لفظة القرب على غير معنى المسافة؛ فيقولون: فلان أقرب إلى قلبى من فلان، وزيد منى قريب، وعمرو منّى بعيد؛ ولا يريدون المسافة.
ورابعها- ما أجاب به بعضهم- من أنّ المؤمنين كانوا يفكّرون فى كثرة عدوّهم، وقلة عددهم، فيدخل قلوبهم الخوف، فأعلمهم تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه، بأن يبدّله بالخوف الأمن؛ ويبدّل عدوّهم- بظنهم أنهم قادرون عليهم وغالبون لهم- الجبن والخور.
ويمكن فى الآية وجه خامس؛ وهو أن يكون المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يدعوه إليه قلبه من القبائح؛ بالأمر والنهى والوعد والوعيد؛ لأنا نعلم أنه تعالى لو لم يكلف العاقل مع ما فيه من الشهوات والنفار لم يكن له عن القبيح مانع؛ ولا عن مواقعته رادع؛ فكأنّ التكليف حائل بينه وبينه؛ من حيث زجر عن فعله، وصرف عن مواقعته؛

---

(1) ساقطة من ف.
(2) حاشية ف (من نسخة): «المكنومة».

وليس يجب فى الحائل/ أن يكون فى كل موضع مما يمتنع معه الفعل؛ لأنا نعلم أن المشير منّا على غيره فى أمر كان قد همّ به وعزم على فعله أن يجتنبه. والمنبّه له على أنّ الحظ فى الانصراف عنه يصح أن يقال: منعه (1)، وحال بينه وبين فعله، قال عبيد الله بن قيس الرقيات (2):
حال دون الهوى ودو ... ن سرى اللّيل مصعب
وسياط على أك ... فّ رجال تقلّب
ونحن نعلم أنه لم يحل إلّا بالتخويف والترهيب دون غيرهما.
فإن قيل: كيف يطابق هذا الوجه صدر الآية؟
قلنا: وجه المطابقة ظاهر، لأنه تعالى أمرهم بالاستجابة لله تعالى ولرسوله فيما يدعوان إليه من فعل الطاعات، والامتناع من المقبّحات، وأعلمهم أنه بهذا الدعاء والإنذار وما يجرى (3) مجراهما يحول بين المرء وبين ما تدعوه إليه نفسه من المعاصى؛ ثم إن المآب بعد هذا كلّه إليه والمنقلب إلى ما عنده؛ فيجازى كلّا باستحقاقه.
فأما قوله تعالى: إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ ففيه وجوه:
أوّلها أن يريد بذلك الحياة فى النعيم (4) والثواب، لأنّ تلك هى الحياة الطيبة الدائمة التى يؤمن من تغيّرها، ولا يخاف انتقالها، فكأنه تعالى حث على إجابته التى تكسب هذه الحال.

وثانيها أنّه يختص (5) ذلك بالدعاء إلى الجهاد وقتال العدوّ، فكأنه تعالى أمرهم بالاستجابة للرسول عليه السلام
فيما يأمرهم به من قتال عدوّهم (6)؛ ودفعهم عن حوزة الإسلام

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «منعه منه».
(2) حاشية الأصل: «كان جده شاعرا يشبب بجماعة من النساء، اسم كل واحدة منهن رقية؛ فأضيف إليهن».
(3) حاشية ف (من نسخة): «وما جرى».
(4) حاشية ف (من نسخة): «النعم».
(5) ش: «أن يختص».
(6) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف «الأعداء».

وأعلمهم أنّ ذلك يحييهم من حيث كان فيه قهر للمشركين، وتقليل لعددهم، وفلّ لحدّهم؛ وحسم لأطماعهم، لأنهم متى كثروا وقووا استلانوا جانب المؤمنين؛ وأقدموا عليهم بالقتل وصنوف المكاره؛ فمن هاهنا كانت الاستجابة له عليه السلام فى القتال تقتضى الحياة والبقاء؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ؛ [البقرة: 179].
وثالثها ما قاله قوم من أنّ كلّ طاعة حياة، ويوصف فاعلها بأنه حىّ، كما أن المعاصى يوصف فاعلها بأنه ميت، والوجه فى ذلك/ أنّ الطائع لما كان (1) منتفعا بحياته، وكانت تؤديه إلى الثواب الدائم قيل: إن الطاعة حياة؛ ولما كان الكافر العاصى لا ينتفع بحياته؛ من حيث كان مصيره إلى العقاب الدائم كان فى حكم الميّت؛ ولهذا يقال لمن كان منغّص (2) الحياة، غير منتفع بها: فلان بلا عيش ولا حياة، وما جرى مجرى ذلك من حيث لم ينتفع بحياته.
ويمكن فى الآية وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالكلام الحياة بالحكم لا فى الفعل؛ لأنا قد علمنا أنه عليه السلام كان مكلّفا مأمورا بجهاد جميع المشركين المخالفين لملته وقتلهم، وإن كان فيما بعد كلّف ذلك فيمن عدا أهل الذمة على شرطها؛ فكأنه تعالى قال: استجيبوا للرسول ولا تخالفوه، فإنكم إذا خالفتم كنتم فى الحكم غير أحياء، من حيث تعبّد عليه السلام بقتالكم وقتلكم، فإذا أطعتم كنتم فى الحكم أحياء؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى:
وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً؛ [آل عمران: 97]؛ وإنما أراد تعالى أنه يجب أن يكون آمنا؛ وهذا (3) حكمه، ولم يخبر بأن ذلك لا محالة واقع.
فأما المجبرة فلا شبهة لهم فى الآية، ولا متعلّق بها؛ لأنه تعالى لم يقل: إنه يحول بين المرء وبين الإيمان، بل ظاهر الآية يقتضي أنّه يحول بينه وبين أفعاله، وإنما يقتضي ظاهرها أنه يحول بينه وبين قلبه؛ وليس للإيمان ولا
للكفر ذكر، ولو كان للآية ظاهر يقتضي

(1) ش: «إذا كان».
(2) حاشية ف (من نسخة): «متكدر».
(3) حاشية ف (من نسخة): «وهكذا حكمه».

ما ظنوه- وليس لها ذلك- لانصرفنا عنه بأدلة العقل الموجبة أنه تعالى لا يحول بين المرء وبين ما أمره به، وأراده منه، وكلّفه فعله؛ لأن ذلك قبيح، والقبائح عنه منفيّة.

*** [خبر حصن بن حذيفة مع أولاده حين طعنه كرز بن عامر:]
أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانيّ قال حدثنى أحمد بن محمد الجوهريّ قال حدثنا الحسن بن عليل العنزيّ قال حدثنا أحمد بن عمرو بن إسماعيل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عوف قال حدثنى محمد بن خالد (1) بن عبد الله عن الحجاج السّلميّ قال: لما اشتد بحصن ابن حذيفة بن بدر وجعه من طعنة كرز (2) بن عامر إياه يوم بنى عقيل دعا ولده فقال:
إن الموت أهون مما أجد، فأيّكم يطيعنى؟ قالوا: كلنا نطيعك؛ فبدأ بأكبرهم فقال: قم فخذ سيفى واطعن به حيث آمرك، ولا تعجّل؛ قال: يا أبتاه: أيقتل المرء (3) أباه! فأتى على القوم كلّهم/، فأجابوه جواب (4) الأول؛ حتى انتهى إلى عيينة فقال: يا أبتاه، أليس لك فيما تأمرنى به راحة، ولي بذلك طاعة؛ وهو هواك؟ قال: بلى، قال: فمرنى كيف أصنع، قال:
قم فخذ سيفى فضعه حيث آمرك (5)، ولا تعجّل، فقام فأخذ سيفه، ووضعه على قلبه، ثم قال: يا أبتاه، كيف أصنع؟ قال: ألق السيف؛ إنما أردت أن أعلم: أيّكم أمضى لما آمر به؛ فأنت خليفتى ورئيس قومك من بعدى، فقال القوم: إنه [سيقول فيما كان بيتا، فاحضروه] (6) فلما أمسى قال:
ولّوا عيينة من بعدى أموركم ... واستيقنوا أنه بعدى لكم حام
إما هلكت فإنى قد بنيت لكم ... عزّ الحياة بما قدّمت قدّامى
واستوسقوا للتى فيها مروءتكم ... قود الجياد، وضرب القوم فى إلهام (7)

(1) ش: «عمر بن خالد».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «كريز».
(3) ش: «الرجل».
(4) ف: «بجواب الأول». حاشية الأصل (من نسخة):
«الجواب الأول».
(5) حاشية الأصل (من نسخة): «كما أمرت به».
(6) م: «إنه سيقول فى ذلك شيئا فيما بيننا، فأحضروه».

(7) استوسقوا: انضموا واجتمعوا، وفى حاشية الأصل: «نصب «قود الجياد»، على تقدير فعل مضمر؛ كأنه قال: أعنى قود الجياد».

(1/530)

والقرب من قومكم- والقرب ينفعكم- ... والبعد إن باعدوا، والرّمى للرّامي
ولى حذيفة إذ ولى وخلّفنى ... يوم الهباة يتيما وسط أيتام
لا أرفع الطّرف ذلّا عند مهلكة ... ألقى العدوّ بوجه خدّه دامى
حتّى اعتقدت لوا قومي فقمت به ... ثمّ ارتحلت إلى الجفنىّ بالشام
لما قضى ما قضى من حقّ زائره ... عجت المطىّ إلى النّعمان من عامى
أسمو لما كانت الآباء تطلبه ... عند الملوك فطرفى عندهم سامى
والدّهر آخره شبه لأوّله ... قوم كقوم وأيّام كأيّام
فابنوا ولا تهدموا فالنّاس كلّهم ... من بين بان إلى العليا وهدّام
قال: ثم أصبح ودعا بنى بدر، فقال: لوائى ورئاستي لعيينة؛ واسمعوا منى ما أوصيكم به:
لا يتكل آخركم على أولكم؛ فإنما يدرك الآخر «1» ما أدركه الأول؛ وأنكحوا الكفء «2» الغريب؛ فإنه عزّ حادث؛ وإذا حضركم أمران فخذوا بخيرهما صدرا؛ فإن كلّ مورد معروف؛ واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم؛ ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه؛ فإن الخلاف يزرى بالرئيس المطاع؛ وإذا حاربتم فأوقعوا ثم قولوا صدقا؛ فإنه لا خير فى الكذب، وصونوا الخيول، فإنها حصون الرجال؛ وأطيلوا الرماح؛ فإنها قرون الخيل؛ وأعزوا «3» الكبير بالكبير؛ فإنى بذلك كنت أغلب الناس، ولا تغزوا إلّا بالعيون؛ ولا تسرحوا حتى تأمنوا الصباح؛ وأعطوا على حسب المال، وأعجلوا الضيف بالقرى؛ فإن خيره أعجله، واتقوا فضحات البغى، وفلتات المزاح، ولا تجترءوا على الملوك؛ فإن أيديهم أطول من أيديكم؛ واقتلوا كرز بن عامر.
(1) ش: «عمر بن خالد».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «كريز».
(3) ش: «الرجل».
(4) ف: «بجواب الأول». حاشية الأصل (من نسخة):
«الجواب الأول».
(5) حاشية الأصل (من نسخة): «كما أمرت به».
(6) م: «إنه سيقول فى ذلك شيئا فيما بيننا، فأحضروه».
(7) استوسقوا: انضموا واجتمعوا، وفى حاشية الأصل: «نصب «قود الجياد»، على تقدير فعل مضمر؛ كأنه قال: أعنى قود الجياد».

(1/531)

والقرب من قومكم- والقرب ينفعكم- ... والبعد إن باعدوا، والرّمى للرّامي
ولى حذيفة إذ ولى وخلّفنى ... يوم الهباة يتيما وسط أيتام
لا أرفع الطّرف ذلّا عند مهلكة ... ألقى العدوّ بوجه خدّه دامى
حتّى اعتقدت لوا قومي فقمت به ... ثمّ ارتحلت إلى الجفنىّ بالشام
لما قضى ما قضى من حقّ زائره ... عجت المطىّ إلى النّعمان من عامى
أسمو لما كانت الآباء تطلبه ... عند الملوك فطرفى عندهم سامى
والدّهر آخره شبه لأوّله ... قوم كقوم وأيّام كأيّام
فابنوا ولا تهدموا فالنّاس كلّهم ... من بين بان إلى العليا وهدّام
قال: ثم أصبح ودعا بنى بدر، فقال: لوائى ورئاستي لعيينة؛ واسمعوا منى ما أوصيكم به:
لا يتكل آخركم على أولكم؛ فإنما يدرك الآخر (1) ما أدركه الأول؛ وأنكحوا الكفء (2) الغريب؛ فإنه عزّ حادث؛ وإذا حضركم أمران فخذوا بخيرهما صدرا؛ فإن كلّ مورد معروف؛ واصحبوا قومكم بأجمل أخلاقكم؛ ولا تخالفوا فيما اجتمعوا عليه؛ فإن الخلاف يزرى بالرئيس المطاع؛ وإذا حاربتم فأوقعوا ثم قولوا صدقا؛ فإنه لا خير فى الكذب، وصونوا الخيول، فإنها حصون الرجال؛ وأطيلوا الرماح؛ فإنها قرون الخيل؛ وأعزوا (3) الكبير بالكبير؛ فإنى بذلك كنت أغلب الناس، ولا تغزوا إلّا بالعيون؛ ولا تسرحوا حتى تأمنوا الصباح؛ وأعطوا على حسب المال، وأعجلوا الضيف بالقرى؛ فإن خيره أعجله، واتقوا فضحات البغى، وفلتات المزاح، ولا تجترءوا على الملوك؛ فإن أيديهم أطول من أيديكم؛ واقتلوا كرز بن عامر.
ومات حصن فأخذ عيينة الرّئاسة، وقال:
أطعت أبا عيينة فى هواه ... فلم تخلج صريمتى الظّنون (4)

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «الأخير».
(2) ف، وحاشية الأصل (من نسخة):
«الكفى».
(3) س: «واغزو».
(4) الصريمة: العزيمة والرأى. وفى حاشية الأصل: «يقال: اختلجته الظنون وتخالجته وخلجته، أى ظن، والشاعر يقول: لم تأخذنى الظنون مآخذها إلى طعنه، ولم أظن ظنا».

وقد عرض الرّئيس على بنيه ... فقال القوم: هذا لا يكون
ستحيا أو تموت، فطاولوه (1) ... وقتل المرء والده جنون
فلم أقتل بحمد الله حصنا ... وكلّ فتى ستدركه المنون
ولم أنكل عليه، وكلّ أمر ... إذا هوّنته يوما يهون
فإن يك بدء هذا الأمر غثّا ... فآخره بنى بدر سمين

وحكى عمرو بن بحر الجاحظ أن اسم عيينة بن حصن حذيفة، وإنما أصابته اللّقوة (2) فجحظت عينه؛ وزال فكّه، فسمى لذلك عيينة؛ وإذا عظمت عين الإنسان لقّبوه أبا عيينة، وأبا عيناء.
وروى قيس بن أبى حازم أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «هذا أحمق مطاع».
وروى أيضا أنه كان يدلع (3) لسانه للحسين بن عليّ عليهما السلام وهو صبىّ، فيرى [الصبىّ] (4) لسانه، فيهشّ له، فقال له عيينة: ألا أراك (5) تصنع هذا بهذا، فو الله إنه ليكون لى الابن رجلا قد خرج وجهه، ما قبّلته قطّ، فقال رسول رسول الله صلى الله عليه وآله: «[إنه من لم يرحم لا يرحم] (6)».

*** [عود إلى المختار من شعر مروان بن أبى حفصة:]
ونعود إلى ما كنا وعدنا به من الكلام على شعر مروان؛ فمما يختار من شعره قوله من قصيدة أوّلها:
صحا بعد جهل فاستراحت عواذله ... وأقصرن عنه حين أقصر باطله
/ ومن مدّ فى أيامه فتأخّرت ... منيّته، فالشّيب لا شكّ شامله

(1) حاشية الأصل (من نسخة):
* سيحيا أو يموت فطاولوه*.
(2) اللقوة: داء فى الوجه يعوج منه الشدق.
(3) يقال دلع لسانه وأدلعه إذا أخرجه.
(4) تكملة من ش.
(5) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «لا أراك».
(6) حاشية الأصل (من نسخة): «من لم يرحم لا يرحم».

يقول فى المديح فيها:
هو المرء؛ أما دينه فهو مانع ... صئون (1)، وأما ماله فهو باذله
أمرّ وأحلى ما بلى النّاس طعمه ... عقاب أمير المؤمنين ونائله
أبىّ لما يأبى ذوو الحزم والتّقى ... فعول إذا ما جدّ بالأمر فاعله
تروك الهوى، لا السّخط منه ولا الرّضا ... لدى موطن إلّا على الحقّ حامله (2)
يرى أنّ مرّ الحقّ أحلى مغبّة ... وأنجى ولو كانت زعافا مناهله
فإنّ طليق الله من هو مطلق ... وإنّ قتيل الله من هو قاتله
وإنّك بعد الله للحكم الّذي ... تصاب به من كلّ حقّ مفاصله
أما قوله:
ومن مدّ فى أيامه فتأخّرت ... منيّته، فالشّيب لا شكّ شامله

فمأخوذ من قول طريح بن إسماعيل الثقفىّ:
والشّيب غاية من تأخّر حينه ... لا يستطيع دفاعه من يجزع
والأصل فى هذا قول أميّة بن أبى الصّلت:
من لم يمت عبطة يمت هرما ... وللموت كأس، والمرء ذائقها (3)
ويشبه ذلك قول الآخر:
قل لعرسى ليس شيبى بعجب ... من يعش يا أمّ عمار يشب
ومثله قول أبى العتاهية:
من يعش يهرم، ومن يكبر يمت ... والمنايا لا تبالى من أتت (4)

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «مصون».
(2) حاشية الأصل: «أى لا يحمد السخط ولا الرضا إلا على الحق».
(3) عبطة؛ أى شابا صحيحا؛ كذا ذكره صاحب اللسان (فى عبط)، واستشهد بالبيت. وفى نسخة ش: «فالمرء ذائقها».
(4) ديوانه: 39.

يشبهه قول البحترىّ:
ولا بدّ من ترك إحدى اثنتين ... فإمّا الشّباب وإما العمر (1)
/ ويقاربه أيضا قوله:
والشّيب مهرب من جارى منيّته ... ولا نجاء له من ذلك الهرب (2)
وقريب منه قول ابن المعتز:
وقالت كبرت وانتضيت من الصّبا ... فقلت لها: ما عشت إلّا لأكبرا (3)
ولبعضهم:
ولا بدّ من موت؛ فإما شبيبة ... وإمّا مشيب، والشبيبة أصلح
معنى قوله: «والشبيبة أصلح» أنّ الإنسان إذا مات شابا كان أكثر للحزن عليه والأسف على مفارقته، فإذا أسنّ برم به أهله، وهان عليهم فقده.
فأما قوله:
هو المرء، أما دينه فهو مانع ... صئون، وأما ماله فهو باذله
فمعناه متكرر فى الشعر كثير جدا.
وأحسن شعر جمع بين وصف الممدوح؛ بمنع ما يجب منعه، وبذل ما يجب بذله قول مسلم بن الوليد:
يذكّر نيك الجود والبخل والنّهى ... وقول الخنا والحلم والعلم والجهل [4]
فألقاك عن مذمومها متنزّها ... وألقاك فى محمودها ولك الفضل
وأحمد من أخلاقك البخل إنه ... بعرضك- لا بالمال حاشا لك- البخل

(1) ديوانه: 1: 219.
(2) ديوانه 1: 30.
(3) ديوانه: 1: 31، وانتضيت من الصبا، أى خلع عنك صباك.

وقد أحسن البحترىّ فى قوله:
بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن وجدنا لفتح ضريبا (1)
تنقّل فى سلفى (2) سؤدد ... سماحا مرجّى وبأسا مهيبا
فكالسّيف إن جئته صارخا ... وكالبحر إن جئته مستثيبا
فأما قوله:
تروك الهوى، لا السخط منه ولا الرّضا ... لدى موطن إلّا على الحقّ حامله
فمعنى متداول (3) مطروق فى الشعر، وقد كرّره هو فى قوله:
إذا هنّ ألقين الرّحال ببابه ... حططن به ثقلا، وأدركن مغنما (4)
/ إلى طاهر الأخلاق، ما نال فى رضا ... ولا غضب مالا حراما ولا دما (5)
وأحسن من هذا قول أبى تمّام فى محمد بن عبد الملك:
ثبت الخطاب إذا اصطكّت بمظلمة ... فى رحله ألسن الأقوام والرّكب (6)
لا المنطق اللّغو يزكو فى مقاومه ... يوما، ولا حجّة الملهوف تستلب
كأنّما هو فى نادى قبيلته ... لا القلب يهفو ولا الأحشاء تضطرب
وتحت ذاك قضاء حزّ شفرته ... كما يعضّ بظهر الغارب القتب (7)
لا سورة تتّقى منه ولا بله ... ولا يخاف (8) رضا منه ولا غضب

(1) ديوانه 1: 51، من قصيدة يمدح فيها الفتح بن خاقان وزير المتوكل وبعاتبه، ومطلعها:
لوت بالسلام بنانا خضيبا ... ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا
ومن نسخة بحاشية الأصل: «فما إن رأينا لفتح ضريبا».
(2) حاشية الأصل (من نسخة):
«خلقى سؤدد»؛ وهى رواية الديوان.
(3) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فمبذول».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «وأدين مغنما»، .
(5) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «طاهر الأثواب».
(6) ديوانه: 48 – 49. وفى م:
«ثبت الجنان».

(7) الغارب: الكاهل. القتب: ما يوضع على ظهر الرحل.
(8) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ولا يخيف».

ومثله قول البحترى فى ابن الزّيات أيضا:
وجّه الحقّ بين أخذ وإعطا ... وقصد فى الجمع والتّبديد (1)
واستوى النّاس فالقريب قريب ... عنده، والبعيد غير بعيد
لا يميل الهوى به حين يمضى ال ... أمر بين المقلىّ والمودود
وسواء لديه أبناء إبرا ... هيم فى حكمه وأبناء هود (2)
مستريح الأحشاء من كلّ ضغن ... بارد الصّدر من غليل الحقود
فأما قوله:
* وإنّ قتيل الله من هو قاتله*
فيشبه أن يكون مأخوذا من قول يزيد بن مفرّغ فى عبيد الله بن زياد:
إنّ الّذي عاش ختّارا بذمّته ... ومات عبدا قتيل الله بالزّاب (3)
أما قوله:
وإنك بعد الله للحكم الّذي ... تصاب به من كل حقّ مفاصله

[أبيات أبي تمام فى وصف القلم:]
فيشبه قول أبي تمام يصف القلم، من قصيدة يمدح بها ابن الزيات، وأجمع العلماء أنّ هذه الأبيات أحسن وأفخم من جميع ما قيل فى القلم:
لك القلم الأعلى الّذي بشباته ... تصاب من الأمر الكلى والمفاصل (4)
/ له الخلوات اللّائي لولا نجيّها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل

(1) ديوانه 1: 205.
(2) أبناء إبراهيم: العدنانيون، وأبناء هود: القحطانيون.
(3) الزاب: موضع قريب من أذربيجان؛ وقتيل الزاب هو عبيد الله بن زياد ابن أبيه؛ قتله أصحاب المختار بن أبي عبيد؛ ويقال: إن إبراهيم بن الأشتر حمل على كتيبته فانهزموا، ولقى عبيد الله فضربه فقتله؛ والبيت فى الأغانى 17: 68، وبعده:
العبد للعبد، لا أصل ولا طرف ... ألوت به ذات أظفار وأنياب.
(4) ديوانه: 257. الشباة هنا: حد القلم، والكلى: جمع كلية أو كلوة.

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل (1)
له ريقة طلّ، ولكنّ وقعها ... بآثاره فى الشّرق والغرب وابل (2)
فصيح إذا استنطقته وهو راكب، ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللّطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافل (3)
أطاعته أطراف القنا، وتقوّضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذّهن الذّكىّ وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسدّدت (4) ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنى، وسمينا خطبه وهو ناحل

---

(1) الأري: العسل. اشتارته: استخرجته. عواسل: جمع عاسلة؛ والعاسل: مستخرج العسل.
(2) الطل فى الأصل: المطر القليل. والوابل: المطر الكثير.
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «جعل القلم ممتطيا الأنامل؛ لأنهن يحملنه وإن علونه؛ ولو جعل القلم مطية للأنامل لأنها تعلوه لجاز وحسن. وقوله: «أفرغت عليه شعاب الفكر» دلالة قوية على أن للفكر مطية؛ وبعد فهو منقول من قول أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة: «الأقلام مطايا الفطن».
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «شددت».

41 مجلس آخر [المجلس الحادى والأربعون:]

تأويل آية [: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ...]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ؛ [التكوير: 26 – 29].

فقال: ما تأويل هذه الآية؟ أوليس ظاهرها يقتضي أنّا لا نشاء شيئا إلا والله تعالى شاء له، ولم يخصّ إيمانا من كفر، ولا طاعة من معصية؟

الجواب، قلنا: الوجه المذكور فى هذه الآية، أنّ الكلام متعلّق بما تقدّمه من ذكر الاستقامة؛ لأنه تعالى قال: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ؟ ثم قال: وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ؛ أى لا تشاءون الاستقامة إلّا والله تعالى مريد لها؛ ونحن لا ننكر أن يريد الله تعالى الطاعات؛ وإنما أنكرنا إرادته المعاصى؛ وليس لهم أن يقولوا:

تقدّم ذكر الاستقامة لا يوجب قصر الكلام عليها؛ ولا يمنع من عمومه؛ كما أن السبب لا يوجب قصر ما يخرج من الكلام عليه حتى لا يتعدّاه؛ وذلك أن الّذي ذكروه إنما يجب فيم يستقل بنفسه من الكلام دون ما لا يستقل.

وقوله تعالى: وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ لا ذكر للمراد فيه؛ فهو غير مستقل بنفسه؛ وإذا علّق بما تقدم من/ ذكر الاستقامة استقلّ؛ على أنه لو كان للآية ظاهر يقتضي ما ظنوه– وليس لها ذلك– لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة؛ على أن الله تعالى لا يريد المعاصى ولا القبائح؛ على أن مخالفينا

فى هذه المسألة لا يمكنهم حمل الآية على العموم؛ لأن العباد قد يشاءون عندهم ما لا يشاؤه الله تعالى؛ بأن يريدوا الشيء ويعزموا عليه، فلا يقع لمنع أو غيره؛ وكذلك قد يريد النبي عليه السلام من الكفار الإيمان، وتعبّدنا بأن نريد من المقدم على القبيح تركه؛ وإن كان تعالى عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع؛ فلا بد لهم

من تخصيص الآية؛ فإذا جاز لهم ذلك بالشّبهة جاز لنا مثله بالحجة؛ وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا؛ [المزمل: 19]، وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ، [الإنسان: 30]، وقوله تعالى: وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ، [المدثر: 56]، فى تعلّق الكلام بما قبله.

فإن قالوا: فالآية تدل على مذهبنا وبطلان مذهبكم (1) من وجه آخر؛ وهو أنه عز وجل قال: وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ؛ وذلك يقتضي أنه يشاء الاستقامة فى حال مشيئتنا لها؛ لأن «أن» الخفيفة إذا دخلت على الفعل المضارع اقتضت الاستقبال؛ وهذا يوجب أنه يشاء أفعال العباد فى كل حال، ويبطل ما تذهبون إليه من أنه إنما يريد
الطاعات فى حال الأمر.

قلنا: ليس فى ظاهر الآية ألّا نشاء إلّا ما شاءه الله تعالى فى حال مشيئتنا كما ظننتم؛ وإنما يقتضي حصول مشيئته لما نشاؤه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا تأخر؛ ويجرى ذلك مجرى قول القائل: ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو؛ ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولهما فى حال واحدة؛ بل لا يمتنع أن يتقدّم دخول عمرو، ويتلوه دخول زيد، و «أن» الخفيفة وإن كانت للاستقبال على ما ذكروه، فلم يبطل على تأويلنا معنى الاستقبال فيها؛ لأن تقدير الكلام: وما تشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالى، ومشيئته تعالى قد كانت لها حال الاستقبال (2).

وقد ذهب أبو عليّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ إلى أنه لا يمتنع أن يريد تعالى الطاعات حالا بعد حال؛ وإن كان قد أرادها فى حال الأمر؛ كما يصحّ أن يأمر بها أمرا بعد أمر؛ قال: / لأنه قد يصحّ أن يتعلّق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفى حال الفعل مصلحة؛ ويعلم تعالى أنّا نكون متى علمنا ذلك كنا إلى فعل الطاعات أقرب، وعلى هذا المذهب لا يعترض بما ذكروه.

---

(1) حاشية ف (من نسخة): «مذاهبكم».

(2) حاشية ف (من نسخة): «حال استقبال».

والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلى مذهب أبي عليّ فى هذا الباب؛ على أنّ اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل على فساد قولهم؛ لأن الكلام إذا اقتضى حدوث المشيئة واستقبالها بطل قول من قال منهم: إنه مريد لنفسه، أو مريد بإرادة قديمة، وصحّ ما تقوله من إنّ إرادته متجدّدة محدثة.

ويمكن فى تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها على العموم؛ من غير أن نخصها بما تقدّم ذكره من الاستقامة؛ ويكون المعنى: وما تشاءون شيئا من فعالكم إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئته، وإقداركم عليها والتخلية بينكم وبينها؛ وتكون الفائدة فى ذلك الإخبار عن الافتقار إلى الله تعالى؛ وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدّره الله تعالى عزّ وجل، وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه؛ لأن ما تتعلّق به المشيئة فى الآية محذوف غير مذكور؛ وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالى: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ بالأفعال دون تعلقه بالقدرة؛ لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور، وكل هذا واضح بحمد الله.

*** [عود إلى المختار من شعر مروان بن أبي حفصة:]

ونعود إلى ما كنا وعدنا به من الكلام على شعر مروان؛ فمما يختار قوله من قصيدة أوّلها:

طرقتك زائرة، فحيّ خيالها ... بيضاء تخلط بالحياء دلالها

يقول فيها:

مالت (1) بقلبك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصّبا فأمالها

وكأنّما طرقت بنفحة روضة ... سحّت بها ديم الرّبيع ظلالها

باتت تسائل فى المنام معرّسا (2) ... بالبيد أشعث لا يملّ سؤالها

فى فتية هجعوا غرارا بعد ما ... سئموا مراعشة السّرى ومطالها

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ملكت».

(2) التعريس: النزول فى آخر الليل.

فكأنّ حشو ثيابهم هنديّة ... نحلت وأغفلت العيون صقالها

/ المراعشة (1): تحريك الرأس فى السّير من النوم.

أما ذكره فى أول القصيدة طروق الطيف؛ فإنه لم يأت فيه بمعنى غريب؛ ولا لفظ مستعذب؛ وقد قال الناس فى الطّيف والخيال فأكثروا، وقد سبق فى ذلك قيس بن الخطيم إلى معنى؛ كلّ الناس فيه عيال عليه، وهو قوله:

أنّى سربت وكنت غير سروب! ... وتقرّب الأحلام غير قريب (2)

ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه ... فى النّوم غير مصرّد محسوب

كان المنى بلقائها فلقيتها ... فلهوت من لهو امرئ مكذوب

وقد أحسن جرير فى قوله:

أننسى إذ تودّعنا سليمى ... بفرع بشامة، سقى البشام (3)
بنفسى من تجنّبه (4) عزيز ... عليّ، ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقنى إذا هجع النّيام
وهذه الأبيات وإن خلت من معنى فى ذكر الطيف غريب، فلم تخل من لفظ مستعذب.
ولأبى عبادة البحترىّ فى وصف الخيال الفضل على كل متقدّم ومتأخّر؛ فإنه تغلغل فى

---

(1) حاشية الأصل: «فى نسخة الشجرى: قال السيد المرتضى رضى الله عنه: المراعشة فى الأصل: تحريك الرأس فى السير من النوم» وفيها أيضا: «الرعش: المشى الضعيف، من الإعياء وغيره».
(2) ديوانه: 5، وحماسة ابن الشجرى 189، واللآلئ: 524. وانظر ص 393 من هذا الجزء.
(3) ديوانه: 512، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات. والبشامة: واحدة البشام؛ وهو شجر ذو أفنان وورق صغير؛ إذا قصفت غصونه سال منها سائل أبيض كاللبن؛ يتخذ منه سواك؛ يريد أنها أشارت بسواكها تودعه؛ ولم تتكلم مخافة الرقباء.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «تجنبه» وهى رواية الديوان. ولمام: قليل.

أوصافه، واهتدى من معانيه إلى ما لا يوجد لغيره، وكان مشغولا بتكرار القول فيه لهجا بإبدائه وإعادته؛ وإن كان لأبى تمام فى ذلك مواضع لا يجهل فضلها، ومحاسن لا يبلغ شأوها؛ فمما لأبى تمام قوله:
زار الخيال لها، لا بل أزاركه ... فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم (1)
ظبى تقنّصته لمّا نصبت له ... من آخر اللّيل أشراكا من الحلم
ثمّ اغتدى، وبنا من ذكره سقم ... باق، وإن كان مشغولا (2) من السّقم
وقوله:
عادك الزّور ليلة الرّمل من رم ... لة بين الحمى وبين المطالى (3)
ثم ما زارك الخيال ولك ... نّك بالفكر زرت طيف الخيال
وقوله:
اللّيالى أحفى بقلبى إذا ما ... جرحته النّوى من الأيام
/ يا لها لذّة تنزّهت الأر ... واح فيها سرّا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنّا فى دعوة الأحلام
فأما البحترىّ فقوله فى هذا المعنى أكثر من أن يذكر جميعه هاهنا؛ غير أنا نشير إلى نادره، فمن ذلك قوله:
فلا وصل إلّا أن يطيف خيالها ... بنا تحت جؤشوش من اللّيل أسفع (4)
ألمّت بنا بعد الهدوّ فسامحت ... بوصل متى تطلبه فى الجدّ تمنع
وما برحت حتّى مضى الليل وانقضى ... وأعجلها داعى الصّباح الملمّع

فولّت كأنّ البين يخلج شخصها ... أوان تولّت من حشاى وأضلعى (5)

(1) ديوانه: 268.
(2) د؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «معسولا؛ أى وإن كان ذلك السقم حلوا كالعسل».
(3) المطالى: موضع.
(4) ديوانه: 2: 78. وفى حاشية الأصل: «الجؤشوش: الصدر؛ وكذلك الجوش والجوشن. أسفع: أسود».
(5) حاشية الأصل: «الخلج: الجذب؛ يقول: كأن البين يخلجها من حشاى وأضلعى».

وربّ لقاء لم يؤمّل وفرقة ... لأسماء لم تحذر ولم تتوقّع
أرانى لا أنفك فى كلّ ليلة ... تعاود فيها المالكيّة مضجعى
أسرّ بقرب من ملمّ مسلّم ... وأشجى ببين من حبيب مودّع
فكائن لنا بعد النّوى من تفرّق ... ترجّيه أحلام الكرى، وتجمّع
وكقوله:
وإنّى وإن ضنّت علىّ بودّها ... لأرتاح منها للخيال المؤرّق (1)
يعزّ على الواشين لو يعلمونها ... ليال لنا نزدار فيها ونلتقى
فكم غلّة للشّوق أطفأت حرّها ... بطيف متى يطرق دجى الليل يطرق
أضمّ عليه جفن عينى تعلّقا ... به عند إجلاء النّعاس المرنّق
وقوله:
بلى وخيال من أثيلة كلّما ... تأوّهت من وجد تعرّض يطمع (2)
إذا زورة منه تقضّت مع الكرى ... تنبّهت من وجد له أتفزّع
ترى مقلتى ما لا ترى فى لقائه ... وتسمع أذنى رجع ما ليس تسمع
ويكفيك من حقّ تخيّل باطل ... تردّ به نفس اللهيف فترجع
وقوله:
/ إذا ما الكرى أهدى إلى خياله ... شفى قربه التبريح أو نقع الصّدى (3)
إذا انتزعته من يدىّ انتباهة ... عددت حبيبا راح منّى أو غدا
ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا ... نعذّب أيقاظا وننعم هجّدا
وقوله:
فما نلتقى إلّا على حلم هاجد ... يحلّ لنا جدواك وهى حرام (4)

(1) ديوانه: 2: 122.
(2) ديوانه 2: 87؛ وفيه: «وخيال من قتيلة».

(3) ديوانه 1: 174.
(4) ديوانه 2: 249.

إذا ما تباذلنا النّفائس خلتنا ... من الجدّ أيقاظا ونحن نيام (1)
وقوله:
وليلة هوّمنا على العيس أرسلت ... بطيف خيال يشبه الحقّ باطله (2)
فلولا بياض الصّبح طال تشبّثى ... بعطفى غزال بتّ وهنا أغازله
وقوله:
أمنك تأوّب الطّيف الطّروب ... حبيب جاء يهدى من حبيب (3)
تخطّى رقبة الواشين كرها (4) ... وبعد مسافة الخرق المجوب
يكاذبنى وأصدقه ودادا ... ومن كلف مصادقة الكذوب
وقوله:
ما تقضّى لبانة عند لبنى ... والمعنّى بالغانيات معنى (5)
هجرتنا يقظى وكادت على مذ ... هبها (6) فى الصّدود تهجر وسنى
بعد لأى وقد تعرّض منها ... طائف عرّجت على الرّكب وهنا
قال المرتضى رضى الله عنه: ووجدت أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدىّ مع ميله إلى البحترىّ وانحطاطه فى شعبه، واجتهاده فى تأويل ما أخذ عليه من خطأ وزلل يزعم أن البحترىّ أخطأ فى قوله:
هجرتنا يقظى وكادت على مذ ... هبها فى الصّدود تهجر وسنى
قال: لأن (7) خيالها يتمثل له فى كل أحوالها؛ يقظى كانت أو وسنى. قال: ولكنّ الجيد فى هذا المعنى قوله:

---

(1) حاشية الأصل: «فى نسخة س: قرأت فى ديوانه على شيخى: «خلتنا»، بضم التاء.
(2) ديوانه 2: 162.
(3) ديوانه 1: 84.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «وهنا»؛ وهى رواية الديوان.
(5) ديوانه 2: 290.
(6) فى الديوان: «عادتها»: .
(7) الموازنة بين أبى تمام والبحترى: 188.

أردّ دونك يقظانا ويأذن لى ... عليك سكر الكرى إن جئت وسنانا
قال: والّذي أوقع البحترىّ فى هذا الغلط قول قيس بن الخطيم:
/ ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه ... فى النّوم غير مصرّد محسوب
وكان الأجود أن يقول: ما تمنعى فى اليقظة فقد تؤتينه فى النوم، أى ما تمنعينه فى يقظتى فقد تؤتينه فى حال نومى؛ حتى يكون النوم واليقظة منسوبين إليه؛ لأن خيال المحبوب يتمثّل فى حال نومه ويقظته جميعا، قال: إلّا أنه يتّسع من التأويل فى هذا لقيس ما لا يتّسع للبحترىّ لأن قيسا قال: «فقد تؤتينه فى النوم» ولم يقل نائمة؛ وقد يجوز أن يحمل على أنه أراد:
ما تمنعى يقظى وأنا يقظان؛ فقد تؤتينه فى النوم، أى فى نومى؛ ولا يسوغ مثل هذا فى بيت البحترىّ لأنه قال: «وسنى» ولم يقل فى الوسن.
قال سيّدنا أدام الله علوّه: وقد يمكن من التأويل للبحترىّ ما أمكن مثله لقيس؛ لكنّ الآمدىّ قد ذهب عن ذلك؛ لأن البحترىّ لما قال: «وسنى» دلّ على حال الوسن؛ والحال المعهودة للوسن حال يشترك الناس فيها فى النوم بالعادة، كما أنّ الحال المعهودة لليقظة حال مشتركة بالعادة؛ فقوله: «وسنى» ينبئ عن كونه هو أيضا نائما؛ وإنما أراد المقابلة فى زنة اللفظ بين يقظى ووسنى.
وقوله: «يقظى» متى لم يحمل أيضا على هذا المعنى لم يصحّ؛ لأنه لا بدّ أن يريد بذلك:
هجرتنا فى أحوال اليقظة؛ ويكون معنى «يقظى» يتعدّى إليه؛ ألا ترى أن الآمدىّ حمل قول قيس: «يقظى» على معنى: «وأنا يقظان» وإن لم يبيّن الوجه! ؛ فكيف ذهب عليه مثل ذلك فى قول البحترىّ!
وقوله: «وسنى» و «يقظى» مثل قول قيس: «يقظى»، ولو مكّن قيسا وزن الشعر من أن يقول؛ «وسنى» فى مقابلة:
«يقظى» لقاله وما عدل عنه إلى النوم؛ لأنه لم يكن عليه فى «وسنى» إلا ما عليه فى «يقظى»، وما يتأوّل له فى أحد الأمرين يتأوّل له فى الآخر.

قال سيدنا أدام الله تمكينه: ولي فى الخيال وطروقه معنى ما علمت أنه سبق إليه، من جملة قصيدة:
وزور تخطّى جنوب الملا ... فناديت أهلا بذا الزّائر
أتانى هدوّا وعين الرّقي ... ب مطروفة بالكرى الغامر
فأعجب به يسعف الهاجعين ... وتحرمه مقلة السّاهر
/ وعهدى بتمويه عين المحبّ ... ينمّ على قلبه الطّائر
فلمّا التقينا برغم الرّقا ... د موّه قلبى على ناظرى
ومعنى البيت الآخر أن الأحلام إنما هى اعتقادات تحصل فى القلب لا حقيقة لأكثرها؛ لأن الإنسان يعتقد أنه راء لما لا يراه على الحقيقة، ومدرك لما ليس بمدركه على الحقيقة؛ فالقلب يخيّل فى النوم للعين ما لا حقيقة له؛ كما أنّ العين تخيّل فى كثير من الأحوال للقلب ما لا حقيقة له.
فأما قول مروان:

* فكأنّما طرقت بنفحة روضة* ... البيت
فيشبه أن يكون مأخوذا من قول نهشل بن حرّىّ (1):
طرقت أسيماء الرّحال ودونها ... ثنيان من ليل التّمام الأسود (2)
ومفاوز وصل الفلاة جنوبها ... بجنوب أخرى، غير أن لم تعقد

---

(1) حاشية الأصل: «منسوب إلى الحرة؛ موضع فيه حجارة سود».
(2) فى حاشيتى الأصل، ف: «الثنى: واحد أثناء الشيء أى تضاعيفه، وثنى الوادى والجبل: منعطفه». ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «بينان»؛ وهو مثنى بين؛ والبين: القطعة من الأرض على مد البصر. ومن نسخة أيضا:
* نقيان من رمل التّمام الأسود*
وفى حاشيتى الأصل، ف: «يقال: ولد المولود لتمام، وقمر تمام [بفتح التاء وكسرها]، وليل التمام، بالكسر لا غير؛ وهى أطول ليلة فى السنة».

رمل إذا أيدى الرّكاب قطعنه ... قرعت مناسمها بقفّ قردد (1)
وكأنّ ريح لطيمة هنديّة ... وذكىّ جادىّ بنصع مجسد (2)
وندى خزامى الجوّ، جوّ سويقة ... طرق الخيال به بعيد المرقد (3)
أو من قول الآخر:
طرقتك زينب والمزار بعيد ... بمنى ونحن معرّسون هجود (4)
فكأنّما طرقت بريّا روضة ... أنف يسحسح مزنها ويجود (5)
وهذا المعنى كثير فى الشعر المتقدم والمتأخر جدّا.
فأما قوله:
* باتت تسائل فى المنام معرّسا*
البيت، والبيتان اللذان بعده؛ فقد قال الناس فى وصف قلة النوم، ومواصلة السّرى، والإدلاج، وشعث السارين فأكثروا، فمن أحسن ما قيل فى ذلك قول لبيد:
ومجود من صبابات الكرى ... عاطف النّمرق صدق المبتذل (6)

---

(1) الركاب: الإبل؛ والمناسم: جمع منسم كمجلس: خف البعير. والقف: ما ارتفع من الأرض وغلظ. والقردد: الغليظ المرتفع.
(2) اللطيمة: العير التى تحمل الطيب والمسك. والجادىّ: الزعفران. والنصع: الثوب الأبيض. والمجسد: المصبوغ بالزعفران.
(3) الخزامى: نبت طيب الريح. وجوّ سويقة: موضع بالصمان.
(4) يقال: عرس القوم بالمكان وأعرسوا؛ إذا نزلوا فى آخر الليل للاستراحة.

(5) روضة أنف: لم ترع. ويسحسح: يسيل. والجود: المطر الغزير.
(6) ديوانه 2: 13. المجود: الّذي يجهد من النعاس؛ كذا ذكره صاحب اللسان، واستشهد بالبيت. وفى حاشية الأصل: «المجود الّذي سقى الجود؛ وهو المطر؛ والمعنى هنا على التشبيه؛ كأن النوم جاده؛ أى مطره. والصبابات: جمع صبابة؛ وهى البقية. والنمرقة، مثلثة: الطنفسة فوق الرحل. وصدق المبتذل: جلد قوى لا يتغير عند ابتذله نفسه ولا يسقط؛ والمبتذل: مصدر بمعنى الابتذال؛ وهو ضد الصيانة».

/ قال هجّدنا فقد طال السّرى ... وقدرنا إن خنى الدّهر غفل (1)
قلّما عرّس حتّى هجته ... بالتّباشير من الصّبح الأول (2)
يلمس الأحلاس فى منزله ... بيديه كاليهوديّ المصلّ (3)
يتمارى فى الّذي قلت له ... ولقد يسمع قولى حيّهل (4)
ومن ذلك قول ذى الرمة:
وليل كأثناء الرّويزىّ جبته ... بأربعة، والشّخص فى العين واحد (5)
- والرّويزىّ، هو الطيلسان. وقد روى أيضا: «كجلباب العروس ادّرعته»؛ وكل ذلك وصف له بالسواد؛ لأن الطيلسان أسود، وجلباب العروس أخضر، والعرب تجمع بين الخضرة والسواد- أحمّ علافىّ، وأبيض صارم، ... وأعيس مهريّ، وأشعث ماجد (6)

---

(1) هجدنا؛ من التهجيد؛ وهو هنا بمعنى النوم؛ أى دعنا ننام. والسرى: سير عامة الليل وقدرنا، أى وقدرنا على ورود الماء، أو قدرنا على التهجيد، أو على السير. وخنى الدهر: آفته وفساده؛ أى إن غفل عنا فساد الدهر فلم يعقنا.
(2) قلما؛ ما المتصلة بقل كافة لها عن طلب الفاعل؛ وتجعلها بمنزلة ما النافية فى الأغلب؛ وهنا لإثبات القلة. والتعريس: النزول فى آخر الليل للاستراحة: وهجته:
أيقظته من النوم، وهاج يهيج: يجئ لازما ومتعديا. وبالتباشير، أى بظهورها. والتباشير: أوائل الصبح، جمع تبشير. والأول: صفة التباشير؛ وهو جمع أولى مؤنث الأول.
(3) يلمس الأحلاس؛ يطلبها، والأحلاس: جمع حلس؛ وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله. وقوله: «كاليهوديّ المصل»؛ قال فى حاشية الأصل: «شبهه باليهوديّ لأنه يسجد على شق وجهه، وأصل ذلك أنهم لما نتق الجبل فوقهم قيل لهم: إما أن تسجدوا وإما أن يلقى عليكم، فسجدوا على شق واحد مخافة أن يسقط عليهم الجبل؛ فصار عندهم سنة إلى اليوم». وكذا جاء فى شرح الطوسى.
(4) التمارى: المجادلة. وحيهل: اسم فعل بمعنى أسرع وعجل؛ وهذه الأبيات أوردها صاحب الخزانة (2: 28) نقلا عن الغرر.
(5) ديوانه: 129. أى لا تتفاوت الشخوص والألوان فيه لظلمته.

(6) يقول: جبت الليل بأربعة؛ ثم فسر الأربعة فقال: أحم أسود؛ ويعنى به الرحل، وعلافىّ: منسوب إلى علاف؛ وهو رجل من قضاعة. والأبيض الصارم: السيف القاطع. والأعيس: الأبيض، يعنى بعيره. والماجد: الكثير المفاخر؛ وفى حاشية الأصل: «الإبل المهرية: منسوبة إلى مهرة بن حيدان، –

أخو شقّة جاب الفلاة بنفسه ... على الهول حتّى طوّحته المطارد (1)
وأشعث مثل السّيف قد لاح جسمه ... وجيف المهارى والهموم الأباعد (2)
سقاه الكرى كأس النّعاس فرأسه ... لدين الكرى من آخر الليل ساجد
أقمت له صدر المطىّ فما درى ... أجائرة أعناقها أم قواصد!
ترى النّاشئ الغرّيد يضحى كأنه ... على الرّحل ممّا منّه السّير عاصد (3)
ومن ذلك قول أبى حيّة النميرىّ:
وأغيد من طول السّرى برّحت به ... أفانين نهّاض على الأين مرجم (4)
سريت به حتّى إذا ما تمزّقت ... توالى الدّجى عن واضح اللّون معلم
أنخنا فلمّا أن جرت فى دماغه ... وعينيه كأس النّوم قلت له: قم
فما قام إلّا بين أيد تقيمه ... كما عطفت ريح الصّبا خوط ساسم (5)
خطا الكره مغلوبا كأنّ لسانه ... لما ردّ من رجع لسان المبلسم
وودّ بوسطى الخمس منه لو أنّنا ... رحلنا وقلنا فى المناخ له: نم (6)

– والجمع المهارىّ، ثم تخفف فيقال: مهارى، وتفتح الراء فيقال: مهارى، تشبيها بصحارى وعذارى، وأصله صحارىّ وعذارىّ، فمنهم من يحذف الياء فيقول صحارى [بالكسر]، ومنهم من يحذف الأولى ويجعل الثانية ألفا فيقول صحارى [بالفتح] لتسلم الألف من الحذف عند التنوين، ومن يحذف الثانية يقول: صحار كجوار».

(1) جاب الفلاة: قطعها. وطوحته: أبعدته. وفى الديوان: «لوحته». وفى حاشية الأصل: «المطارد: المواضع التى يطرد فيها. ويجوز أن يكون جمع مطرد». وفى الديوان: «المطاود». وفى شرحه: «المطاود: الذهاب فى الأسفار».

(2) أشعث، يعنى صاحبه، يشبهه بالسيف فى ضموره ودقته؛ والوجيف: نوع من السير.

(3) الناشئ: الشاب. والغريد: ذو الصوت الحسن.
وفى حاشية الأصل. «العاصد من الإبل: الّذي يلوى عنقه إلى حاركه عند الموت. والعصد: اللىّ».

(4) المرجم: الرجل الشديد، كأنه يرمى به معاديه.

(5) الساسم: نوع من الشجر؛ قيل هو الآبنوس.

(6) بوسطى الخمس؛ أى بدل قطع الوسطى؛ وفى حاشية الأصل: «يروى «بجدع الأنف»، ويروى: «بقطع الخمس».

42 مجلس آخر [المجلس الثانى والأربعون:]
تأويل آية [: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ...]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ؛ [هود: 20].
فقال: أى معنى الاختصاص «الأرض» بالذكر وهم لا يفوتون الله تعالى ولا يعجزونه، ولا يخرجون عن قبضته على كل حال، وفى كل مكان؟ ولم نفى الأولياء عنهم، وقد نجد أهل الكفر يتولّى بعضهم بعضا وينصرونهم ويحمونهم من المكاره؟ وكيف نفى استطاعتهم للسمع والإبصار، وأكثرهم قد كان يسمع بأذنه ويرى بعينه؟
الجواب، قلنا: أمّا الوجه فى اختصاص الذكر بالأرض، فلأنّ عادة العرب جارية بقولهم للمتوعّد: لا مهرب لك منى، ولا وزر، ولا نفق، والوزر: الجبل، والنّفق: السّرب، وكلّ ذلك مما يلجأ إليه الخائف المطلوب، فكأنه تعالى نفى أن يكون لهؤلاء الكفار عاصم منه، ومانع من عذابه؛ وأن جبال الأرض وسهولها لا تحجز بينهم وبين ما يريد إيقاعه بهم؛ كما أنها تحجز عن كثير من أفعال البشر؛ لأنّ معاقل الأرض هى التى يهرب إليها البشر من المكاره؛ ويلجئون إلى الاعتصام بها عند المخاوف؛ فإذا نفى تعالى أن يكون لهم فى الأرض معقل فقد نفى المعقل من كل وجه.
فأما قوله تعالى: وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ فمعناه أنه لا ولىّ لهم، ولا ناصر من عذاب الله تعالى وعقابه لهم فى الآخرة؛ ولا مما يريد أيضا إيقاعه بهم فى الدنيا، وإن كان لهم من يحميهم من مكروه البشر وينصرهم ممن أرادهم بسوء؛ وقد يجوز أن يكون ذلك أيضا بمعنى الأمر، وإن كان مخرجه مخرج الخبر؛ ويكون التقدير: وليس لهم أن يتخذوا أولياء

من دون الله، بل الواجب أن يرجعوا إليه فى معونتهم ونصرهم، ولا يعوّلوا على غيره.
فأما قوله عز وجل: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ ففيه وجوه:
أحدها أن يكون المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون؛ وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون؛ عنادا للحق، وذهابا عن سبيله؛ فأسقط الباء من الكلام، وذلك جائز كما جاز فى قولهم: لأجزينّك بما عملت، ولأجزينّك ما عملت؛ ولأحدثنّك بما عملت، ولأحدثنك ما عملت؛ وكما قال الشاعر:
نغالى اللّحم للأضياف نيئا ... ونبذله إذا نضج القدير (1)
فأراد: نغالى باللحم.
والوجه الثانى أنهم لاستثقالهم استماع آيات الله تعالى، وكراهيتهم (2) تذكّرها وتفهمها جروا مجرى من لا يستطيع السمع، كما يقول القائل: ما يستطيع فلان أن ينظر لشدّة عداوته إلى فلان، وما يقدر

على أن يكلمه؛ وكما نقول لمن عهدنا منه العناد والاستثقال لاستماع الحجج والبينات: ما تستطيع أن تسمع الحق؛ وما تطيق أن يذكر لك؛ وكما قال الأعشى:

ودّع هريرة إنّ الرّكب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيّها الرّجل [3]!

ونحن نعلم أنه قادر على الوداع؛ وإنما نفى قدرته عليه من حيث الكراهة والاستثقال.

ومعنى: وَما كانُوا يُبْصِرُونَ أى أن إبصارهم لم يكن نافعا لهم؛ ولا مجديا عليهم؛ مع الإعراض عن تأمل آيات الله تعالى وتدبرها؛ فلما انتفت عنهم منفعة الإبصار جاز أن ينفى عنهم الإبصار نفسه؛ كما يقال للمعرض عن الحق، العادل عن تأمله: ما لك لا تبصر، ولا تسمع؛ ولا تعقل؟ وما أشبه ذلك.

---

(1) البيت فى اللسان (غلا): قال فى شرحه: «نغالى اللحم، نشتريه غاليا، ثم نبذله ونطعمه إذا نضج فى قدورنا». والقدير: ما طبخ من اللحم بتوابل.

(2) ديوانه: 41.

والوجه الثالث [أن يكون معنى نفى السمع والبصر] (1) راجعا إلى آلهتهم لا إليهم؛ وتقدير الكلام: أولئك وآلهتهم لم يكونوا معجزين فى الأرض، يضاعف لهم العذاب؛ ثم قال مخبرا عن الآلهة: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ، وهذا الوجه يروى (2) عن ابن عباس رحمة الله عليه، وفيه أدنى بعد.

ويمكن فى الآية وجه رابع، وهو أن يكون ما فى قوله تعالى: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ليست للنفى؛ بل تجرى مجرى قولهم: لأواصلنّك ما لاح نجم؛ ولأقيمنّ على مودتك ما طلعت شمس؛ ويكون المعنى أن العذاب يضاعف لهم فى الآخرة؛ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون؛ أى أنهم معذبون ما كانوا أحياء.

فإن قيل: كيف يعبّر عن كونهم أحياء باستطاعة السمع والإبصار؛ وقد يكون حيا من لا يكون كذلك؟

قلنا: للعرب فى مثل هذا/ عادة؛ لأنهم يقولون: والله لا كلّمت فلانا ما نظرت عينى، ومشت قدمى؛ وهم، يريدون: ما بقيت وحييت؛ لأن الأغلب من أحوال الحىّ أن تنظر عينه، وتمشى قدمه؛ فجعلوا الأغلب كالواجب؛ ومن ذلك قول الشاعر:

وما أنس من شيء تقادم عهده ... فلست بناس ما هدت قدمى نعلى

عشيّة قالت والدّموع تعينها: (3) ... هنيئا لقلب عنك لم يسله مسلى (4)

وإنما أراد: أنّى لا أنسى ذلك ما حييت؛ وكذلك لا يمتنع أن يعلّق على هذا المذهب دوام العذاب بكونهم مستطيعين للسمع والإبصار؛ ويعود المعنى إلى تعلّقه ببقائهم، وبكونهم أحياء؛ والمرجع فى ذلك إلى التأييد؛ لأنه إذا علّق العذاب ببقائهم وإحيائهم وعلمنا أنّ الآخرة لا موت فيها، ولا خروج عن الحياة، علمنا تأييد العذاب.

***

(1) حاشية ف (من نسخة): «أن يكون نفى السمع والبصر».
(2) م: «مروى».
(3) د، ف: «بعينها».
(4) د، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «مسل».

[عود إلى المختار من شعر مروان بن أبي حفصة:]
ونعود إلى ما كنا شرعنا فيه من الكلام على شعر مروان؛ فمما يختار له من القصيدة التى مضى أوّلها وتكلمنا عليها:
وضعوا الخدود لدى سواهم جنّح ... تشكو كلوم صفاحها وكلالها
طلبت أمير المؤمنين فواصلت ... بعد السّرى بغدوّها آصالها
نزعت إليك صواديا فتقاذفت ... تطوى الفلاة حزونها ورمالها (1)
يتبعن ناجية يهزّ مراحها ... بعد النّحول تليلها وقذالها (2)
هوجاء تدرّع الرّبا وتشقّها ... شقّ الشّموس إذا تراع جلالها (3)
تنجو إذا رفع القطيع كما نجت ... خرجاء بادرت الظلام رئالها (4)
كالقوس ساهمة أتتك وقد ترى ... كالبرج تملأ رحلها وحبالها
هذه الأبيات فى وصف الرّواحل بالسرعة والنّحول، جيّدة الألفاظ، مطردة النسج، وقد سبق الناس فى هذا المعنى إلى ضروب من الإحسان؛ فمن ذلك قول الأخطل:
بخوص كأعطال القسىّ تقلقلت ... أجنّتها من شقّة ودءوب (5)

(1) نزعت: اشتاقت. صواديا: عطاشا. تقاذفت: تسارعت.
(2) التليل: العنق.
(3) الشموس: الفور.
(4) الخرج، بالتحريك: لونان؛ سواد وبياض؛ يقال: نعجة خرجاء وظليم أخرج والرئال: جمع رأل؛ وهو ولد النعام، وبادرت الظلام رئالها؛ أى بدرت الظلام إلى رئالها.
(5) ديوانه 179 – 180 وفى حاشية الأصل: «هذه الأبيات من قصيدة يمدح الأخطل فيها عياد بن زياد بن أبيه: أولها:
خليلىّ قوما للرّحيل فإنّنى ... وجدت بنى الصمعاء غير قريب
– يعنى عمير بن الحباب ورهطه–:
وأ سفهت إذ منيت نفسى ابن واسع ... منى ذهبت لم تسقنى بذنوب
فإن تنزلا بابن المحلّق تنزلا ... بذى عذرة يبدأ كما بلغوب
– المحلق: عبد العزيز بن حنتم–

لحا الله أرماكا بدجلة لا تقى ... أذاة امرئ عضب اللسان شعوب
– يعنى نفسه–

/ إذا معجل غادرنه عند مبرك (1) ... أتيح لجوّاب الفلاة كسوب
– المعجل: الملقى من الأجنّة لغير تمام، وجوّاب الفلاة: الذئب–
وهنّ بنا عوج كأنّ عيونها ... بقايا قلات قلّصت لنضوب (2)
مسانيف يطويها مع القيظ والسّرى ... تكاليف طلّاع النّجاد ركوب (3)
قديم ترى الأصواء فيه كأنّها ... رجال قيام عصّبوا بسبوب (4)
يعمن بنا عوم السّفين إذا انجلت ... سحابة وضّاح السّراب جنوب (5)
وقال مسلم بن الوليد الأنصارىّ:
إلى الإمام تهادانا بأرحلنا ... خلق من الرّيح فى أشباح ظلمان (6)
كأنّ إفلاتها والفجر يأخذها ... إفلات صادرة عن قوس حسبان (7)
وقال بشار:
وإذا المطىّ سبحن فى أعطافه ... فات المطىّ بكاهل وتليل (8)

–
إذا نحن ودّعنا بلادا هم بها ... فبعدا لحرّات لها وشهوب!
نسير إلى من لا يغبّ نواله ... ولا مسلم أعراضه لسبوب
بخوص ...
أعطال: جمع عطل؛ وهو القوس الّذي لا وتر له. وتقلقلت أجنتها: تحركت فى بطونها من سرعة السير.
(1) فى الديوان: «منزل».
(2) بنا، أى بحملنا؛ أو حمل أعبائنا. والعوج: جمع أعوج وعوجاء. والفلات: جمع قلت؛ وهو النقرة فى الجبل: والتقليص: الانزواء، والنضوب: غئور الماء.
(3) المسانيف هنا: الإبل المتقدمات والنجاد: جمع نجد؛ وهو المرتفع من الأرض. والركوب. المذلل.
(4) قديم؛ أى طريق قديم. والأصواء: الأعلام. والسبوب: جمع سب؛ وهو الثوب الأبيض الرقيق؛ وقيل هو العمامة.
(5) ف: «تعوم». «خبوب». وهى رواية الديوان.
(6) ديوانه: 103. والتهادى: المشى الضعيف يتكئ صاحبه على اثنين يمينا وشمالا. والظلمان: جمع ظليم؛ وهو الذكر من النعام. ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «خلق من الزنج».
(7) إفلاتها؛ أى سرعتها. صادرة، أى إفلات سهام صادرة. والحسبان: سهام يرمى بها الرجل فى

جوف قصبة، ينزع فى القوس ثم يرمى بعشرين منها فلا تمر بشيء إلا عقرته؛ والواحد حسبانة.
(8) حاشية الأصل (من نسخة) «سنحن» أى ظهرن. وأعطافه: جوانبه. وفات: سبق؛ والتليل: العنق؛ يقول: «إذا بدا يسير مع المطايا جاوزهن بكاهل وعنق».

(1/554)

فكأنّه والناعجات (1) يردنه ... قدح تطلّع من قداح مجيل
ولبعض الحارثيين:
تهش الهجائر والظّهائر لحمها ... حتى تخدّد لحمها المتضابر (2)
حرف تناهبها النّجاء قلائص ... ممّا تنحّل (3) شدقم أو داعر (4)
صبر إذا عطفت سوالفها البرى ... سمعت لهنّ كشاكش وجراجر (5)
ويخلن من عزّ النفوس وجدّها (6) ... جنّا، وهنّ إذا اختبرن أباعر
أمّا إذا ما أقبلت فكأنّها ... ذعر تهادتها الفلاة نوافر (7)
أما إذا ما أعرضت فكأنّها ... كدر توردن النّطاف صوادر (8)
أما إذا ما أبركت فكأنّها ... صرح مشيّدة وهنّ ضوامر (9)
***/ وإنى لأستحسن قول بشامة بن الغدير فى وصف الناقة بالسرعة (10):

---

(1) الناعجات هنا: الخفاف من الإبل؛ ومنه قوله:
* والناعجات المسرعات للنجا*.
(2) اللحم المتضابر: المتراكم المكتنز، وفى حاشية الأصل (من نسخة): «المتظاهر». ومن نسخة أخرى «المتطاير».
(3) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «منجل».
(4) الحرف: الناقة الضامر: الصلبة. وتناهبها: تباريها فى الجرى. والنجاء: السير السريع.
والقلائص: جمع قلوص؛ وهى الفتية من الإبل. وشدقم وداعر: اسمان لفحلين منجبين من فحول الإبل، تنسب إليهما الإبل الشدقميات والإبل الداعرية.
(5) السوالف: جمع سالفة؛ وهى أعلى العنق، والبرى:
جمع برة، وهى الحلقة فى الزمام. والكشاكش والجراجر: أصوات تخرج من جوف الإبل.
(6) حاشية الأصل (من نسخة): «وحدها».
(7) ذعر؛ أى وحش مذعورة؛ ويجوز أن يريد بالذعر النعام؛ وهى توصف بذلك.
(8) الكدر: قطا ألوانها كلون الرماد. والنطاف:
جمع نطفة؛ وهى الماء القليل.
(9) فى حاشيتى الأصل، ف: «صرح: جمع صرح؛ وهو القصر، وأصله صروح فقصره؛ وقد قيل فى أسد، جمع أسد أنه أسود، فقصر ثم خفف بتسكين السين».
(10) الأبيات من قصيدة فى المفضليات 79 – 91، ومختارات ابن الشجرى 14 – 16، وأبيات

منها فى حماسته 205 – 206، ومجموعة المعانى 52، وأبيات منها أيضا فى الأغانى 11: 87، ونسبها لعقيل بن علفة.

(1/555)

كأنّ يديها إذا أرقلت ... وقد جرن ثمّ اهتدين السّبيلا (1)
يدا سابح خرّ فى غمرة ... وقد شارف الموت إلا قليلا (2)
إذا أقبلت قلت مشحونة ... أطاعت لها الرّيح قلعا جفولا (3)
وإن أدبرت قلت مذعورة ... من الرّبد تتبع هيقا ذمولا (4)
ومعنى قوله:
* وقد جرن ثم اهتدين السبيلا*
يعنى المطايا؛ يقول: كن نشيطات يمرحن فلا يلزمن لقم (5) الطّريق؛ بل يأخذن يمينا وشمالا؛ فلما عضّهن الكلال استقمن على المحجة، فكأنه وصف ناقته ببقاء النشاط مع كلال المطىّ؛ وكنى عن الكلال بلزوم جادة الطريق بعد تنكّبها وهذه كناية فصيحة مليحة.
ومثله قول الآخر:
كأنّ يديها حين جدّ نجاؤها ... يدا سابح فى غمرة يتذرّع (6)
ومما يشاكل هذا المعنى ويقاربه قول الشماخ:
كأنّ ذراعيها ذراعا مدلّة ... بعيد السّباب حاولت أن تعذّرا (7)
ممجّدة الأعراق قال ابن ضرّة ... عليها كلاما جار فيه وأهجرا

---

(1) أرقلت: أسرعت. وجرن: عدلن عن محجة الطريق.
(2) الغمرة: الماء الكثير؛ ورواية ابن الشجرى:
يدا عائم خرّ فى غمرة ... فأدركه الموت إلّا قليلا.
(3) المشحونة: المملوءة، وهو من وصف السفينة. والجفول: الّذي تستخفه الريح ثم تحركه.
(4) الربد: جمع ربداء؛ وهى فى السوداء المنقطة بحمرة؛ من وصف النعام. والهيق: ذكر النعام والذمول: وصف لسير الظليم، ورواية المفضل:
إذا أقبلت قلت مذعورة ... من الرّمد تلحق هيقا ذمولا.
(5) لقم الطريق معظمه؛ وقال الليث: لقم الطريق منفرجه، تقول: عليك بلقم الطريق فالزمه.
(6) يقال: ذرع السابح، إذا حرك يديه للسبح.
(7) من قصيدة طويلة فى ديوانه:
26 – 34، وأولها:
أتعرف رسما دارسا قد تعيرا ... بذروة أقوى بعد ليلى وأقفرا.

(1/556)

شبّه ذراعيها وهى تتذرع فى مشيها (1) بذراعى امرأة مدلّة على أهلها ببراءة ساحتها، وقد حكى عنها ابن ضرتها كلاما أهجر فيه؛ أى أفحش، فهى ترفع يديها وتضعهما تعتذر وتحلف وتنضح عن نفسها.

وقد قيل إن معنى قوله: «مدلّة» أنها تدلّ بحسن ذراعيها، فهى تدمن إظهارهما لترى (2) حسنهما.

وقوله: «بعيد السّباب» أى فى عقيب المسابّة قامت تعتذر إلى الناس؛ وقوم يروونه «بعيد الشباب»؛ ومعنى هذه الرواية أنها نصف من النساء، فهى أقوم بحجتها من الحدثة الغرّة؛ ويشهد لهذه الرّواية الأخيرة قول الآخر:

كأنّ يديها حين يقلق ضفرها ... يدا نصف غيرى تعذّر من جرم (3)

و/ قوله: «حين يقلق ضفرها» فيه سرّ وفائدة؛ لأنّ الضّفر هو الأنساع (4)؛ وإنما تقلق إذا جهدها السير فضمرت، فكأنه وصفها بالتذرّع والنشاط مع الجهد والكلال؛ ومثله:

كأنّ ذراعيها ذراعا بذيّة ... مفجّعة لاقت ضرائر عن عفر (5)

سمعن لها واستعجلت فى كلامها ... فلا شيء يفرى باليدين كما تفرى (6)

ويقاربه قول الآخر:

ألا هل تبلغنّيهم ... على اللّأواء والظّنّه

وآة لحصى المعزا ... ء فى أخفافها رنّه (7)

إذا ما عسفت قلت ... حماة فاضحت كنّه (8)

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «فى سيرها».

(2) حاشية الأصل (من نسخة):

«ليرى حسنهما» بالبناء للمجهول.

(3) النصف: المرأة التى ذهب نصف عمرها، ويقال للرجل أيضا.

(4) الأنساع: جمع نسع، وهو السير المضفور يجعل زماما للبعير وغيره.

(5) عن عفر، أى بعد حين. وفى حاشيتى الأصل، ف: ويروى «عن عقر». أى بعد كونها عاقرا.

(6) يفرى، أى يأتى بالعجب.

(7) الوآة: النجيبة من الإبل. والمعزاء: المكان الصلب الكثير الحصى: .

(8) الحماة: أم الزوجة. والكنة: امرأة الولد: .

وممن شبه سرعة أيدى الإبل بأيدى النوائح كعب بن زهير فقال (1):

كأنّ أوب ذراعيها إذا عرقت ... وقد تلفّع بالقور العساقيل (2)

وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ... أرق الجنادب يركضن الحصى: قيلوا (3)

شدّ النهار ذراعا عيطل نصف ... قامت فجاوبها نكد مثاكيل (4)

نوّاحة رخوة الضّبعين ليس لها ... لمّا نعى بكرها النّاعون معقول (5)
العساقيل: أوائل السّراب؛ ولا واحد لها من لفظها. وأخبر أنّ ناقته فى شدّة الحر واتقاد الظهيرة تمرح فى سيرها وتتذرع بيديها؛ وشبه ذراعيها بذراعى امرأة نصف تنوح على ابنها، وقد نعى إليها؛ فهى تشير بيديها وتوالى تحريكهما. والعيطل: الطويلة العنق، وجعلها نصفا لأنها قد كادت تيأس من الولد فهى أشد لحزنها على ابنها وتفجّعها عليه، والقور: جمع قارة وهى ما ارتفع واستدار من الرمل؛ وأراد أن يقول: كما تلفعت القور بالعساقيل، فلم يمكنه فقلب.

---

(1) ديوانه: 16 – 18، من قصيدته المشهورة: «بانت سعاد».
(2) رواية الديوان: «وقد عرقت». وأوب: رجع. وتلفع: تلحف، وفى حاشية الأصل:
«قريب منه قول المرار الفقعسى يصف ناقته:
كأنما أوب يديها إلى ... حيزومها فوق حصى الجدجد
نوح ابنة الجون على هالك ... تندبه رافعة المجلد
– الجدجد: الأرض الصلبة. ابنة الجون: نواحة معروفة. والمجلد: قطعة جلد تضرب بها النائحة على صدرها».
(3) حاشية ف (من نسخة): «ورق»، والورق والأرق: جمع أورق؛ وهو الأخضر المائل إلى السواد. أو ما كان على لون الرماد وقيلوا؛ من القائلة.
(4) شد النهار: ارتفاع النهار؛ وهو ظرف، أى وقت ارتفاع النهار. والعيطل: الطويلة، ونكد: قليلات الأولاد. والنصف، هى التى قامت تنوح، شبه يدى ناقته بيدى هذه المرأة. والنكد: جمع نكداء، وهى التى لا يصيبها خير.
(5) نواحة، يعنى هذه النصف، وقوله: «رخوة الضبعين» يريد أنها شديدة الحركة والالتدام. والضبعان هما العضدان، والواحد ضبع. وبكرها: أول ولدها.
والمعقول: العقل، يقال: ما لفلان معقول، وماله مجلود.

ومثله:
وكأنّما رفعت يدى نوّاحة ... شمطاء قامت غير ذات خمار
/ وإنما خص الشّمطاء لما ذكرناه من اليأس من الولد، كما قال عمرو بن كلثوم:
ولا شمطاء لم يترك شقاها ... لها من تسعة إلّا جنينا (1)
وقد قيل فى بيت عمرو: بل شبّه الناقة بشمطاء، لما على رأسها من اللّغام (2).
ومثل ما تقدم من المعانى قول الشاعر:
يا ليت شعرى والمنى لا تنفع! ... هل أغدون يوما وأمرى مجمع!
وتحت رحلى زفيان ميلع ... كأنّها نائحة تفجّع
تبكى لميت وسواها الموجع

– الزّفيان: الناقة الخفيفة، والمليع: السريعة؛ وشبّه رجع يديها فى السير لنشاطها بيدى نائحة تنوح لقوم على ميّتهم بأجرة، فهى تزيد فى الإشارة بيديها ليرى مكانها.
ومثله بعينه قول ذى الرمة:
مجانيق تضحى وهى عوج كأنها ... بجوز الفلا مستأجرات نوائح (3)

---

(1) من المعلقة: 215 – بشرح التبريزى؛ وقبله:
فما وجدت كوجدى أم سقب ... أضلّته فرجّعت الحنينا
والسقب: ولد الناقة الذكر.
(2) اللّغام: الزبد الّذي يعلو شفاه الإبل إذا اهتاجت.
(3) ديوانه: 104. والعوج: جمع عوجاء، وهى الناقة الضامرة، كأنها عجفت فاعوج ظهرها.
وقبل هذا البيت:
وسيرى وأعراء المتان كأنّها ... إضاء أحسّت نفح ريح ضحاضح
على حميريّات كأن عيونها ... ذمام الركايا أنكرتها المواتح
– الأعراء: الخالية من النبات. والمتان: ما ارتفع من الأرض. والإضاء: جمع أضاة، وهو الغدير.
والضحاضح: قليلة الماء. والحميريات: إبل منسوبة إلى حمير. وركية ذمة: قليلة الماء. ونكرت الركية: قل ماؤها، وأنكرتها أنا.

المجانيق: التى ضمرن بعد سمن؛ وخصّ المستأجرات من النوائح للمعنى الّذي ذكرناه.
وقال الشماخ فيما يقارب هذا المعنى:
كأنّ أوب يديها حين أعجلها ... أوب المراح وقد نادوا بترحال
مقط الكرين على مكنوسة زلق ... فى ظهر حنّانة النّيرين مغوال
– معنى: «أوب ذراعيها» أى رجعهما– وأوب المراح، إذا أراح القوم عازب أموالهم ليرحلوا، وقد روى: «أوب المراح» بالكسر؛ ومعناه رجع المراح والنشاط. والمقط:
اللعب بالكرة. والكرين: جمع كرة. والمنكوسة: الأرض البراح التى لا شيء فيها.
والزّلق: المستوية من الأرض. والحنانة: الريح. والنيران: جانبا هذه الأرض. ومغوال، قيل: إنه من صفات الريح؛ وقيل: من صفات الأرض؛ وإن كان من صفات الريح فمعناه أنّ الريح تغول الأرض بأسرها؛ أى تملؤها، وإذا كان للأرض فالمعنى أنها تغول من سلكها أى تهلكه؛ وتلخيص معنى البيت أنه شبه يدى ناقته بيدى ضارب/ بكرة فى أرض واسعة فى يوم ريح عاصف؛ وهذا من دقيق المعانى وحسن التشبيه والمبالغة.
ومثل بيتى الشماخ قول المسيّب بن علس (1):
مرحت يداها للنّجاء كأنّما ... تكرو بكفّى ماقط فى قاع (2)
فعل السّريعة بادرت جدّادها ... قبل المساء تهمّ بالإسراع

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: قال س: «وجدت بخط القاضى أبى عبد الله محمد بن سلامة القضاعى رحمه الله: «علس» بفتح العين مضبوطا كأنه يجعله فعلا ماضيا، والعلس: حب كالعدس».
(2) من قصيدة فى المفضليات 60 – 63 (طبعة المعارف) أولها:
أرحلت من سلمى بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع
والماقط: الضارب، ورواية المفضليات:
* تكرو بكفّى لاعب فى صاع*.

معنى: «تكرو» أى كأنها تلاعب بكرة. والسريعة، يعنى نسّاجة. والجدّاد: الغزل الضعيف، فأراد أنها تسرع الضرب بالحفّ (1) والنسج قبل المساء؛ وما دامت تبصر؛ فشبّه يدى ناقته فى تذرّ عنها بيدى هذه النساجة.
وقال الأصمعىّ الجدّاد: هدب الثوب؛ فيعنى أن هذه النساجة قد قاربت الفراغ من الثوب، وبلغت إلى هدبه؛ فهى تبادر لتفرغ منه قبل المساء.
وقريب منه قول الآخر:
كأنّ أيديهنّ بالقاع القرق (2) ... أيدى جوار (3) يتعاطين الورق
فالقرق الخشن الّذي فيه الحصى؛ وشبّه خذف (4) مناسمهنّ (5) له بخذف جوار يلعبن بدراهم، وخصّ الجوارى لأنهن أخفّ يدا من النساء.
وقال آخرون: القرق هاهنا: المستوى من الأرض، الواسع؛ وإنما خصّ بالوصف لأن أيدى الإبل إذا أسرعت فى المستوى فهو أحمد لها؛ وإذا أبطأت فى غيره فهو أحمد لها.
ومن أحسن ما قيل فى الإسراع قول المزّار بن سعيد:
فتناولوا شعب الرّحال فقلّصت ... سود البطون كفضلة المتنمّس
ذكر قوما سفرا هبّوا من رقدتهم إلى رحالهم ليسيروا؛ ويعنى بسود البطون الإبل؛ والمتنمّس: الصائد الذق اتخذ ناموسا، وهو ما يستتر به ليختل الصيد، فشبه المطايا فى سرعتها يقطا قد صاد الصائد بعضها، وأفلت بعضها؛ فهنّ يطرن طيرانا شديدا.
ومثل هذا– وإن كان فى صفة الخيل– قول النابغة:

(1) الحف: المنسج.
(2) البيتان فى اللسان (قرق).
(3) اللسان: «أيدى نساء».
(4) الخذف: الرمى بالحصى الصغار.
(5) م «مناسمها».

* كالطّير تنجو من الشّؤبوب ذى البرد* (1)

وأما قول مروان:

... يهزّ مراحها ... بعد النّحول تليلها وقذالها

فقد مضى من وصف المطايا بالنشاط بعد السآمة والجهد ما مضى.

وأحسن من قول مروان/ وأشدّ إفصاحا بالمعنى وإعرابا عنه قول الهذلىّ:

ومن سيرها العنق المسبط ... رّ والعجرفيّة بعد الكلال (2)

وإنما كان هذا أحسن لأنه صريح بنشاطها بعد كلالها. وقول مروان: «بعد النحول» لا يجرى هذا المجرى؛ لأن النحول قد يكون عن جهد السفر والتعب، ويكون عن غيره.

وأما قوله:

* كالقوس ساهمة أتتك وقد ترى*

فقد أكثرت العرب فى وصف المطايا بالنحول وتشبيهها بالقسىّ وغيرها؛ وقد أحسن كثيّر فى قوله:

نفى السير عنها كلّ داء إقامة ... فهنّ رذايا بالطّريق ترائك (3)

وحمّلت الحاجات خوصا كأنّها ... – وقد ضمرت– صفر القسىّ العواتك (4)

وقال سلم بن عمرو الخاسر (5):

وكأنّهنّ من الكلال أهلّة ... أو مثلهنّ عطائف الأقواس (6)

---

(1) ديوانه: 23، وصدره:

* والخيل تمزع غربا فى أعنّتها*.

(2) ديوان الهذليين 2: 175، والبيت لأمية بن عائذ العنق: السير المنبسط. والمسبطر: المسترسل السهل. والعجر فيه: الشديد.

(3) ديوانه: 2: 136؛ الرذايا: جمع رذية؛ وهى الناقة المهزولة من السير.

والترائك: المتروكة لضعفها.

(4) العواتك: جمع عاتكة؛ وهى القوس إذا قدمت واحمرت.

(5) فى حاشيتى الأصل، ف: «قيل إنما سمى عمرو خاسرا لأنه ورث عن أبيه مصحف قرآن، فاشترى به عودا».

(6) القوس العطيفة: المعطوفة؛ وهى المنحنية.

قود طواها ما طوت من مهمه ... نائى الصّوى ومناهج أدراس (1)

وقال أبو تمام يصف ناقة:

أتينا القادسيّة وهى ترنو ... إلى بعين شيطان رجيم (2)
فما بلغت بنا عسفان حتّى ... رنت بلحاظ لقمان الحكيم
وبدّلها السّرى بالجهل حلما ... وقد أديمها قد الأديم
أذاب سنامها قطع الفيافى ... ومزّق جلدها نضح العصيم (3)
بدت كالبدر وافى ليل سعد ... وآبت مثل عرجون قديم
وقال البحترىّ:
وخدان القلاص حولا إذا قا ... بلن حولا من أنجم الأسحار (4)
يترقرقن كالسّراب وقد خض ... ن غمارا من السّراب الجارى
/ كالقسىّ المعطّلات، بل الأس ... هم مبريّة، بل الأوتار

---

(1) قود: جمع أقود؛ وهو من الإبل الطويل العنق. الصوى: جمع صوة؛ وهى الأعلام فى الطريق.
وفى حاشية الأصل: «ومثله بعينه للمتنبى:
فتبيت تسئد مسئدا فى نيّها ... إسئادها فى المهمّة الإنضاء
الإسئاد: إسراع السير فى الليل. والنى: الشحم. والمهمّة: الأرض الواسعة البعيدة. والإنضاء: مصدر أنضاه ينضيه إذا هزله. قال العكبرى: «والمعنى أن المهمّة ينضيها كما تنضيه».
(2) ديوانه: 423؛ من قصيدة يصف حجة حجها؛ وأولها:
لعلّك ذاكر الطّلل القديم ... وموف بالعهود على الرّسوم
وواصف ناقة تذر المهارى ... موكّلة بوخد أو رسيم
وقد أممت بيت الله نضوا ... على عيرانة حرف سعوم
أتيت القادسية ...
(3) النضح: الرشح. والعصيم: العرق.
(4) ديوانه: 2: 24؛ من قصيدة يمدح فيها أبا جعفر بن حميد. وخدان القلاص: إسراعها وحول: جمع حائل، وحول الثانية جمع أحول.

وله أيضا:
وهى العيس، دهرها فى ارتحال ... من حلول، أو فرقة من جميع (1)
ربّ مرت مرّت تجاذب قطري ... ه سرابا كالمنهل المشروع (2)
وسرى تنتحيه بالوخد حتّى ... تصدع اللّيل عن بياض الصّديع (3)
كالبرى فى البرى ويحسبن أحيا ... نا نسوعا مجدولة فى نسوع (4)

---

(1) ديوانه 2: 91؛ من قصيدة يمدح فيها محمد بن محمد الواثقى.
(2) المرت: الأرض القفر.

(3) الصديع: الفجر.
(4) البرى: جمع برة؛ وهى الحلقة. والنسوع: الحبال.

(1/564)

43 مجلس آخر [المجلس الثالث والأربعون:]
تأويل آية [: ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ...]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ [ص: 75].
فقال: كيف أضاف إلى نفسه اليد؛ وهو ممن يتعالى عن الجوارح؟
الجواب، قلنا فى هذه الآية وجوه:
أوّلها أن يكون قوله تعالى: لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ جاريا مجرى قوله: «لما خلقت أنا»، وذلك مشهور فى لغة العرب، يقول أحدهم: هذا ما كسبت يداك؛ وما جرّت عليك يداك؛ وإذا أرادوا نفى الفعل عن الفاعل استعملوا فيه هذا الضّرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشى قدمه، ولا ينطق لسانه، ولا تكتب يده؛ وكذلك فى الإثبات، ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح فى الحقيقة؛ بل الفائدة فيه النفى عن الفاعل.
وثانيها أن يكون معنى اليد هاهنا النعمة، ولا إشكال فى أن أحد محتملات لفظة اليد النعمة.
فأما الوجه فى تثنيتها فقد قيل فيه إن المراد نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، فكأنه تعالى قال: ما منعك أن تسجد لما خلقت لنعمتى؛ وأراد بالباء اللام.
وثالثها أن يكون معنى اليد هاهنا القدرة؛ وذلك أيضا من محتملات اللفظة؛ يقول القائل: ما لي بهذا الأمر يد ولا يدان، وما يجرى مجرى ذلك؛ والمعنى: أننى لا أقدر عليه ولا أطيقه؛ وليس المراد بذلك إثبات قدرة على الحقيقة؛ بل إثبات كون القادر قادرا، ونفى

(1/565)

كونه قادرا، فكأنه تعالى قال: ما منعك أن تسجد لما خلقت وأنا قادر على خلقه؛ فعبّر عن كونه قادرا بلفظ اليد الّذي هو عبارة عن القدرة؛ وكلّ ذلك واضح فى تأويل الآية.

*** [عود إلى المختار من شعر مروان بن أبي حفصة:]
ونعود إلى ما كنا ابتدأناه من/ الكلام على شعر مروان.
فمن قصيدته التى تقدم بعضها ووقع الكلام عليه مما يختار قوله:
أحيا أمير المؤمنين محمّد ... سنن النبيّ حرامها وحلالها
ملك تفرّع نبعة من هاشم ... مدّ الإله على الأنام ظلالها

جبل لأمّته تلوذ بركنه ... رادى جبال عدوّها فأزالها (1)
لم تغشها ممّا تخاف عظيمة ... إلّا أجال لها الأمور مجالها
حتى يفرّجها أغرّ مبارك (2) ... ألفى أباه مفرّجا أمثالها
ثبت على زلل الحوادث راكب ... من صرفهنّ لكلّ حال حالها (3)
كلتا يديك جعلت فضل نوالها ... للمسلمين، وفى العدوّ وبالها (4)
وقعت مواقعها بعفوك أنفس ... أذهبت بعد مخافة أوجالها
أمّنت غير معاقب طرّادها ... وفككت من أسرائها أغلالها
ونصبت نفسك خير نفس دونها ... وجعلت مالك واقيا أموالها (5)
أما قوله:
أحيا أمير المؤمنين محمد ... سنن النبيّ حرامها وحلالها
فقد عابه عليه بعض من لا معرفة له بنقد الشعر فقال: كيف يكون فى سنن النبيّ عليه

---

(1) فى حاشيتى الأصل؛ ف «رادى «فاعل» من المراداة؛ وهى مراماة الحجر؛ أصله من المردى وهو الحجر الّذي يكسر به الحجارة، يستعمل فى المفاخرة والمناجزة».
(2) م: «مهذب».
(3) أى راكب من الصروف لكل حال حالها.
(4) ش: «وللعدو وبالها».
(5) حاشية ف: «بخط عبد السلام بن الحسين البصرى رحمه الله: صيالها».

السلام حرام! وما ذلك بمعيب؛ لأنه أراد بقوله: «حلالها وحرامها» التحليل والتحريم؛ ومن سنته تحريم الحرام، وتحليل الحلال؛ وإنما المعيب من هذا قول ابن الرّقاع العاملىّ:
ولقد أراد الله إذ ولّاكها ... من أمّة إصلاحها وفسادها (1)
ومثل قول مروان قول سلم الخاسر:
ولما وليت ذكرت النبيّ ... بتحليله وبتحريمه
فأما قوله:
* حتى يفرّجها أغرّ مبارك* ... البيت
فكثير جدا للمتقدمين والمحدثين؛ والأصل فيه قول زهير:
وما كان من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل (2)
وهل ينبت الخطّىّ إلّا وشيجه ... وتغرس إلّا فى منابتها النّخل! (3)
ومثله قول الآخر:
/ وحمزة والعبّاس منهم ومنهم ... عقيل، وماء العود من حيث يعصر (4)
ومثله للرّبيع بن أبى الحقيق اليهودىّ:

إذ مات منّا سيّد قام بعده ... له خلف يكفى السّيادة بارع

(1) الطرائف الأدبية: 90؛ والرواية هناك: «إصلاحها ورشادها»، وهى أيضا رواية المؤلف فى المجلس التاسع والأربعين. وفى الحاشية: «عدىّ قال: «فسادها»، والأصمعىّ أنشد: «رشادها»؛ والبيت من قصيدته التى أولها:
عرف الديار توهما فاعتادها ... من بعد ما درس البلى أبلادها
وانظر روايتها وتخريج أبياتها فى الطرائف الأدبية 87 – 91.
(2) ديوانه: 115؛ وتوارثه؛ أى ورثوه كابرا عن كابرا؛ كناية عن مجدهم القديم.
(3) الخطىّ: الرماح؛ منسوبة إلى الخط؛ وهى جزيرة بالبحرين ترفأ إليها سفن الرماح. والوشيج: القنا الملتف فى منبته، واحدها وشيجة.
(4) حاشية الأصل: «ومثله للمتنبى:
فإن كان سيار بن مكرم انقضى ... فإنك ماء الورد إن ذهب الورد.

من أبنائه والعرق ينصر فرعه ... على أصله، والعرق للعرق نازع (1)
ومثله له:
ترجو الغلام وقد أعياك والده ... وفى أرومته ما ينبت العود
وأخذ هذا المعنى وبعض اللفظ الكميت فقال:
تجرى أصاغرهم مجرى أكابرهم ... وفى أرومته ما ينبت الشّجر
ومن هذا المعنى قول عبيد الله بن قيس الرّقيات:
يخلفك البيض من بنيك كما ... يخلف عود النّضار فى شعبه (2)
ومنه قول نهشل بن حرّىّ:
أرى كلّ عود نابتا فى أرومة ... أبى نسب العيدان أن يتغيّرا (3)
بنو الصّالحين الصالحون ومن يكن ... لوالد سوء يلقه حيث سيّرا (4)
ومثله لمسلم بن الوليد الأنصارىّ:
أحّ على الأيّام يفرى خطوبها ... على منهج ألفى أباه به قبل (5)
ولبشار:
* على أعراقها تجرى الجياد*

(1) نازع؛ أى ينزع إليه فى الشبه.
(2) النضار: شجر الأثل؛ وقيل: النضار: كل شجرة ناضرة.
(3) ف: «ناميا فى أرومة».
(4) نسب هذا البيت فى حماسة أبى تمام– بشرح التبريزى 1: 300 إلى جميل بن عبد الله بن معمر؛

ضمن أبيات ثلاثة؛ وهى:
أبوك حباب سارق الضيف برده ... وجدّى يا حجاج فارس شمّرا
بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباء صدق يلقهم حيث سيّرا
فإن تغضبوا من قسمة الله حظّكم ... فلله إذ لم يرضكم كان أبصرا
وهى فى الحماسة- بشرح المرزوقى 315 - 316 من غير نسبة.
(5) ديوانه: 203.

(1/568)

ومثله:
وما فىّ من خير وشرّ فإنها ... سجيّة آبائى وفعل جدودى
هم القوم فرعى منهم متفرّع ... وعودهم عند الحوادث عودى
وللبحترىّ:
وإذا أبو الفضل استعار سجيّة ... للمكرمات فمن أبى يعقوب (1)
شرف تتابع كابرا عن كابر ... كالرّمح أنبوبا على أنبوب
وأرى النّجابة لا يكون تمامها ... لنجيب قوم ليس بابن نجيب
/ وله أيضا:
ما سعوا يخلفون غير أبيهم ... كلّ ساع منّا يريد نصابه (2)
وله أيضا:
وما تابع فى المجد نهج عدوّه ... كمتّبع فى المجد نهج أبيه (3)
وفى هذه القصيدة يقول مروان:
هل تعلمون خليفة من قبله ... أجرى لغايته التى أجرى لها
طلع الدّروب مشمّرا عن ساقه ... بالخيل منصلتا يجدّ نعالها (4)
قودا تريع إلى أغرّ لوجهه ... نور يضيء أمامها وخلالها (5)
قصرت حمائله عليه فقلّصت ... ولقد تحفّظ قينها فأطالها
حتّى إذا وردت أوائل خيله ... جيحان بثّ على العدوّ رعالها (6)

---

(1) ديوانه 1: 57؛ من قصيدة يمدح فيها يعقوب بن إسحاق النوبختى.
(2) ديوانه 1: 90؛ من قصيدة يمدح فيها أبا ثوابة.
(3) ديوانه 2: 328؛ من قصيدة يمدح بها أحمد بن المدبر.
(4) الدروب، بريد بها دروب الروم. والمنصلت: الماضى فى الأمر.
(5) قود: جمع أقود، وهو الذلول من الخيل. وتربع: ترجع.
(6) جيحان: اسم نهر. والرعال: جمع رعيل؛ وهو القطعة من الخيل تتقدم العسكر.

أحمى بلاد المسلمين عليهم ... وأباح سهل بلادهم وجبالها
أدمت دوابر خيله وشكيمها ... غاراتهنّ وألحقت آطالها (1)
لم تبق بعد (2) مقادها وطرادها ... إلّا نحائزها وإلّا آلها (3)
رفع الخليفة ناظريّ وراشنى ... بيد مباركة شكرت نوالها
وحسدت حتى قيل أصبح باغيا ... فى المشى مترف شيمة مختالها (4)
ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى ... نعلا ورثت عن النبىّ مثالها (5)
أما قوله: «قصرت حمائله» فالأصل فيه قول عنترة:
بطل كأنّ ثيابه فى سرحة ... يحذى نعال السّبت ليس بتوأم (6)
أو قول الأعشى:
إلى ماجد كهلال السّما ... ء أزكى وفاء ومجدا وخيرا (7)
طويل النّجاد، رفيع العمى ... د، يحمى المضاف، ويغنى الفقيرا (8)
/ ومثله:
طويل نجاد السّيف عار جبينه ... كنصل اليمانى أخلصته صياقله
إذا همّ بالمعروف لم تجر طيره ... نحوسا، ولم تسبق نداه عواذله

---

(1) الدوابر: جمع دابرة، وهى الموضع الّذي يقع عليه مؤخر السرج. والحقت: ضمرت. والآطال: جمع إطال؛ وهى الخاصرة.
(2) ش: «لم يبق بعد».
(3) نحائزها: طباعها. وآلها: يريد شخصها.
(4) المترف: المبقى فى الملك والنعمة.
(5) حاشية الأصل: «يعنى أنه اقتدى عن النبي عليه السلام فى أفعاله حذو النعل بالنعل».
(6) المعلقة– بشرح التبريزى: 199؛ أى هو بطل. والسرحة: الشجرة الكبيرة الطويلة؛ يستظل بها. ونعال السبت: المدبوغة بالقرظ، وكانت الملوك تلبسها وليس بتوأم: لم يولد معه آخر فيكون ضعيفا.
(7) ديوانه: 70. والرواية فيه: «إلى ملك».
(8) رواية الديوان: «ويعطى الفقيرا». والمضاف: الملجأ، من قولهم: أضاف: ظهره إلى الحائط أى استند إليها.

ومثله قول طريح بن إسماعيل الثّقفىّ:
وأشعث طلّاع الثنايا مبارك ... يغول نجاد السّيف وهو طويل (1)

ولأبى جويرية العبدىّ:
يمدّ نجاد السّيف حتّى كأنّه ... بأعلى سنامى فالج يتطوّح
إذا اهتزّ فى البرد اليمانىّ خلته ... هلالا بدا فى جانب الأفق يلمح
ولأبى عطاء السّندىّ:
وأزهر من بنى عمرو بن عمرو ... حمائله وإن طالت قصار
ولبعضهم فى آل المهلب:
رأيتكم أعزّ الناس جارا ... وأمنعهم إذا عدّوا ذمارا (2)
حمائلكم وإن كانت طوالا ... نراها عن شمائلكم قصارا
ولبعض بنى العنبر فى معنى الطول:
فجاءت به عبل العظام كأنّما ... عمامته بين الرّجال لواء (3)
ولآخر:
أشمّ طويل السّاعدين كأنّما ... تناط إلى جذع طويل حمائله (4)
ولابن هرمة:
تناط حمائل الهندىّ منه ... بعاتق، لا ألفّ ولا ضئيل
ولكن تستقلّ به قواه ... على ماض بقائمه نبيل

---

(1) د، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «يطول».
(2) الذمار: الذمة والعهد.
(3) عبل العظام: ضخمها، والبيت من أبيات ثلاثة فى الحماسة- بشرح المرزوقى 269 - 270، والرواية هناك: «سبط العظام».
(4) حاشية ف (من نسخة): «طوال الساعدين».

ولسلم الخاسر:
يقوم مع الرّمح الرّدينىّ قائما ... ويقصر عنه طول كلّ نجاد
وللخثعمىّ:
يوازى الرّدينىّ فى طوله ... ويقصر عنه نجاد الحسام
وللوالبىّ:
طول وطول فترى كفّه ... ينهلّ بالطّول انهلال الغمام
وطوله يغتال يوم الوغى ... وغيره فضل نجاد الحسام
فأما قوله:
ولقد حذوت لمن أطاع ومن عصى ... نعلا ورثت عن النبىّ مثالها
فقد ردّد مروان معناه فى مواضع من شعره فقال:

شبيه أبيه منظرا وخليقة ... كما حذيت يوما على أختها النّعل
وقال فى موضع آخر:
أحيا لنا سنن النبيّ سميّه (1) ... قد الشّراك به قرنت شراكا (2)
وقال أيضا:
صحيح الضّمير، سرّه مثل جهره ... قياس الشّراك بالشّراك تقابله
وقال أيضا:
تشابهتما حلما وعدلا ونائلا ... وحزما إذا أمر أقام وأقعدا
تنازعتما نفسين؛ هذى كهذه ... على أصل عرق كان أفخر متلدا
كما قاس نعلا حضرميّ فقدّها ... على أختها لم يأل أن يتجوّدا

---

(1) م: «محمد».
(2) حاشية ف: «قد الشراك: مصدر فى موضع الحال، أى قادا».

وأخذ هذا المعنى أبو نواس فقال:
تنازع الأحمدان الشّبه فاتّفقا ... خلقا وخلقا كما قد الشّراكان (1)
والأصل فى هذا قول ابن أبى ربيعة:
فلما تواقفنا عرفت الّذي بها ... كمثل الّذي بى، حذوك النّعل بالنّعل (2)
ومثله للسّيد بن محمد الحميريّ رحمه الله تعالى:
يتلون أخلاق النبيّ وفعله ... فالنّعل تشبه فى المثال طراقها (3)
وقد تقدّم إلى هذا المعنى يزيد بن المكسّر بن ثعلبة بن سيّار العجليّ بقوله فى يوم ذى قار، يحرض قومه على القتال:
من فرّ منكم فرّ عن حريمه (4) ... وجاره، وفرّ عن نديمه
/ أنا ابن سيّار على شكيمه (5) ... مثل الشّراك قد من أديمه
* وكلّهم يجرى على قديمه*
فأما قوله:
* وحسدت حتى قيل أصبح باغيا* ... البيت
ففى معناه قول البحترىّ:
ألنت لى الأيام من بعد قسوة ... وعاتبت لى دهرى المسيء فأعتبا (6)
وألبستنى النّعمى التى غيّرت أخى ... علىّ فأمسى نازح الودّ أجنبا
*** ومما يختار لمروان قوله:

---

(1) حاشية الأصل: «أى ينزعان فى الشبه، كل منهما إلى صاحبه فى الشبه، ويجوز أن يكون تنازع،

من النزع الّذي هو السلب».
(2) ديوانه: 326.
(3) طراق النعل: ما أطبقت عليه فخرزت به.
(4) الأبيات فى تاريخ الطبرى 2: 154.
وفى حاشية الأصل: من نسخة «منكم».
(5) شكيمه: طبعه وعادته.
(6) ديوانه 1: 56.

موفّق لسبيل الرّشد متّبع ... يزينه كلّ ما يأتى ويجتنب
تسمو العيون إليه كلّما انفرجت ... للناس عن وجهه الأبواب والحجب
له خلائق بيض لا يغيّرها ... صرف الزّمان كما لا يصدأ الذّهب
ووجدت بعض من ينتقد (1) الشعر يقول: ليس فى شعر مروان بيت يتمثل به غير هذا البيت الأخير من الثلاثة الأبيات. وكأن ابن مناذر (2) إياه أراد بقوله، وقد سأل وهو مجاور بمكة:
عمن ببغداذ من الشعراء؟ فقيل له: العباس بن الأحنف؛ فقال: أنشدونى له، فأنشدوه:
لو كنت عاتبة لسكّن عبرتى ... أملى رضاك، وزرت غير مراقب (3)
لكن مللت فلم تكن لى حيلة، ... صدّ الملول خلاف صدّ العاتب (4)
فقال ابن مناذر: أخلق بمن أدام بحث التراب أن يصيب خرزة.
قال سيدنا أدام الله تمكينه: ولا شك فى قلة الأمثال فى شعر مروان؛ ولكن ليس إلى هذا الحد؛ وهذا المعنى الّذي قد تضمنه البيت قد سبق إليه أيضا، قال طريح بن إسماعيل:
جواد إذا جئته راجيا ... كفاك السؤال وإن عدت عادا
خلائقه كسبيك النّضا ... ر لا يعمل الدّهر فيها فسادا
ومثله قول الخريمىّ:
/ رأيتك يا زيد زيد النّدى ... وزيد الفخار وزيد الكرم
تزيد على نائبات الخطو ... ب بذلا وفى سابغات النّعم
كذا الخمر والذّهب المعدنىّ ... يجوّد هذا وذاك القدم
وفى قوله: «الذّهب المعدنىّ» فائدة؛ لأنه إذا خلص الذهب وصفا لم يفسد؛ وإذا امتزج

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «ينقد».
(2) حاشية الأصل: «ابن مناذر، بضم الميم، ومنهم من يفتح الميم، ذهابا إلى أن له آباء اسم كل منهم المنذر، وليس هذا بشيء. وقيل له:
يا ابن مناذر، فقال: مناذر الصغرى أم الكبرى؟ وهما ناحيتان بالأهواز، بل أنا ابن مناذر، بضم الميم».

(3) ديوانه: 2: 22.
(4) رواية الديوان: «لكن مللت».

بغيره لم يكن هذا حكمه؛ ومثله للأمويّ (1):
يأوى إلى خلق لم يصده طبع ... كأنّ جوهره من جوهر الذّهب
ولبعضهم:
ملك له خلق خليق بالعلا ... كسبيكة الذّهب التى لا تكلف (2)
وقد أخذ الخبز أرزىّ هذا المعنى فى قوله:
فلا تعنّ لتحذيف تكلّفه ... لصورة حسنها الأصليّ تكفيها
إنّ الدّنانير لا تجلى وإن عتقت ... ولا تزاد على النّقش الّذي فيها
ولجحظة مثله:
صديق لى له أدب ... صداقة مثله حسب
رعى لى فوق ما يرعى ... وأوجب فوق ما يجب
ولو نقدت خلائقه ... لبهرج عندها الذّهب

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «الأسدى».
(2) لا تكلف: لا تصدأ؛ من الكلف؛ وهو لون يخالف لون الوجه.

44 مجلس آخر [المجلس الرابع والأربعون:]

تأويل آية [: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ ...]

إن سائل سائل عن قوله تعالى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً؛ [الإسراء: 47].
فقال: لم وحّد نَجْوى وهو خبر عن جمع؟ وما معنى مَسْحُوراً وما جرت عادة مشركى العرب بوصف رسول الله
صلى الله عليه وآله بذلك، بل عادتهم جارية بقرفه بأنه ساحر؟
الجواب، قلنا: أما قوله تعالى: وَإِذْ هُمْ نَجْوى فإن «نجوى» مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، وهو مقرّ على لفظه. وبجرى ذلك مجرى/ قولهم: الرجال صوم، والمنازل حمد، يعنى بصوم صائمون، وبحمد محمودون.
وقد قال قوم: إن معناه: وإذ هم أصحاب نجوى، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ويقال:

القوم نجيّ والقوم أنجية، فمن وحّد بنى على مذهب المصدر، ومن جمع جعله منقولا عن المصادر، ملحقا برغيف وأرغفة، وما أشبه ذلك.
وقد قال الشاعر (1):
أتانى نجيّ بعد هدء ورقدة ... ولم أك فيما قد بلوت بكاذب (2)

---

(1) ف: «وقال الشاعر فى التوحيد»؛ وهو سواد بن قارب السدوسى؛ صحابيّ ذكره ابن حجر فى الإصابة 3: 148 – 149.
(2) من أبيات أنشدها عند الرسول عليه السلام، ذكرت مع خبر له فى مقدمة جمهرة الأشعار 24 – 26. والرواية هناك:
* ولم يك فيما قد عهدت بكاذب*.

وأنشد الفراء فى الجمع:
ظلّت نساؤهم والقوم أنجية ... يعدى إليها كما يعدى على الغنم (1)
فأما قوله تعالى: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً ففيه وجوه:
أوّلها أن يكون المراد: إن تتبعون إلا رجلا متغيّر العقل؛ لأن المشركين كان من مذهبهم عيب النبي صلى الله عليه وآله، وتضعيف أمره وتوهين رأيه، وكانوا فى وقت ينسبونه إلى أنه ساحر، وفى آخر يرمونه بالجنون، وأنه مسحور مغيّر العقل (2)، وربما قذفوه بأنه شاعر حوشىّ من ذلك كلّه. وقد جرت عادة الناس أن يصفوا من يضيفونه إلى البله والغفلة وقلة التحصيل بأنه مسحور.
وثانيها أن يريدوا بالمسحور المخدوع المعلّل؛ لأن ذلك أحد ما يستعمل فيه هذه اللفظة، قال امرؤ القيس:
أرانا موضعين لحتم غيب ... ونسحر بالطّعام وبالشّراب (3)
وقال أمية بن أبى الصلت:
فإن تسألينا فيم نحن فإنّنا ... عصافير من هذا الأنام المسحّر (4)

---

(1) البيت فى اللسان (نجا)، ونسبه لسحيم، ولم يذكر فى ديوانه. وفى ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «يعدى عليها».
(2) د، ف، حاشية الأصل من نسخة: «متغير العقل».
(3) ديوانه: 132. موضعين: مسرعين، والإيضاع: نوع من السير. والحتم: الإيجاب؛ وبعده:
عصافير وذبّان ودود ... وأجرأ من مجلّحة الذئاب
فبعض اللوم عاذلتى فإنّى ... ستكفينى التجارب وانتسابى
إلى عرق الثرى وشجت عروقى ... وهذا الموت يسلبنى شبابى.
(4) البيت فى اللسان (سحر)، ونسبه إلى لبيد؛ وهو أيضا فى ديوانه 1: 81.

وثالثها أن السّحر فى لغة العرب الرّئة وما تعلق بها، فيها ثلاث لغات: سحر وسحر وسحر، وقيل السّحر ما لصق بالحلقوم والمريء من أعلى الجوف؛ وقيل إنه الكبد؛ فكأنّ المعنى على هذا: إن تتبعون إلا رجلا ذا سحر؛ خلقه الله بشرا كخلقكم.

ورابعها أن يكون معنى مسحور أى ساحر، وقد جاء لفظ مفعول بمعنى فاعل؛ قال الله تعالى: وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ/ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً؛ [الإسراء: 45]، أى ساترا، والعرب تقول للمعسر: ملفج، ومعناه ملفج؛ لأن ماضيه ألفج (1)، فجاءوا بلفظ المفعول وهو الفاعل؛ ومن ذلك قولهم: فلان مشئوم على فلان وميمون؛ وهم يريدون شائم له ويأمن؛ لأنه من شأمهم (2) ويمنهم.

ورأيت بعض العلماء يطعن على هذا الاستشهاد الأخير فيقول: العرب لا تعرف «فلان مشئوم على فلان»؛ وإنما هذا من كلام أهل الأمصار؛ وإنما تسمى العرب من لحقه الشؤم مشئوما؛ قال علقمة بن عبدة:

ومن تعرّض للغربان يزجرها ... على سلامته لا بدّ مشئوم (3)

والوجوه الثلاثة الأول أوضح وأشبه.

*** [عود إلى المختار من شعر مروان بن أبي حفصة:]

ومما يختار لمروان بن أبى حفصة قوله من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة الشيبانىّ، أولها:

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا ... وإن كان من عهد الصّبا قد تمتّعا (4)

يقول فيها:

ولمّا سرى الهمّ الغريب قريته ... قرى من أزال الشكّ عنه وأزمعا

---

(1) حاشية الأصل: «يقال: ألفج؛ فهو ملفج، وأسهب إذا ذهب عقله فهو مسهب، وأحصن فهو محصن».

(2) شأمهم: أصابهم بشؤم.

(3) ديوانه: 131، المفضليات: 120 (طبعة المعارف).

(4) الأوانس: جمع آنسة؛ وهى الفتاة الطيبة الحديث والنفس.

عزمت فعجّلت الرّحيل ولم أكن ... كذى لوثة لا يطلع الهمّ مطلعا

فأمّت ركابى أرض معن ولم تزل ... إلى أرض معن حيثما كان نزّعا (1)

نجائب لولا أنها سخّرت لنا ... أبت عزّة من جهلها أن توزّعا

كسونا رحال الميس منها غواربا ... تدارك فيها النّيّ صيفا ومربعا (2)
فما بلغت صنعاء حتى تواضعت ... ذراها وزال الجهل عنها وأقلعا (3)
وما الغيث إذ عمّ البلاد بصوبه ... على الناس من معروف معن بأوسعا
يقول فيها:
تدارك معن قبّة الدّين بعد ما ... خشينا على أوتادها أن تنزّعا
أقام على الثّغر المخوف، وهاشم ... تساقى سماما بالأسنّة منقعا
مقام امرئ يأبى سوى الخطّة التى ... تكون لدى غبّ الأحاديث أرفعا
وما أحجم الأعداء عنك بقيّة ... عليك؛ ولكن لم يروا فيك مطمعا
رأوا مخدرا قد جرّبوه وعاينوا ... لدى غيله منهم مجرّا ومصرعا (4)
/ وليس بثانيه إذا شدّ أن يرى ... لدى نحره زرق الأسنّة شرّعا
له راحتان: الحتف والغيث فيهما ... أبى الله إلّا أن تضرّا وتنفعا
لقد دوّخ الأعداء معن فأصبحوا ... وأمنعهم لا يدفع الذّلّ مدفعا
نجيب مناجيب وسيّد سادة ... ذرا المجد من فرعى نزار تفرّعا
لبانت خصال الخير فيه وأكملت ... وما كملت خمس سنوه وأربعا (5)

---

(1) نزعا، أى مشتاقين.
(2) الميس: خشبة الرحل، والغوارب: أعلى السنام. والنيّ: الشحم.
(3) ذراها: جمع ذروة؛ وهى الأعالى؛ ويعنى هنا الأسنمة.
(4) المخدر: الأسد فى خدره وهو غيله؛ ويعنى بالخدر الأجمة.
(5) فى حاشيتى الأصل، ف:
ومثله لآخر:
لئن فرحت بى معقل عند شيبتى ... لقد فرحت بى بين أيدى القوابل.

لقد أصبحت فى كلّ شرق ومغرب ... بسيفك أعناق المريبين خضّعا
وطئت خدود الحضرميّين وطأة ... لها هدّ ركنا عزّهم (1) فتضعضعا
فأقعوا على الأذناب إقعاء معشر ... يرون لزوم السّلم أبقى وأودعا
فلو مدّت الأيدى إلى الحرب كلها ... لكفّوا وما مدّوا إلى الحرب إصبعا
أما قوله:
فما بلغت صنعاء حتى تواضعت ... ذراها، فزال الجهل عنها فأقلعا
فقد ردّده فى موضع آخر فقال:
فما بلغت حتّى حماها كلالها ... إذا عرّيت أصلابها أن تقيّدا
وهذا المعنى [كثير فى الشعر القديم والمحدث] (2)، فمنه قول جرير:

إذا بلغوا المنازل لم تقيّد ... وفى طول الكلال لها قيود (3)
وروى أنه قيل لنصيب: لك بيت نازعك فيه جرير؛ أيّكما فيه أشعر؟ فقال: ما هو؟
فقيل قولك:
أضرّ بها التّهجير حتّى كأنّها ... بقايا سلال لم يدعها سلالها (4)
وأنشد بيت جرير الّذي تقدّم، فقال: قاتل الله ابن الخطفى! فقيل له: قد فضلته عليك، فقال: هو ذاك.
وأخذ هذا المعنى المؤمل بن أميل المحاربىّ فقال:
كانت تقيّد حين تنزل منزلا ... فاليوم صار لها الكلال قيودا
ولأبى نخيلة:
/ قيّدها الجهد ولم تقيّد ... فهى سوام كالقنا المسنّد

---

(1) حاشية ف (من نسخة): «عزمهم».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
«كثير فى شعر القدماء والمحدثين».
(3) ديوانه: 148.
(4) السلال: السل.

وما لها معلّل (1) من مزود ... منها (2) ولا من شاحط مستبعد
ومعنى قوله: «سوام» أى هى رافعة رءوسها، وشبهها بالقنا، لأن القنا إذا ركز مال قليلا مع الريح (3)، فيقول: فى أعناقها ميل من الضعف، كما قال الشماخ:
فأضحت تفالى بالسّتار كأنّها ... رماح نحاها وجهة الرّيح راكز (4)
وكما قال حميد بن ثور الهلالىّ:
بمثوى حرام والمطىّ كأنه ... قنا مسند هبّت لهنّ خريق (5)

---

(1) ش «معلل»، بكسر اللام المشددة. وهو على هذا كناية عن العلف الّذي تجتره من جوفها.
(2) فى حاشيتى الأصل، ف: «منها، متعلق بالمزود؛ أى من مزود منها، أى من نفسها، يعنى كرشها».
(3) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «من الريح».
(4) فى حاشيتى الأصل، ف: «وهذا البيت آخر زائيته؛ وقبله:
فأصبح فوق الحقف حقف تبالة ... له مركد فى مستوى الحبل بارز
فأضحت تفالى بالستار كأنها ...
يصف حميرا وصائدا، والحقف: ما اعوج من الرمل، والمركد: المقام والحبل: الممتد من الرمل.

وقوله: «تفالى» أى تدخل رءوسها بعضها فى بعض. والستار: موضع؛ وشبهها فى دفتها وطولها بالرماح ونحاها: جعلها فى ناحية الريح؛ شبهها
منحرفة إلى ناحية الريح تستنشى؛ فإن حملت الريح ريح الصائد إليها تركت ذلك المورد وأتت غيره؛ وإلا تقدمت بالرماح والقصيدة فى ديوانه: 43 – 53؛ ورواية البيتين فيه:
وأصبح فوق النّشز نشز حمامة ... له مركض فى مستوى الأرض بارز
وظلّت تفالى باليفاع كأنها ... رماح نحاها وجهة الريح راكز.
(5) ديوانه: 34، من قصيدة طويلة؛ أولها:
نأت أمّ عمرو فالفؤاد مشوق ... يحنّ إليها والها ويتوق
وهو أيضا فى الكامل– بشرح المرصفى 6: 193، واللسان (خرق)، وفى حاشيتى الأصل، ف: نسخة س: «مثوى حرام: منى»، وقبل هذا البيت:
فأعرضت عنها فى الزيارة أتّقى ... وذو اللّب بالتقوى هناك حقيق
وهذا البيت لم يرد فى ديوانه؛ والّذي ورد قبل البيت المذكور:
ألا طرقت صحبى عميرة إنّها ... لنا بالمروراة المطلّ طروق
والمروراة هنا: الأرض أو المفازة لا شيء فيها.

فالخريق ريح شديدة تنخرق من كل جهة.
ومعنى قول أبى نخيلة: «من مزود» أى من ثميلة (1) تجترّها، من الاجترار، وأراد أنه لا شيء فى أجوافها تتعلّل (2) به. والمستبعد: ما بعد من المرعى.
وأنشد أبو العباس ثعلب:
إذا بلغوا المنازل لم تقيّد ... ركائبهم ولم تشدد بعقل
فهنّ مقيّدات مطلقات ... تقضّم ما تشذّر فى المحلّ (3)
والأصل فى هذا قول امرئ القيس:
مطوت بهم حتّى تكلّ مطيّهم ... وحتّى الجياد ما يقدن بأرسان (4)
ولعباد بن أنف الكلب الصيداوىّ:
فتمسى لا أقيّدها بحبل ... بها طول الضّراوة والكلال
ومن جيد هذا المعنى قول الفرزدق يصف الإبل:
بدأنا بها من سيف رمل كهيلة ... وفيها نشاط من مراح وعجرف (5)

---

(1) الثميلة: بقية العلف.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «فتتعلل به».
(3) تشذر: تفرق؛ وفى د، ف:
«تشذب»، وهى بمعنى تفرق أيضا.

(4) ديوانه: 129. مطوت بهم؛ أى مددت بهم فى السير، ما يقدن بأرسان؛ أى أعيت فلا تحتاج إلى أرسان. وفى حاشيتى الأصل، ف: «قبله:
ومجر كغلّان الأنيعم بالغ ... ديار العدوّ ذى زهاء وأركان
المجر: الجيش الكبير الثقيل. والغلان: الأودية؛ واحدها غال، وهو الوادى الكثير الشجر.
وذو زهاء؛ أى لا يحصون لكثرتهم.
(5) ديوانه 2: 551 – 558؛ من نقائضه المشهورة، وأولها:
عزفت بأعشاش وما كدت تعزف ... وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف
وأصل السيف شاطئ البحر، وكهيلة: موضع. والعجرف: سير فيه نشاط. وفى حاشيتى الأصل، ف: «قبل هذا البيت: –

فما بلغت حتّى تقارب خطوها ... وبادت ذراها والمناسم رعّف (1)
وحتّى قتلنا الجهل عنها وغودرت ... إذا ما أنيخت والمدامع ذرّف (2)
/ وحتّى مشى الحادى البطيء يسوقها ... لها بخص دام ودأى مجلّف
– البخص: لحم الخفّ الّذي تطأ عليه. والدّأي: فقار الظهر. والمجلّف: المقشور–
وحتّى بعثناها وما فى يد لها ... إذا حلّ عنها رمّة وهى رسّف
– الرّمة: الحبل؛ وأراد أنها ترسف كما يرسف المقيد، وإن لم يكن فى يدها قيد–
إذا ما نزلنا قاتلت عن ظهورها ... حراجيج أمثال الأهلّة شسّف
– الحراجيج: الطّوال من الإبل، والشّسف: اليابسة من الجهد والكلال. ومعنى قتالها للغربان أنها إذا عرّيت ظهورها تقع الغربان عليها لتأكل دبرها؛ فالإبل تدافع الغربان بأفواهها عن ظهورها وذلك قتالها–

–
إليك أمير المؤمنين رمت بنا ... هموم المنى والهوجل المتعسّف
وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال إلا مسحتا أو مجرّف
ومائرة الأعضاد صهب كأنما ... عليها من الأين الجساد المدوّف
بدأنا بها من سيف رمل كهيلة ... ...
– الهوجل: البطن الواسع فى الأرض. المتعسف: الطريق المسلوك من غير علم. ويروى: «إلا مسحت»، بالرفع؛ ومعنى: لم يدع»، من الدعة؛ أى «لم يتدع» مع هذا الزمان إلا مسحت مستأصل.
قال سويد:
أرّق العين خيال لم يدع ... من سليمى ففؤادى منتزع
والمجرف: الّذي أخذ ما دون الجميع؛ وقال ثعلب: «مسحتا» نصب بوقوع الفعل عليه، وقد وليه الفعل، ولم يل الفعل «مجرف» فاستؤنف به فرفع، قال: التقدير: «هو مجرف». ومائرة الأعضاد:

التى تمور بيديها دون رجليها، وذلك مما يستحب فى الإبل. والجساد: العرق؛ وهو ما اصفر، يضرب إلى الحمرة.
(1) باءت: هلكت أسنمتها والمناسم: أظفار الإبل. ورعف: دامية من الحفاء.
(2) نسخة الشجرى: «قتلنا جهلها؛ وهو مرحها ونشاطها بالكلال». ويروى: «وغورت، من التغوير، وهو نزول الغائرة؛ والغائرة نصف النهار».

إذا ما أريناها الأزمّة أقبلت ... إلينا بحرّات الخدود تصدّف
فأفنى مراح الدّاعرية خوضها ... بنا اللّيل إذ نام الدّثور الملفّف (1)
ومن أحسن ما قيل فى وصف الإبل بالنحول من الكلال والجهد بعد السّمن قول الشاعر:
وذات ماءين قد غيّضت جمّتها ... بحيث تستمسك الأرواح بالحجر
ردّت عوارى غيطان الفلا ونجت ... بمثل إيبالة من حائل العشر (2)
قوله: «ذات ماءين» يعنى سمنا على سمن؛ وقيل: بل عنى أنها رعت كلأ عامين.
وقوله «قد غيّضت جمّتها» يعنى أنه أتعبها بالسير حتى ردّها هزيلا بعد سمن؛ فكأنه غيّض بذلك ماءها.
ومعنى:
* بحيث تستمسك الأرواح بالحجر*
يعنى الفلاة؛ حيث لا يكون فيها الماء، فيقتسم الركب الماء الّذي يكون معهم بالحجر الّذي يقال له المقلة (3) فتمسك أرماقهم.
وقوله:
* ردت عوارى غيطان الفلا ونجت*
أى ما رعت من كلأ هذه الأماكن وسمنت عنه كان كعارية عندها، فردّته حيث جهدها السير وأهزلها (4). والإيبالة: الحزمة من الحطب اليابس.

---

(1) الداعرية: إبل منسوبة إلى فحل يقال له: داعر، معروفة بالنجابة والكرم. وخوضها: سيرها بالليل. والدثور: الرجل المثقل البدن، الّذي لا يبرح مكانه. الملفف، أى فى ثيابه.
(2) العشر: شجر له صمغ، وفى حاشيتى الأصل ف: «يعنى بحائل العشر ما يبس من هذا الشجر، وأصل الحائل فى الإبل إذا لم تحمل».
(3) المقلة، بالفتح: حصاة القسم؛ توضع فى الإناء ليعرف قدر ما يسقى كل واحد منهم؛ وذلك عند قلة الماء فى المفاوز.
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «هزلها».

وأخذ هذا المعنى بعينه أبو تمام فقال:

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة ... رعاها، وماء المزن ينهلّ ساكبه (1)

فكم جزع واد جبّ ذروة غارب ... ومن قبل كانت أتمكته مذانبه (2)

فأما قوله/:

فما أحجم الأعداء عنك بقيّة ... عليك، ولكن لم يروا فيك مطمعا

فمأخوذ من قول الأول (3):

فما بقيا عليّ تركتمانى ... ولكن خفتما صرد النّبال (4)

وقريب منه قول الآخر:

لعمرك ما النّاس أثنوا عليك ... ولا قرّظوك ولا عظّموا

ولو أنّهم وجدوا مطعنا ... إلى أن يعيبوك ما أحجموا

فأنت بفضلك ألجأتهم ... إلى أن يجلّوا وأن يعظموا

---

(1) ديوانه: 44 من قصيدته التى يمدح فيها عبد الله بن طاهر؛ وأولها:

أهنّ عوادى يوسف وصواحبه ... فعزما فقد ما أدرك السّؤل طالبه

وفى الديوان: «وماء الروض ينهل ساكبه». وبعده:

فأضحى الفلا قد جدّ فى برى نحضه ... وكان زمانا قبل ذاك يلاعبه

النحض: اللحم المكتنز.

(2) جب: قطع. أتمكته: أسمنته. المذانب: مجارى الماء. ورواية الديوان:

* وبالأمس كانت أتمكته مذانبه*.

(3) هو اللعين المقرى؛ وكان قد تعرض لجرير والفرزدق فقال:

سأقضى بين كلب بنى كليب ... وبين القين قين بنى عقال

بأن الكلب مرتعه وخيم ... وأن القين يعمل فى سفال

فلم يجبه أحد منهما؛ فقال:

فما بقيا عليّ تركتمانى، ... ولكن خفتما صرد النبال.

(4) البقيا: الرحمة والشفقة. وصرد السهم: نفذ أو نكل؛ وهو من الأضداد؛ والمعنى على الأول: أنكما خفتما أن تنفذ سهامى فيكما، أى هجائى، وعلى الثانى: أنكما خفتما ألا تنفذ سهامكما، فعجزتما عن الرد علىّ.

ومثله وقريب منه:

أما لو رأى فيك العدوّ نقيصة ... لخبّ بتصريف العيوب وأوضعا

ولكنّه لما رآك مبرّأ ... من العيب غطّى رأسه وتقبّعا

ومثله:

قد طلب العاذل عيبا فما ... أصاب عيبا فانثنى عاذرا

وللبحترىّ فى معنى قول مروان:

* فما أحجم الأعداء عنك بقيّة*

من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف لقاءه الأسد:

غداة لقيت اللّيث واللّيث خادر ... يحدّد نابا للّقاء ومخلبا (1)

شهدت، لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضبا من البيض مقضبا (2)

فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكا إذا الهيابة النّكس كذّبا (3)

هزبر مشى يبغى هزبرا، وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا (4)

أدلّ بشغب ثمّ هالته صولة ... رآك لها أمضى جنانا وأشغبا

فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمعا ... وأقدم لمّا لم يجد عنك مهربا

فلم يغنه أن كرّ نحوك مقبلا، ... ولم ينجه أن حاد عنك منكبا

حملت عليه السّيف لا عزمك انثنى، ... ولا يدك ارتدّت، ولا حدّه نبا

/ وكنت متى تجمع يمينيك (5) تهتك الضّ ... ريبة، أولا تبق للسّيف مضربا

ومن صافى كلام مروان ورائقه، ومما اجتمع له فيه جودة المعنى واللفظ واطّراد النسج قوله:

---

(1) ديوانه 1: 56.

(2) يقال: أصلت السيف إذا جردته. والعضب: السيف القاطع.

والقضيب: القطع أيضا.

(3) أى كذب الظن فيه؛ ومن نسخة بحاشية الأصل: «نكبا».

(4) الأغلب: الأسد إذا كان غليظ الرقبة.

(5) جعل كلتا يديه يمينا.

بنو مطر يوم اللّقاء كأنّهم ... أسود لها فى غيل خفّان أشبل (1)

هم يمنعون الجار حتى كأنّما ... لجارهم بين السّماكين منزل

لهاميم فى الإسلام سادوا ولم يكن ... كأوّلهم فى الجاهليّة أوّل

هم القوم إن قالوا أصابوا، وإن دعوا ... أجابوا، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن أحسنوا فى النّائبات وأجملوا

ثلاث بأمثال الجبال حباهم ... وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل

ومن جيد قوله من قصيدة يمدح بها معنا:

ما من عدوّ يرى معنا بساحته ... إلّا يظنّ المنايا تسبق القدرا

يلفى إذا الخيل لم تقدم فوارسها ... كاللّيث يزداد إقداما إذا زجرا

أغرّ يحسب يوم الرّوع ذا لبد ... وردا ويحسب فوق المنبر القمرا (2)
وله من قصيدة يصف يوما حارّا:
ويوم عسول الآل حام كأنّما ... لظى شمسه مشبوب نار تلهّب (3)
نصبنا له منّا الوجوه وكنّها ... عصائب أسمال بها نتعصّب
ويشبه أن يكون أخذ ذلك من قول الشّنفرى:
ويوم من الشّعرى يذوب لعابه ... أفاعيه فى رمضائه تتململ (4)
نصبت له وجهى ولكنّ دونه ... – ولا ستر– إلا الأتحمىّ المرعبل (5)

---

(1) حماسة ابن الشجرى: 109 – 110، وأبيات منها فى لباب الآداب 265، 266.
(2) لبد: جمع لبدة؛ وهو ما اجتمع من الشعر على قفا الأسد فتلبد.
(3) عسول: جار؛ وأصله فى الذئب والثعلب. وحام: حار.
(4) لامية العرب– بشرح الزمخشرى:
128 – 129. الشعرى: من الكواكب القيظية.
(5) الأتحمى: نوع من البرود. والمرعبل:
المقطع.

ولمروان من أبيات يصف فيها حديقة وهبها له المهدىّ، ويذكر نخلها وشجرها أجاد فيها:
نواضر غلبا قد تدانت رءوسها ... من النّبت حتّى ما يطير غرابها (1)
ترى الباسقات العمّ فيها كأنها ... ظعائن مضروب عليها قبابها
/ ترى بابها سهلا لكلّ مدفّع ... إذا أينعت نخل فأغلق بابها (2)
يكون لنا ما نجتني من ثمارها ... ربيعا إذا الآفاق قلّ سحابها
حظائر لم يخلط بأثمانها الرّبا ... ولم يك من أخذ الدّيات اكتسابها
ولكن عطاء الله من كلّ مدحة ... جزيل من المستخلفين ثوابها
ومن ركضنا بالخيل فى كلّ غارة ... حلال بأرض المشركين نهابها (3)
حوت غنمها آباؤنا وجدودنا ... بصمّ العوالى والدّماء خضابها
أمّا قوله:
حظائر لم يخلط بأثمانها الرّبا ... ولم يك من أخذ الدّيات اكتسابها
فكأن ابن المعتز نظر إليه فى قوله:
لنا إبل ما وفّرتها دماؤنا ... ولا ذعرتها فى الصباح الصّوابح (4)
وفى ضد هذا قول أبى تمام:

---

(1) ف: «نواضر عليا».

(2) يريد أنه إذا أغلق الآخرون الأبواب على نخيلهم؛ فإن نخل هذه الروضة لا يغلق بابه.
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «للخيل».
(4) ديوانه: 22؛ والرواية فيه:
* لنا وفرة ما وفّرتها دماؤنا*
وفى نسخة ش: «الصوائح»؛ والمعنى أنه لم نأخذ عوضا عن دمائنا.

(1/588)

كثرت فيهم المسارح إلّا ... أنّها من مناكح وديات (1)
ومثل الأول قول حسان يهجو قوما من قريش:
ومالكم لا من طراد فوارس ... ولكن من التّرقيح يا آل مالك (2)

---

(1) ف، حاشية الأصل من نسخة: «المواشى»؛ وفى حاشيتيهما أيضا: إذا سكنت الياء من «المواشى»؛ كان البيت مشعث العروض؛ والتشعيث فى العروض غير مألوف وإنما هو فى الضرب الأول من الخفيف. والتشعيث: أن تقطع وتد فاعلاتن فتحذف ألفه وتسكن لامه فتصير: «فاعلتن»، فتصير:
«مفولن».
(2) الترقيح: إصلاح المال.

(1/589)

45 مجلس آخر [المجلس الخامس والأربعون:]
تأويل آية [: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ]
إن سأل سائل عن معنى قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص: 78].
وقوله تعالى: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ؛ [الإنسان: 9].
وقوله تعالى: وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ؛ [الرحمن: 27].
وما شاكل ذلك من آي القرآن المتضمنة لذكر الوجه.
الجواب، قلنا: الوجه فى اللغة العربية ينقسم إلى أقسام:
فالوجه المعروف المركب فيه العينان من كل حيوان.
والوجه أيضا أول الشيء وصدره؛ ومن ذلك قوله تعالى: وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ [آل عمران: 72] أى أوّل النهار؛ ومنه قول الربيع بن زياد:
/ من كان مسرورا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار (1)

أى غداة كلّ يوم. وقال قوم: وجه نهار: موضع.
والوجه القصد بالفعل؛ من ذلك قوله تعالى: وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ؛ [لقمان: 22]؛ معناه: من قصد بأمره وفعله إلى الله سبحانه، وأراده بهما. وكذلك قوله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، [النساء: 125]؛ وقال الفرزدق:

(1) الحماسة- بشرح المرزوقى 995؛ وفى نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فليأت ساحتنا»؛ وهى رواية الحماسة؛ وهو مالك بن زهير العبسى قتل فى بنى فزارة؛ فرثاه الربيع بأبيات من هذا البيت.

وأسلمت وجهى حين شدّت ركائبى ... إلى آل مروان بناة المكارم
أى جعلت قصدى وإرادتى لهم، وأنشد الفراء:
أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... ربّ العباد إليه الوجه والعمل
أى القصد؛ ومنه قولهم فى الصلاة: وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض؛ أى قصدت قصدى بصلاتى وعملى؛ وكذلك قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ [الروم: 43].
والوجه الاحتيال للأمرين؛ من قولهم كيف الوجه لهذا الأمر؟ وما الوجه فيه؟ أى ما الحيلة؟
والوجه المذهب والجهة والناحية، قال حمزة بن بيض الحنفىّ:
أىّ الوجوه انتجعت؟ قلت لهم: ... لأىّ وجه إلّا إلى الحكم (1)!
متى يقل صاحبا سرادقه: ... هذا ابن بيض بالباب يبتسم
والوجه: القدر والمنزلة؛ ومنه قولهم: لفلان وجه عريض، وفلان أوجه من فلان، أى أعظم قدرا وجاها، ويقال: أوجهه السلطان إذا جعل له جاها؛ قال امرؤ القيس:
ونادمت قيصر فى ملكه ... فأوجهنى وركبت البريدا (2)
والوجه الرئيس المنظور إليه؛ يقال: فلان وجه القوم، وهو وجه عشيرته؛ ووجه الشيء نفسه وذاته؛ قال أحمد بن جندل السّعديّ:

(1) الأغانى 15: 14.
(2) اللسان (وجه)؛ وهو من أبيات أربعة فى الأغانى 8: 196 (طبعة دار الكتب المصرية)، وفى حاشية ف: «يقال: حمل فلان على البريد إذا هيئ له فى كل مرحلة مركوب ليركبه؛ فإذا وصل إلى المرحلة الأخرى نزل عن المعيى وركب المرفه؛ وهكذا إلى أن يصل إلى مقصده».

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ... فأفلت منها وجهه عتد نهد (1)
أراد أفلته وتجّاه ومنه قولهم: إنما أفعل ذلك لوجهك، ويدل أيضا على أن الوجه يعبّر به/ عن الذات قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ. إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ؛ [القيامة: 22 – 25]، وقوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ لِسَعْيِها راضِيَةٌ؛ [الغاشية: 8، 9]، لأن جميع ما أضيف إلى الوجوه فى ظاهر الآى؛ من النظر، والظن، والرّضا لا يصحّ إضافته فى الحقيقة إليها وإنما يضاف إلى الجملة، فمعنى قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ؛ أى كل شيء هالك إلا هو؛ وكذلك قوله تعالى:
كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ؛ لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل «ذى الجلال» كما قال: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ؛ [الرحمن: 78]: لما كان اسمه غيره.
ويمكن فى قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ وجه آخر؛ وقد روى عن بعض المتقدمين، وهو أن يكون المراد بالوجه ما يقصد به إلى الله تعالى ويوجّه؛ نحو القربة إليه جلت عظمته؛ فيقول: لا تشرك بالله، ولا تدع إلها غيره؛ فإن كل فعل يتقرب به إلى غيره، ويقصد به سواه فهو هالك باطل؛ وكيف يسوغ للمشبّهة أن يحملوا هذه الآية والتى قبلها على الظاهر! أوليس ذلك يوجب أنه تعالى يفنى ويبقى وجهه: وهذا كفر وجهل من قائله.
فأما قوله تعالى: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ، [الإنسان: 9]، وقوله: إِلَّا

---

(1) حفزنا: طعنا. ويقال فرس عتد، بفتح التاء وكسرها: إذا كان شديدا تام الخلق سريع الوثبة؛ ليس فيه اضطراب ولا رخاوة والنهد من نعت الخيل: الجسيم المشرف. والحوفزان هو الحارث بن شريك طعنه قيس بن عاصم يوم جدود؛ والمشهور فى ذلك قول سوار بن حيان المنقرىّ:
ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة ... سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا
وحمران قسرا أنزلته رماحنا ... فعالج غلّا فى ذراعيه مقفلا
وانظر شرح المفضليات 470.

ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى؛ [الليل: 20]، وقوله: وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، [الروم: 39]؛ فمعلوم أن هذه الأفعال مفعولة له؛ ومقصود بها ثوابه، والقربة إليه، والزلفة عنده.
فأما قوله تعالى: فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ؛ [البقرة: 115]، فيحتمل أن يراد به: فثمّ الله، لا على معنى الحلول، ولكن على معنى التدبير والعلم، ويحتمل أن يراد به: فثمّ رضا الله وثوابه والقربة إليه.
ويحتمل أن يراد بالوجه الجهة، وتكون الإضافة بمعنى الملك والخلق والإنشاء والإحداث؛ لأنه عزّ وجل قال: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ؛ أى أن الجهات كلّها لله تعالى وتحت ملكه؛ وهذا واضح بيّن بحمد الله.

*** [قصة سفرة للمكتفى بالله فى حرّاقة؛ مع جماعة من الأدباء:]

أخبرنى أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال حدّثني محمد بن يحيى الصولىّ قال: انحدرنا مع المكتفى بالله فى آخر سفرة سافرها للصيد من الموضع المعروف بحنّة إلى تكريت فى حرّاقة (1) فكانت تجنح كثيرا، فيشتد فزع من معه من الجلساء/ لذلك؛ وكنت أشدّهم فزعا، وكان فى الحرّاقة سواى من الجلساء يحيى بن عليّ المنجم، ومتوّج بن محمود بن مروان، والقاسم المعروف بابن حبابة، وكان يضحك لفزعنا ويقول: لقد قسم الله لكم حظّا من الشجاعة جزيلا، فقلت له: إن البحترىّ يقول شعرا يصف فيه مثل حالنا، ويمدح به أحمد بن دينار بن عبد الله- وقد غزا الروم فى مراكب- أوله:
ألم تر تغليس الرّبيع المبكّر ... وما حاك من وشى الرّياض المنشّر (2)

(1) الحراقة: اسم لسفينة؛ وأصل الحراقات: سفن كانت بالبصرة، فيها مرامى نيران يرمى بها العدو.
(2) ديوانه 2: 22 - 24.

فقال له: أنشدنى الموضع الّذي ذكر هذا فيه منها- وكان جيّد العلم بالأشعار، حافظا للأخبار- فأنشده:
غدوت على الميمون صبحا، وإنما ... غدا المركب الميمون تحت المظفّر (1)
إذا زمجر النّوتىّ فوق علاته ... رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر (2)
يغضّون دون الاشتيام عيونهم ... وفوق السّماط للعظيم المؤمّر (3)
إذا ما علت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب فى السماء مهجّر (4)
إذا ما انكفأ فى هبوة النّار خلته ... تلفّع فى أثناء برد محبّر (5)
وحولك ركّابون للهول عاقروا ... كئوس الرّدى؛ من دار عين وحسّر (6)
تميل المنايا حيث مالت أكفّهم ... إذا أصلتوا حدّ الحديد المذكّر
إذا أرشقوا بالنّار لم يك رشقهم ... ليقلع إلّا عن شواء مفتّر (7)

(1) قبله:
ولمّا تولى البحر والجود صنوه ... غدا البحر من أغلاقه بين أبحر
أضاف إلى التّدبير فضل شجاعة ... ولا عزم إلا للشجاع المدبّر
إذا شجروه بالرماح تكسّرت ... عواملها فى صدر ليث غضنفر
والميمون، يريد به السفنة؛ وفى حاشية الأصل: «هو اسم خراقة».
(2) حاشية الأصل: «العلاة: الموضع الّذي يركب فيه الملاح من السفينة».
(3) حاشية الأصل: «يقال وقفوا دونه سماطا؛ أى اصطفوا؛ وفى شعره: «وقوف السماط»؛ قال س: «وهو الصواب؛ وكذا قرأت على مشايخى. والاشتيام: رئيس المركب؛ كلمة نبطية».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «إذا عصفت فيه»؛ وهى رواية الديوان ومهجر؛ أى يحلق فى الهاجرة.

(5) فى حاشيتى الأصل، ف: «انكفأ الميمون؛ أى تمايل؛ وأراد بهوة النار ما كانوا يرمون به من النار إلى العدو من الحراقة التى اسمها ميمون، وشبه مواد الحراقة وحمرة النار وبياض الماء بلون البرد. وانكفأ، أصله الهمز فخفف؛ يقال: انكفأت المرأة وتكفأت؛ إذا تمايلت فى سيرها» وفى م: والديوان: «هبوة الماء» تصحيف.

(6) المعاقرة: الملازمة.

(7) الرشق: الرمى من جهة واحدة. والشواء المفتر: الّذي يصعد منه الفتار؛ والفتار عند العرب: ريح الشواء إذا ضهب على الجمر.

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... ضراب كإيقاد اللّظى المتسعّر
يسوقون أسطولا كأنّ سفينه ... سحائب صيف؛ من جهام وممطر (1)
كأنّ ضجيج البحر بين رماحهم ... إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر (2)
تقارب من زحفيهم فكأنّما ... تؤلّف من أعناق وحش منفّر
فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلى ... مقصّصة فيهم، وهام مطيّر (3)
على حين لا نقع تطوّحه الصّبا ... ولا أرض تلقى للصّريع المقطّر (4)
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... مليّا بأن توهى صفاة ابن قيصر
/ جدحت له الموت الذّعاف فعافه ... وطار على ألواح شطب مسمّر (5)
مضى وهو مولى الرّيح يشكر فضلها ... عليه، ومن يولى الصّنيعة يشكر

قال: فاستجاد المكتفى قوله:

* على حين لا نقع تطوّحه الصّبا*

[أبيات لابن الرومى وموازنتها بشعر غيره من الشعراء:]

فقال له يحيى بن على: أنشدنى ابن الرومى شعرا له فى هذا المعنى:

ولم أتعلّم قطّ من ذى سباحة ... سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب (6)
ولم لا؟ ولو ألقيت فيها وصخرة ... لوافيت منها القعر أوّل راسب
وأيسر إشفاقى من الماء أنّنى ... أمرّ به فى الكوز مرّ المجانب
وأخشى الرّدى منه على كلّ شارب ... فكيف بأمنيه على كلّ راكب!

---

(1) الأسطول: جماعات السفن. وفى حاشيتى الأصل، ف: «قال ش: ذكر لى أستاذى عند قراءة شعر البحترى عليه بأصبهان أن الأسطول لغة مصرية؛ وهى عندهم عبارة عن جماعة العسكر الذين يتوجهون إلى البحر بحوائجهم؛ فهم بمجموع مراكبهم وحراقاتهم وشباراتهم وتجارهم أسطول؛ ويشتكى أهل مصر فيقولون: ما جاءنا العام أسطول». وفى حاشية الأصل أيضا: «الشبارات: نوع من المراكب البحرية».

(2) العود: المسن من الإبل.
(3) الطلى: جمع طلية؛ وهى صفحة العنق؛ ومقصصة:
مقطعة. ورواية الديوان: «طلى مقطعة».
(4) يقال: طعنه فقطره؛ أى ألقاه على قطره، أى جانبه، فنقطر.
(5) جدحت: خلطت؛ والشطب فى الأصل: الفرس الطويل؛ وجعل المركب شطبا على التشبيه لما ركبه ونجا.
(6) ديوانه الورقة 23؛ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات.

فقلت له: إنما أخذ ابن الرومىّ بيته الثالث من قول أبى نواس؛ فقال المكتفى بالله:
فما قال؟ قلت: حدثنى علىّ بن سراج المصرىّ قال حدثنى أبو وائل اللخمىّ قال حدثنى إبراهيم بن الخصيب قال: وقف أبو نواس بمصر على النيل؛ فرأى رجلا قد أخذه التمساح فقال:
أضمرت للنّيل هجرانا ومقلية ... مذ قيل لى: إنّما التمساح فى النّيل
فمن رأى النّيل رأى العين من كثب ... فما أرى النّيل إلّا فى البواقيل
قال الصولىّ: والبواقيل سفن صغار.
ثم أجرى المكتفى بعد ذلك ذكر الشيب، فقال: العرب تقول أظلم من شيب، وقد شبت، وظلمنى المشيب؛ وشبت يا صولىّ، فقلت: جواب عبدك فى هذا جواب معن بن زائدة الشيبانىّ لجدّك المنصور وقد قال له: كبرت يا معن، فقال: فى طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: وإنّك لتتجلّد، قال: على أعدائك، قال: وفيك بحمد الله بقيّة، قال: لخدمتك.
فنزع المكتفى عمامته، فإذا شيبتان فى مقدّم رأسه، فقال: لقد غمّنى طلوع هاتين الشيبتين، فقلت له: إنما يعيش الناس فى الشيب؛ فأما السواد فلا يصحب الناس خالصا أكثر من أربعين سنة إلى الخمسين/، وقد يعاش فى البياض الّذي لا سواد فيه ثمانون سنة. وأنشده يحيى ابن علىّ فى معنى طول العمر مع المشيب قول امرئ القيس:
ألا إنّ بعد العدم للمرء قنوة ... وبعد المشيب طول عمر وملبسا (1)
وأنشدته أنا أيضا أبياتا أنشدها إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ لبعض القيسيين:
لم ينتقص منى المشيب قلامة ... الآن حين بدا ألبّ وأكيس
والشّيب إن يظهر فإنّ وراءه ... عمرا يكون خلاله متنفّس
قال سيدنا أدام الله تمكينه: أما قول البحترىّ: «مضى وهو مولى الريح» فقد كرر معناه فى قوله من قصيدة يمدح بها أبا سعيد الثّغريّ:

(1) ديوانه: 142؛ والقنوة: المال.

أشلى على منويل أطراف القنا ... فنجا عتيق عتيقة جرداء (1)
ولو أنّه أبطأ لهنّ هنيهة ... لصدرن عنه، وهنّ غير ظماء
فلئن تبقّاه القضاء لوقته ... فلقد عممت جنوده بفناء
وأظنه أخذ هذا المعنى من قول أبي تمام فى قصيدة يمدح بها المعتصم، ويذكر فتح الخرميّة (2).
لولا الظّلام وقلّة علقوا بها ... باتت رقابهم بغير قلال (3)
فليشكروا جنح الظّلام ودروزا ... فهم لدروز والظلام موالى (4)
وقد أخطأ الصولىّ فى تفسير بيت أبي نواس بأن البواقيل سفن صغار؛ لأن البواقيل جمع بوقال؛ وهو آلة على هيئة الكوز معروفة؛ تعمل من الزجاج وغيره؛ وهذا مثل قول ابن الرومىّ:
* أمرّ به فى الكوز مرّ المجانب*
وإنما أراد أنى لا أمرّ بماء النيل إلا إذا أردت شربه فى كوز أو بوقال.
وأظن الصولىّ استمر عليه الوهم من جهة قوله: «فما أرى النيل» وصرف ذلك إلى أنه أراد النيل على الحقيقة؛ وإنما أراد ماء النيل؛ وما علمت أن السفن الصغار يقال لها بواقيل إلا من قول الصولىّ، هذا ولو كان ما ذكره صحيحا من أنّ ذلك اسم لصغار السفن لكان بيت أبي نواس بما ذكرناه أشبه/ وأليق وأدخل فى معنى الشعر؛ وكيف تدخل الشّبهة فى ذلك مع قوله:

---

(1) ديوانه 1: 5؛ أشلى: أغرى. ومنويل: اسم قلعة والعتيقة هنا: الفرس.
(2) الخرمية: فرق تنسب إلى بابك الخرمى؛ خرج من كورة بفارس تدعى البذ، وأثار فتنة على الخليفة سنة 210؛ وامتدت زمن المأمون والمعتصم؛ إلى أن قتل بعد حوادث دامية فى أزمان متطاولة؛ على يد الأفشين قائد المعتصم سنة 223.
(3) ديوانه: 262.
(4) دروز: موضع فى ثغر أذربيجان؛ كذا ذكره ياقوت وأورد بيتى أبي تمام.

* فمن رأى النيل رأى العين من كثب*
ومن رأى النيل فى السفن فقد رآه من كثب، ومن رأى ماءه فى الآنية على بعد لا يكون رائيا له من كثب.

*** [طائفة من أقوال الشعراء فى مدح الشيب وتفضيله:]
فأما مدح الشيب وتفضيله على الشباب فقد قال فيه الناس فأكثروا؛ فمما تقدم من ذلك قول رؤبة بن العجّاج؛ ويقال إن رؤبة لم يقل من القصيدة إلا هذين البيتين:
أيّها الشّامت المعيّر بالشّي ... ب أقلّنّ بالشّباب افتخارا
قد لبست الشّباب غضّا جديدا ... فوجدت الشّباب ثوبا معارا

ولعلىّ بن جبلة:
جفا طرب الفتيان وهو طروب ... وأعقبه قرب الشّباب مشيب
تجافت عيون البيض عنه، وربّما ... مددن إليه الوصل وهو حبيب
لعمرى لنعم الصّاحب الشّيب واعظا ... وإن كان منه للعيون نكوب
خليط نهى، منتاب حلم؛ وإنّه ... على ذاك مكروه الخلاط مريب
ولآخر:
وتنكّرت شيبى فقلت لها: ... ليس المشيب بناقص عمرى
سيّان شيبى والشّباب إذا ... ما كنت من عمرى على قدر
ولآخر:
إن أكن قد رزئت أسود كالفح ... م وأعقبت مثل لون الثّغامة (1)
فلقد أسعف الكريم وأحبو ... أهله بالنّدى وآبى الظّلامه

---

(1) الثغامة: نبت أبيض يشبه به الشيب.

غير أنّ الشّباب كان رداء ... خاننا فيؤه كفئ الغمامة
ولآخر:
إنّ المشيب رداء الحلم والأدب ... كما الشّباب رداء اللهو واللّعب
تعجّبت إذ رأت شيبى فقلت لها: ... لا تعجبى، من يطل عمر به يشب (1)
ولابن الجهم:
حسرت عنّى القناع ظلوم ... وتولّت ودمعها مسجوم (2)
/ أنكرت ما رأت برأسى فقالت: ... أمشيب أم لؤلؤ منظوم!
قلت: شيب وليس عيبا، فأنّت ... أنّة يستثيرها المهموم
شدّ ما أنكرت تصرّم عهد ... لم يدم لى، وأىّ شيء يدوم!
ولأبى هفّان:
تعجّبت درّ من شيبى فقلت لها: ... لا تعجبى فطلوع الشّيب فى السّدف (3)
وزادها عجبا لما رأت سملى ... وما درت درّ أنّ الدّر فى الصّدف (4)
وقد أحسن أبو تمام غاية الإحسان فى قوله:
أبدت أسى أن رأتنى (5) مخلس القصب (6) ... وآل ما كان من عجب إلى عجب (7)

---

(1) د، ف، حاشية الأصل من نسخة: «تعجبت أن رأت شيبى».
(2) ديوانه: 176 – 177؛ وظلوم: اسم امرأة.
(3) حماسة ابن الشجرى: 245؛ والسدف: الظلمات.

(4) السمل، محركة: الثوب الخلق البالى، ومن نسخة بحاشية الأصل: «أن رحت فى سمل»؛ وهى رواية الحماسة.
(5) ديوانه: 15، والشهاب 10، وفى حاشية الأصل (من نسخة): «إذ رأتنى»، وهى رواية الشهاب والديوان.
(6) يقال: أخلس النبت؛ إذا جف أعلاه وابيض، وفى حاشية الأصل: «القصب: الذوائب المقصبة؛ الواحدة قصبة وتجمع قصائب، يقال: قصب، فيسكن». وبخط الشجرى: «القصب»، بضم ففتح.
(7) حاشية الأصل: «أى كانت تعجب بى فصارت تعجب من شيبى». وفى الشهاب: «أما قوله: «من عجب إلى عجب» فمن البلاغة الحسنة والاختصار السديد البارع».

(1/599)

ستّ وعشرون تدعونى فأتبعها ... إلى المشيب ولم تظلم ولم تحب (1)
فلا يؤرّقك إيماض القتير به ... فإنّ ذاك ابتسام الرّأى والأدب (2)
وللبحترىّ:
عيّرتني بالشيب وهى رمته ... فى عذارى بالصّدّ والاجتناب (3)
لا تريه عارا فما هو بالشّي ... ب ولكنّه جلاء الشّباب (4)
وبياض البازىّ أصدق حسنا ... إن تأمّلت من سواد الغراب
وله:
ها هو الشّيب لائما فأفيقى ... واتركيه إن كان غير مفيق (5)
فلقد كفّ من عناء المعنّى (6) ... وتلافى من اشتياق المشوق

---

(1) لم تحب: لم تأثم؛ والحوب: الإثم، وبعده فى الديوان:
يومى من الدهر مثل الدّهر مشتهر ... عزما وحزما وساعى منه كالحقب
فأصغرى أنّ شيبا لاح بى حدثا ... وأكبرى أننى فى المهد لم أشب.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «فلا يغرنك». والقتير: الشيب، أو أوله. وفى الشهاب للمرتضى: «وقوله:
* فإن ذاك ابتسام الرأى والأدب*
يريد أن الرأى والأدب والحلم إنما يجتمع ويتكامل فى أوان الكبر والشيب دون زمان الشباب، وقد تصف الشعراء أبدا الشيب بأنه تبسم فى الشعر لبياضه؛ إلا أن هذه من أبى تمام تسلية عن الشيب وتنبيه على منفعته».
(3) ديوانه 1: 7، والشهاب: 25. وفى حاشية الأصل:
* عيّرتنى المشيب وهى بدته*
وهى رواية الديوان؛ وبدته، مخفف من بدأته بالهمز. وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة): «جنته».

(4) لا تريه: لا تظنه. وفى حاشية الأصل: «جعل سواد الشباب وسخا وصدأ على الشخص والشيب جلاء له».
(5) ديوانه 2: 125، والشهاب: 25، وحماسة ابن الشجرى: 243 – 244، وفى حاشيتى الأصل، ف: «يقول: أيتها العاذلة، أفبقي من عذله وملامته، فقد أقبل الشيب يلومه وبعذله، ولا حاجة إلى عذلك وإن لم يفق فاتركيه».
(6) د، والحماسة والشهاب. «عن عناء المعنى».

عذلتنا فى عشقها أمّ عمرو ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق (1)
ورأت لمّة ألمّ بها الشّ ... يب فريعت من ظلمة فى شروق
ولعمرى لولا الأقاحى لأبصر ... ت أنيق الرّياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يكمّل ... ببياض ما كان بالموموق (2)
/ ومزاج الصّهباء بالماء أملى (3) ... بصبوح مستحسن وغبوق
أىّ ليل يبهى بغير نجوم ... أو سماء تندى بغير بروق!
ويشبه أن يكون أخذ قوله:
* أىّ ليل يبهى بغير نجوم*
من قول الشاعر:
أشيب ولم أقض الشّباب حقوقه ... ولم يمض من عهد الشّباب قديم (4)
رأت وضحا فى مفرق الرّأس راعها ... وشتّان مبيضّ به وبهيم
تفاريق شيب فى الشّباب لوامع ... وما حسن ليل ليس فيه نجوم!
ولمحمود الوراق فى مثل هذا المعنى وهو قوله:
ما الدّرّ منظوما بأحسن من ... شيب يجلّل هامة الكهل
وكأنّه فيها النّجوم إذا ... جدّ المسير بها على مهل
لا تبكينّ على الشّباب إذا ... يبكى الجهول عليه للجهل
واشكر لشيبك حسن صحبته ... فلقد كساك جلالة الفضل

---

(1) حاشية الأصل: «إنما عذلته لأنه شاخ والعشق مع الشيخوخة لا يستحسن».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «بالمرموق»؛ .
(3) فى حاشيتى الأصل: «أملى، مخفف من أملأ؛ أى أوثق؛ يقال: ملؤ فلان بذلك؛ إذا كان ثقة به، وفلان أملأ بكذا من فلان».
(4) البيت الأول والثالث فى حماسة ابن الشجرى: 244، من غير نسبة.

ولآخر فى مدح الشيب:
لا يرعك المشيب يا ابنة عبد ال ... لّه فالشّيب حلية ووقار (1)
إنما تحسن الرّياض إذا ما ... ضحكت فى خلالها الأنوار
ولي فى هذا المعنى من قصيدة:
جزعت لو خطات المشيب وإنما ... بلغ الشّباب مدى الكمال فنوّرا
والشّيب إن فكّرت فيه مورد ... لا بدّ يورده الفتى إن عمّرا
يبيضّ بعد سواده الشّعر الّذي ... إن لم يزره الشّيب واراه الثّرى
وممن عدل بين الشيب والشباب، ومدح كل واحد منهما طريح بن إسماعيل الثقفى فقال:
والشّيب للحكماء من سفه الصّبا ... بدل يكون الّذي الفضيلة مقنع
/ والشّيب غاية من تأخّر حينه ... لا يستطيع دفاعه من يجزع
إنّ الشّباب له لذاذة جدّة ... والشّيب منه فى المغبّة أنفع
لا يبعد الله الشّباب فمرحبا ... بالشيب حين أوى إليه المرجع
ومثله لآخر:
وكان الشباب الغضّ لى فيه لذّة ... فوقّرنى عنه المشيب وأدّبا
فسقيا ورعيا للشباب الّذي مضى ... وأهلا وسهلا بالمشيب ومرحبا

---

(1) حماسة ابن الشجرى: ونسبهما إلى على بن الجهم.

[46] مجلس آخر [المجلس السادس والأربعون:]
تأويل آية [: وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ؛ [البقرة: 186]
فقال: كيف ضمن الإجابة وتكفّل بها، وقد نرى من يدعو فلا يجاب؟ .
الجواب، قلنا فى ذلك وجوه.
أوّلها أن يكون المراد بقوله تعالى: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ أى أسمع دعوته؛ ولهذا يقال للرجل: دعوت من لا يجيب أى دعوت من لا يسمع. وقد يكون أيضا يسمع بمعنى يجيب؛ كما كان يجيب بمعنى يسمع؛ يقال: سمع الله لمن حمده؛ يراد به: أجاب الله من حمده وأنشد ابن الأعرابىّ:
دعوت الله حتى خفت ألّا ... يكون الله يسمع ما أقول
أراد يجيب ما أقول.
وثانيها أنّه تعالى لم يرد بقوله: قَرِيبٌ من قرب المسافة؛ بل أراد أننى قريب بإجابتى ومعونتى ونعمتى، أو بعلمى بما يأتى العبد ويذر، وما يسرّ ويجهر، تشبيها بقرب المسافة؛ لأن من قرب من غيره عرف

أحواله ولم تخف عليه؛ ويكون قوله: أُجِيبُ على هذا تأكيدا للقرب؛ فكأنه أراد: إننى قريب قربا شديدا، وإننى بحيث لا يخفى عليّ أحوال العباد؛ كما يقول القائل إذا وصف نفسه بالقرب من صاحبه والعلم بحاله: أنا بحيث أسمع كلامك، وأجيب نداءك، وما جرى هذا المجرى. وقد روى أن قوما سألوا الرسول صلى الله عليه وآله فقالوا/ له: أربّنا قريب فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

(1/603)

وثالثها أن يكون معنى هذه الآية أننى أجيب دعوة الداعى إذا دعانى على الوجه الصحيح، وبالشرط الّذي يجب أن يقارن الدعاء؛ وهو أن يدعو باشتراط المصلحة؛ ولا يطلب وقوع ما يدعو به على كل حال؛ ومن دعا بهذا الشرط فهو مجاب على كل حال؛ لأنه إن كان صلاحا فعل ما دعا به؛ وإن لم يكن صلاحا لم يفعل لفقد شرط دعائه، فهو أيضا مجاب إلى دعائه.
ورابعها أن يكون معنى دَعانِ أى عبدنى، وتكون الإجابة هى الثواب والجزاء على ذلك؛ فكأنه قال: إننى أثيب العباد على دعائهم لى؛ وهذا مما لا اختصاص فيه.
وخامسها ما قاله قوم من أنّ معنى الآية أنّ العبد إذا سأل الله تعالى شيئا فى إعطائه صلاح فعله به وأجابه إليه، وإن لم يكن فى إعطائه إياه فى الدنيا صلاح وخيرة لم يعطه ذلك فى الدنيا، وأعطاه إياه فى الآخرة، فهو مجيب لدعائه على كل حال.
وسادسها أنّه إذا دعاه العبد لم يخل من أحد أمرين: إمّا أن يجاب دعاؤه، وإمّا أن يخار له بصرفه عما سأل ودعا، فحسن اختيار الله له يقوم مقام الإجابة، فكأنه يجاب على كل حال.
وهذا الجواب يضعّف لأنّ العبد ربما سأل ما فيه صلاح ومنفعة له فى الدنيا، وإن كان فيه فساد فى الدين لغيره فلا يعطى ذلك، لأمر يرجع إليه، لكن لما فيه [من فساد غيره، فكيف يكون مجابا مع المنع الّذي] (1) لا يرجع إليه منه شيء من الصلاح! اللهم إلّا أن يقال: إنه دعا؛ مشروط بأن يكون صلاحا، ولا يكون فسادا، وهذا مما تقدم.
ومعنى قوله تعالى فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، أى فليجيبونى وليصدّقوا رسلى، قال الشاعر:
وداع دعا يا من يجيب إلى النّدى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب (2)

---

(1) ساقط من الأصل، وتكملته من د، ف.
(2) مطلع قصيدة كعب بن سعد الغنوى؛ وهى فى أمالى القالى 2: 148 – 151.

(1/604)

أى لم يجبه.

*** [طائفة من أقوال الشعراء فى ذم الشيب والتألم به:]

قال سيدنا أدام الله علوّه: وإذ كنا قد ذكرنا فى المجالس المتقدمة لهذا المجلس طرفا من الشعر فى تفضيل الشيب

وتقديمه، والتعزّى عنه، والتسلّى عن نزوله؛ فنحن متبعوه بطرف مما قيل فى ذمّه والتألم به والجزع منه.

فمن ذلك قول أبى حيّة النميرىّ:

/ ترحّل بالشّباب الشّيب عنّا ... فليت الشّيب كان به الرّحيل (1)

وقد كان الشباب لنا خليلا ... فقد قضى مآربه الخليل

لعمر أبى الشباب لقد تولّى ... حميدا ما يراد به بديل (2)

إذ الأيام مقبلة علينا ... وظلّ أراكة الدّنيا ظليل

وقال الفرزدق:

أرى الدّهر، أيام المشيب أمره ... علينا، وأيام الشباب أطايبه (3)

وفى الشيب لذّات وقرّة أعين ... ومن قبله عيش تعلّل جاد به (4)

إذا نازل الشّيب الشباب فأصلتا ... بسيفيهما، فالشّيب لا بدّ غالبه

فيا خير مهزوم، ويا شرّ هازم ... إذا الشّيب وافت للشّباب كتائبه

وليس شباب بعد شيب براجع ... مدى الدّهر حتى يرجع الدّرّ حالبه

وما المرء منفوعا بتجريب واعظ ... إذا لم تعظه نفسه وتجاربه

وأنشد إسحاق الموصلىّ:

---

(1) حماسة ابن الشجرى: 239، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات.

(2) الحماسة: «لا يراد به بديل».

(3) ديوانه: 1: 52.

(4) فى حاشيتى الأصل، ف. جاد به: عائبه، أى لم يجد عيبا فتعلل وجها يتمحل به باطلا ومنه قول ذى الرمة:

فيا لك من خد أسيل، ومنطق ... رخيم، ومن خلق تعلل جاد به.

لعمرى لئن حلّئت عن منهل الصّبا ... لقد كنت ورّادا لمشربه العذب (1)

ليالى أمشى بين بردىّ لاهيا ... أميس كغصن البانة النّاعم الرّطب

سلام على سير القلاص مع الرّكب ... ووصل الغوانى والمدامة والشّرب

سلام امرئ لم تبق منه بقيّة ... سوى منظر العينين أو شهوة القلب (2)

ولمنصور النّمرىّ:

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع ... إذا ذكرت شبابا ليس يرتجع (3)

بان الشباب ففاتتنى بشرّته ... صروف دهر وأيام لها خدع

ما كنت أو فى شبابى كنه عزّته ... حتّى مضى فإذا الدّنيا له تبع (4)
ولمحمد بن أبى حازم:
عهد الشباب، لقد أبقيت لى حزنا ... ما جدّ ذكرك إلّا جدّ لى ثكل (5)
سقيا ورعيا لأيّام الشّباب وإن ... لم يبق منك له رسم ولا طلل
جرّ الزّمان ذيولا فى مفارقه ... وللزّمان على إحسانه علل (6)
وربّما جرّ أذيال الصّبا مرحا ... وبين برديه غصن ناعم خضل
لا تكذبنّ فما الدّنيا بأجمعها ... من الشباب بيوم واحد بدل
كفاك بالشّيب عيبا عند غانية ... وبالشّباب شفيعا أيها الرّجل

---

(1) حلئت: طردت ومنعت.
(2)؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «نظر العينين».
(3) حماسة ابن الشجرى: 239.
(4) حاشية الأصل (من نسخة):
ما كدت أوفى شبابى كنه شرّته ... حتى مضى فإذا الدّنيا لها تبع.
(5) من أبيات فى الأغانى 12: 152 – 153 مجموعها ثلاثة عشرة بيتا؛ وأبيات منها فى الورقة: 110، وحماسة ابن الشجرى: 239.
(6) فى حاشيتى الأصل، ف: «أى للزمان علل على تركه الإحسان؛ ويجوز أن يكون المعنى: له مع إحسانه علل».

ولأبى نواس:
كان الشباب مطيّة الجهل ... ومحسّن الضّحكات والهزل (1)
كان الجميل إذا ارتديت به (2) ... ومشيت أخطر صيّت النّعل
كان البليغ إذا نطقت به ... وأصاخت الآذان للمملى
كان المشفّع فى مآربه ... عند الحسان ومدرك النّبل
والباغي والناس قد هجعوا ... حتّى أبيت خليفة البعل
والآمرى حتّى إذا عزمت ... نفسى أعان عليّ بالفعل
فالآن صرت إلى مقاربة ... وحططت عن ظهر الصّبا رحلى
قال سيدنا رضى الله عنه: وعلى هذا الكلام طلاوة ومسحة من أعرابية ليستا لغيره.
ولبشار:
الشّيب كره، وكره أن يفارقنى ... أعجب بشيء على البغضاء مودود (3)
يمضى الشّباب ويأتى بعده خلف ... والشّيب يذهب مفقودا بمفقود
وهذا البيت الأخير يروى لمسلم بن الوليد الأنصارى.

ومما أحسن فيه مسلم فى هذا المعنى قوله:
طرفت عيون الغانيات وربما ... أملن إلى الطّرف كلّ مميل (4)
/ وما الشّيب إلا شعرة، غير أنّه (5) ... قليل قذاة العين غير قليل

(1) ديوانه: 311.
(2) ديوانه: «كان الجمال».
(3) البيتان فى حماسة ابن الشجرى: 245، ونسبهما إلى مسلم.
(4) البيتان فى حماسة ابن الشجرى: 242، ونسبهما لابن الرومى؛ وفى حاشيتى الأصل، ف: «يقال: فلان مطروف العين بفلان؛ أى يحبه. والمعنى أنه وقع فى عينه، يقال: طرفت عينه بشوكة وبحاشية ثوب؛ وأصله من طرفته إذا أصبت طرفه، ورأسته إذا أصبت رأسه».
(5) الحماسة:
* وما شبت إلّا شيبة غير أنّه*.

وله:
أهلا بوافدة للشّيب واحدة ... وإن تراءت بشخص غير مودود
لا أجمع الحلم والصّهباء قد سكنت ... نفسى إلى الماء عن ماء العناقيد
لم ينهنى كبر عنها ولا فند ... لكن صحوت وغصنى غير مخضود
أوفى بى الحلم وافتاد النّهى طلقا ... شأوى وعفت الصّبا من غير تفنيد (1)
وقد أحسن دعبل فى قوله يصف الشباب والشيب:
كان كحلا لمآقيها فقد ... صار بالشّيب لعينيها قذى
ولغيره:
رأت طالعا للشيب أغفلت أمره ... فلم تتعاهده أكفّ الخواضب (2)
فقالت: أشيب ما أرى؟ قلت: شامة ... فقالت: لقد شانتك بين الحبائب (3)
ولمحمود الورّاق- ويروى لمحمد بن حازم (4):
أليس عجيبا بأنّ الفتى ... يصاب ببعض الّذي فى يديه
فمن بين باك له موجع ... وبين معزّ مغذّ إليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب ... فليس يعزّيه خلق عليه (5)
ولأبى دلف:
فى كلّ يوم أرى بيضاء طالعة ... كأنّما طلعت فى أسود البصر
لئن قصصتك بالمقراض عن بصرى ... لما قصصتك عن همّى وعن فكرى

(1) حاشية الأصل: «يقال عدا طلقا وشأوا إذا عدا عدوا شديدا إلى غاية».

(2) حاشية الأصل (من نسخة): «تتعهده».
(3) حاشية الأصل (من نسخة) «شامتك».
(4) فى الأصل: «محمد بن أبى حازم»، وصوابه من ف.
(5) حاشية الأصل: «يقول: عجبت من الناس يعزى بعضهم بعضا على فوت المال، ولا يعزون على فوت الشباب».

وليحيى بن خالد بن برمك (1) – ويروى لغيره:
اللّيل شيّب والنهار كلاهما ... رأسى بكثرة ما تدور رحاهما
يتناهبان نفوسنا ودماءنا ... ولحومنا عمدا ونحن نراهما
والشّيب إحدى الميتتين تقدّمت ... أولاهما وتأخّرت أخراهما
/ وقد أتى الفحلان المبرّزان أبو تمام وأبو عبادة فى هذا المعنى بكل غريب عجيب.
فمن ذلك قول أبى تمام:
غدا الهمّ مختطا بفودىّ خطّة ... طريق الرّدى منها إلى الموت مهيع (2)
هو الزّور يجفى، والمعاشر يجتوى ... وذو الإلف يقلى، والجديد يرقّع
له منظر فى العين أبيض ناصع ... ولكنّه فى القلب أسود أسفع
ونحن نرجّيه على الكره والرّضا ... وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع (3)
وله:
شعلة فى المفارق استودعتنى ... فى صميم الفؤاد ثكلا صميما (4)
تستثير الهموم ما اكتنّ منها ... صعدا وهى تستثير الهموما
غرّة (5) مرّة ألا إنما كن ... ت أغرّا أيّام كنت بهيما

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «البرمكي».
(2) ديوانه: 190، والشهاب: 6؛ وحماسة ابن الشجرى: 241 – 242. وفى م قبل هذا البيت:
لئن جزع الوحشىّ منها لرؤيتى ... لإنسيّها من شيب رأسى أجزع
وفى حماسة ابن الشجرى: «غدا الشيب»، وفى م: «غدا العمر». وفى حاشية الأصل (من نسخة): «إلى النفس مهيع»، وهى رواية الديوان؛ ومهيع: واسع.
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «يجدع».
(4) ديوانه: 291، وحماسة ابن الشجرى: 241، والشهاب: 7.
(5) حاشية الأصل (من نسخة): «عرة» أى عيب.

دقّة فى الحياة تدعى جلالا ... مثل ما سمّى اللّديغ سليما (1)
حلّمتنى- زعمتم- وأرانى ... قبل هذا التّحليم كنت حليما
وله:
لعب الشّيب بالمفارق بل جدّ ... فأبكى تماضرا ولعوبا (2)
خضبت خدّها إلى لؤلؤ العق ... د دما أن رأت شواتى خضيبا
كلّ داء يرجى الدّواء له إ ... لا الفظيعين: ميتة ومشيبا
يا نسيب الثّغام ذنبك أبقى ... حسناتى عند الحسان ذنوبا
ولئن عبن ما رأين لقد أن ... كرن مستنكرا وعبن معيبا
أو تصدّعن عن قلى لكفى بال ... شيب بينى وبينهنّ حسيبا
لو رأى الله أنّ فى الشّيب فضلا ... جاورته الأبرار فى الخلد شيبا
قال سيدنا أدام الله علوّه: وجدت الآمدىّ يذكر أن قوما ادّعوا المناقضة على أبى تمام فى هذه الأبيات بقوله:
لعب الشّيب بالمفارق بل جدّ ... فأبكى تماضرا ولعوبا*
وقوله:
خضبت خدّها إلى لؤلؤ العق ... د دما أن رأت شواتى خضيبا
يا نسيب الثّغام ذنبك أبقى ... حسناتى عند الحسان ذنوبا
/ وقوله:
ولئن عبن ما رأين لقد أن ... كرن مستنكرا وعبن معيبا

---

(1) حاشية الأصل: «مثل، بنى لإضافته إلى «ما»، ويجوز أن يكون صفة لمحذوف، أى تدعى جلالا دعوة مثل تسمية اللديغ سليما».
(2) ديوانه: 25، 26، والشهاب: 9.

قالوا: كيف يبكين دما على شيبه ثم يعبنه!
قال الآمدىّ: وليس هذا بتناقض؛ لأن الشيب إنما أبكى تماضر ولعوب أسفا على شبابه، والحسان اللواتى عبنه غير هاتين المرأتين، فيكون من أشفق عليه من الشيب منهن وأسف على شبابه بكى؛ كما قال الأخطل:
لمّا رأت بدل الشباب بكت له ... إنّ المشيب لأرذل الأبدال (1)
ولم يكن هذه حال من عابه. قال: وهذا مستقيم صحيح.
قال سيدنا أدام الله علوّه: وليس يحتاج فى الاعتذار لأبى تمام إلى ما تكلفه الآمدىّ؛ بل المناقضة زائلة عنه على كل حال، وإن كان من قد بكى شبابه، وتلهف عليه من النساء هنّ اللواتى أنكرن شيبه، وعبنه به، وما المنكر من ذلك!

وكيف يتناقض أن يبكى على شبابه ونزول شيبه منهن من رأين الشيب ذنبا وعيبا منكرا! وفى هذا غاية المطابقة؛ لأنه لا يبكى الشيب، ويجزع من حلوله وفراق الشباب إلّا من رآه منكرا ومعيبا.
وقال أبو تمام:
راحت غوانى الحىّ عنك غوانيا ... يلبسن نأيا تارة وصدودا (2)
من كلّ سابغة الشباب إذا بدت ... تركت عميد القريتين عميدا
أربن بالمرد الغطارف بدّنا ... غيدا ألفهم لدانا غيدا
أحلى الرّجال من النّساء مواقعا ... من كان أشبههم بهنّ خدودا
وقوله: «أربن بالمرد» من أربّ بالشيء إذا لزمه، وأقام عليه، يقال: أربّ وألبّ بالمكان إذا لزمه: يريد أنهن لزمن هوى المرد وأقمن عليهم. ورواه قوم «أربين بالمرد» من الرّبا الّذي معناه الزيادة، يقال: قد أربى الرجل إذا ازداد؛ فيقول: أربين بالمرد، أى زدن علينا بهم، وجعلن للمرد زيادة اخترنها علينا (3).

---

(1) ديوانه 158.
(2) ديوانه: 87 – 88.
(3) انظر الشهاب: 10.

ويقال (1): إنه أخذ قوله:
* أحلى الرجال من النساء مواقعا* ... البيت
من قول الأعشى:
وأرى الغوانى لا يواصلن امرأ ... فقد الشّباب وقد يصلن الأمردا (2)
/ ولمنصور النّمرىّ مثله:
كرهن من الشّيب الّذي لو رأينه ... بهنّ رأين الطّرف عنهنّ أزورا
ونحوه قول الآخر:
أرى شيب الرّجال من الغوانى ... كوقع مشيبهنّ من الرّجال
وقال أبو تمام:
شاب رأسى وما رأيت مشيب ال ... رّأس إلّا من فضل شيب الفؤاد (3)
وكذاك القلوب فى كلّ بؤس ... ونعيم طلائع الأجساد
طال إنكارى البياض وإن عمّ ... رت شيبا أنكرت لون السّواد (4)
زادنى شخصه بطلعة ضيم ... عمّرت مجلسى من العوّاد
نال رأسى من ثغرة الهمّ لمّا ... لم ينله من ثغرة الميلاد (5)
ومعنى هذا البيت الأخير أن «الثغر» هى الفرجة والثّلمة تكون فى الشيء؛ ولذلك سمّى كل بلد جاور عدوا ثغرا؛ كأن معناه مكشوف للعدو. ويجوز أن يكون أصله من ثغر الإنسان، لأنه أول ما يقابلك من أسنانه، وأول ما يظهر عند الكلام، وأول ما يسقط فيرى مثلوما، فيشبّه الثّغر الّذي هو البلد؛

يقال اثّغر الصبىّ واثّغر؛ وتسمى تلك الفرجة فى موضع

(1) الموازنة: 30.
(2) ديوانه: 151؛ والرواية: «وأرى الغوانى».
(3) ديوانه: 75.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «ولو عمرت شيئا» أى تعميرا، وهى رواية الديوان.
(5) حاشية الأصل: يروى: «من ثغرة الهم ما لم* تشتمله».

السن ثغرة وفى كل موضع منفرج؛ ومنه ثغرة النّحر.
وأراد بقوله:
* نال رأسى من ثغرة الهم لمّا*
أى وجد الشيب من الهم فرجة دخل على رأسى منها؛ لأن الهمّ يشيب لا محالة.
وقوله:
* ما لم ينله من ثغرة الميلاد*
أراد بثغرة الميلاد الوقت الّذي يهجم عليه فيه الشّيب من عمره؛ لأنه يجد السبيل فى ذلك الوقت إلى الحلول برأسه؛ فجعله ثغرة من هذا الوجه؛ فأراد أن الشيب حلّ برأسه من جهة همومه وأحزانه لمّا لم يبلغ السن التى توجب حلوله به من حيث كبره.
ورأيت الآمدىّ يطعن على قوله:
* عمرت مجلسى من العوّاد*
ويقول: لا حقيقة لذلك ولا معنى، لأنا ما رأينا ولا سمعنا أحدا/ جاءه عواد يعودونه من المشيب؛ ولا أن أحدا أمرضه الشّيب، ولا عزّاه المعزون عن الشباب؛ وهذا من الآمدىّ قلة نقد للشّعر وضعف بصيرة بدقيق معانيه التى يغوص عليها حذاق الشعراء؛ ولم يرد أبو تمام بقوله:
* عمرت مجلسى من العوّاد*
العيادة الحقيقية التى يغشى فيها العوّاد مجالس المرضى وذوى الأوجاع، وإنما هذه استعارة وتشبيه وإشارة إلى الغرض خفيّة؛ فكأنه أراد أنّ شخص الشيب لما زارني كثر المتوجعون لى، والمتأسفون على شبابى، والمتوحشون (1) من مفارقته؛ فكأنهم فى مجلسى عوّاد لى، لأن من شأن العائد للمريض أن يتوجّع ويتفجع.

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «والمتفجعون».

وكنى بقوله:
* عمرت مجلسى من العوّاد*
عن كثرة من تفجع له وتوجّع من مشيبه؛ وهذا من أبى تمام كلام فى نهاية البلاغة والحسن؛ وما المعيب إلا من عابه وطعن عليه؛ ونحن نذكر فى المجلس الآتى بمشيئة الله ما للبحترىّ فى هذا المعنى إن شاء الله.

[47] مجلس آخر [المجلس السابع والأربعون:]
تأويل آية [: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ...]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ؛ [النحل: 10].
فقال: إذا كان الشجر ليس ببعض للماء كما كان الشراب بعضا له؛ فكيف جاز أن يقول: وَمِنْهُ شَجَرٌ بعد قوله: مِنْهُ شَرابٌ؟ وما معنى تُسِيمُونَ؟ وهل الفائدة فى هذه اللفظة هى الفائدة فى قوله: وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ؛ [آل عمران: 14]، وقوله: وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ [هود: 82، 83]؟ .
الجواب، قلنا فى قوله تعالى: وَمِنْهُ شَجَرٌ وجهان:
أحدهما أن يكون المراد منه سقى شجر، وشرب شجر؛ فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه؛ وذلك كثير
فى لغة العرب، ومثله قوله تعالى: وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ [البقرة: 93]، أى حبّ العجل.
والوجه الآخر أن يكون المراد: ومن جهة الماء شجر، ومن سقيه وإنباته شجر؛ فخذف الأول وخلفه الثانى؛ كما قال عوف بن الخرع:
أمن آل ليلى عرفت الدّيارا ... بجنب الشّقيق خلاء قفارا (1)
أراد: من ناحية آل ليلى.

(1) المفضليات 412 (طبعة المعارف)، والرواية هناك:
أمن آل ميّ عرفت الدّيارا ... بحيث الشقيق خلاء قفارا
والشقيق: ماء لبنى أسيد بن عمرو بن تميم.

وقال زهير:

/ أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلّم ... بحومانة الدّرّاج فالمتثلّم (1)

أراد: من ناحية أم أوفى.

وقال أبو ذؤيب:

أمنك البرق أرقبه فهاجا ... فبتّ إخاله دهما خلاجا (2)

وقال أيضا:

أمنك برق أبيت اللّيل أرقبه ... كأنّه فى عراض الشّام مصباح (3)

وقال الجعدىّ:

لمن الدّيار عفون بالتّهطال ... بقيت على حجج خلون طوال

أراد بقيت على مرّ حجج، وتكرار حجج.

فأما قوله تعالى: فِيهِ تُسِيمُونَ فمعناه ترعون، وترسلون أنعامكم؛ يقال: أسام الإبل يسيمنا أسامة؛ إذا أرعاها وأطلقها فرعت منصرفة حيث شاءت؛ وسوّمها أيضا يسوّمها من ذلك؛ وسامت هى إذا رعت؛ فهى تسوم، وهى إبل سائمة؛ ويقال: سمتها إذا قصرتها على مرعى بعينه؛ وسمتها الخسف؛ إذا تركتها على غير مرعى؛ ومنه قيل لمن أذلّ واهتضم:

سيم فلان الخسف؛ وسيم خطّة الضّيم؛ قال الكميت بن زيد فى الإسامة التى هى الإطلاق فى الرّعى (4):

---

(1) أول المعلقة، ديوانه: 4. الدمنة آثار الناس وما سودوا من الرماد وغيره. ولم تبين: لم تكلم.

وحومانة الدراج والمتثلم: موضعان.

(2) ديوان الهذليين 1: 164؛ وفى حاشيتى الأصل، ف: «شبه السحاب بإبل سود، وصوت الرعد بحنينها؛ ولم يذكر السحاب إلا أن البرق دل عليه، وخلاج: جمع خلوج؛ وهى الناقة التى خلج ولدها؛ وهو فعول فى معنى مفعول، كالركوب والحلوب».

(3) ديوان الهذليين 1: 47، واللسان (عرض)؛ وعراض الشام نواحيه؛ الواحد عرض.

(4) حاشية الأصل (من نسخة): «المرعى».

راعيا كان مسجحا ففقدنا ... ه وفقد المسيم هلك السّوام (1)

وقال آخر:

وأسكن ما سكنت ببطن واد ... وأظعن إن ظعنت فلا أسيم (2)

وذهب قوم إلى أنّ السّوم فى البيع من هذا؛ لأن كل واحد من المتبايعين يذهب فيما يبيعه من زيادة ثمن أو نقصانه إلى ما يهواه، كما تذهب سوائم المواشى حيث شاءت.

وقد جاء فى الحديث: «لا سوم قبل طلوع الشّمس» فحمله قوم على أن الإبل وغيرها لا تسام قبل طلوع الشّمس؛ لئلا تنتشر وتفوت الراعى ويخفى عليه مقاصدها.

وحمله آخرون على أنّ السوم قبل طلوع الشّمس فى البيوع مكروه، لأن السّلعة المبيعة تستتر عيوبها أو بعضها، فيدخل ذلك/ فى بيوع الغرر المنهىّ عنها.
فأما الخيل المسوّمة، فقد قيل: إنها المعلمة بعلامات؛ مأخوذ من السّيماء وهى العلامة.
وروى عن الحسن البصرىّ فى قوله تعالى: وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ قال: سوّم نواصيها وأذنابها بالصوف.
وقيل أيضا: إن المسوّمة هى الحسان.
وروى عن مجاهد فى قوله تعالى: وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ قال: هى المطهّمة الحسان.
وقال آخرون: بل هى الراعية؛ روى ذلك عن سعيد بن جبير؛ وكلّ يرجع إلى أصل واحد، وهو معنى العلامة، لأن تحسين الخيل يجرى مجرى العلامة فيها؛ التى تعرف بها وتتميز لمكانها؛ وقد قيل: إن السّوم من الرّعى يرجع إلى هذا المعنى أيضا، لأن الراعى يجعل فى المواضع التى يرعاها علامات أو كالعلامات بما يزيله من نباتها، ويمحوه من آثارها؛ فكأن الأصل فى الكلّ متفق غير مختلف.

---

(1) مسجحا: رفيقا سهلا، وفى م: «مسيما».
(2) د، ونسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ما ظعنت».

وقال لبيد فى التسويم الّذي هو التعليم:
وغداة قاع القرنتين أتينهم ... رهوا يلوح خلالها التسويم (1)
أراد التعليم.
وأما قوله فى الملائكة: مُسَوِّمِينَ؛ فالمراد به المعلمين، وكذلك قوله تعالى: حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً أى معلمة؛ وقيل: إنه كان عليها كأمثال الخواتيم.

*** [طائفة من أشعار البحترىّ فى ذم الشيب والتألم من فقد الشباب]
قال سيدنا أدام الله علوّه: ونعود إلى ما كنا وعدنا به من ذكر ما للبحترىّ فى ذمّ الشيب والتألم من فقد الشباب؛ فمن ذلك قوله (2):
وكنت أرجّى فى الشّباب شفاعة ... فكيف لباغى حاجة بشفيعه (3)
مشيب كنثّ السّرّ عىّ بحمله ... محدّثه، أو ضاق صدر مذيعه (4)
تلاحق حتّى كاد يأتى بطيئه ... لحثّ اللّيالى قبل أتى سريعه
وما أحسن هذا من كلام! وأبلغه وأطبعه (5)!

---

(1) ديوانه: 1: 104 وفى حاشية الأصل: «بعد هذا البيت:
بكتائب رجح تعوّد كبشها ... نطح الكباش كأنهنّ نجوم
والقرنتان: موضع، ورها فى السير رهوا أى رفق، قال القطامىّ:
يمشين رهوا، فلا الأعجاز خاذلة ... ولا الصّدور على الأعجاز تتّكل.

(2) ديوانه 2: 90، والشهاب: 13، وفى حاشيتى الأصل، ف: «يقول: كنت أرجى أن يكون الشباب شفيعى. ويجوز أن يكون المعنى: كنت أرجى فى شبابى شفاعة إلى الحسان من طراوتى وحسنى».
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «يعنى أنه جد محتاج إلى الشفيع؛ ولكنه ولى وذهب».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «كبث السر». وفيهما أيضا: «أى أنه كان كالسر تبرم به صاحبه فأفشاه».
(5) ذكر المرتضى فى الشهاب تعليقا على هذه الأبيات: «وهذا والله أبلغ كلام وأحسنه وأحلاه وأسلمه وأجمعه لحسن اللفظ وجودة المعنى؛ وما أحسن ما شبه تكاثر الشيب وتلاحقه بيت السر عن ضيق صدر صاحبه وإعيائه بجمله وعجزه عن طيه! ويشبه بعض الشبه قوله:
* تلاحق حتى كاد يأتى بطيئه*
–

وقال أيضا:
ردّى علىّ الصّبا إن كنت فاعلة ... إنّ الصّبا ليس من شأنى ولا أربى (1)
جاوزت حدّ الشّباب النّضر ملتفتا ... إلى بنات الصّبا يركضن فى طلبى (2)
/ والشّيب مهرب من جارى منيّته ... ولا نجاء له من ذلك الهرب
والمرء لو كانت الشّعرى له وطنا ... صبّت عليه صروف الدّهر من كثب (3)
وقال أيضا:
لابس من شبيبة أم ناض ... ومليح من شيبة أم راضى (4)
وإذا ما امتعضت من ولع الشّ ... يب برأسى لم يثن ذاك امتعاضى (5)
ليس يرضى عن الزّمان مروّ ... فيه إلّا عن غفلة أو تغاض (6)
والبواقى من اللّيالى وإن خا ... لفن شيئا فمشبهات المواضى (7)
ناكرت لمّتى وناكرت منها ... سوء هذى الأبدال والأعواض

– قولى من أبيات:
سبق احتراسى من أذاه بطيئه ... حتى تجلّلنى، فكيف عجوله!
وفى البيت لمحة بعيدة من بيت البحترى وليس بنظير له على التحقيق؛ ومعنى البيت الّذي يخصنى أدخل فى الصحة والتحقيق؛ لأننى خبرت بأن بطيء الشيب سبق وغلب احتراسى وحذرى؛ فكيف عجوله! ومن سبقه البطيء كيف لا يسبقه السريع! والبحترى قال: إن البطيء كاد أن يسبق السريع؛ وهذا على ظاهره لا يصح؛ لأنه يجعل البطيء هو السريع؛ بل أسرع منه؛ لكن المعنى: أنه متداول متواتر فيكاد البطيء له يسبق السريع؛ وهذا فى غاية الملاحة».
(1) ديوانه 1: 29، 30، والشهاب: 14.

(2) حاشية الأصل: «فى نسخة س:
قرأت فى شعره على شيخى: إلى بنات الردى».
(3) د، ف، حاشية الأصل (من نسخة):
«من صبب» أى حدور؛ وهو الموضع الّذي ينحدر فيه». وفى م: «ويروى: حطت عليه صروف الدهر من كثب».
(4) ناض: خالع، ومليح: مشفق؛ يخاطب نفسه فيقول: ألابس أنت برد الشباب أم خالعه؟ .
(5) فى م: «لم يغن ذاك» وفى الديوان: «لم يعد».
(6) مروّ: مفكر.
(7) د؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «مشبهات»؛ وفى حاشية الأصل: «ويروى: شبيه بالمواضى وهو أحسن. قال س: فمشبهات، لا بأس به، والّذي حسن الفاء طول الكلام وإن الشرطية فيه».

شعرات أقصّهنّ ويرجع ... ن رجوع السّهام فى الأغراض (1)
وأبت تركى الغديّات والآ ... صال حتّى خضبت بالمقراض (2)
غير نفع إلّا التّعلّل من شخ ... ص عدوّ لم يعده إبغاضى
ورواء المشيب كالبخص فى عي ... نى فقل فيه فى العيون المراض (3)
طبت نفسا عن الشّباب وما سوّ ... د من صبغ برده الفضفاض
فهل الحادثات يا ابن عويف ... تاركاتى ولبس هذا البياض!
وقال أيضا:
تعيب الغانيات عليّ شيبى ... ومن لى أن أمتّع بالمعيب! (4)
ووجدى بالشّباب وإن تولّى ... حميدا دون وجدى بالمشيب
وقال أيضا:
أرأيته من بعد جثل فاحم ... جون المفارق بالنّهار خضيبا (5)
فعجبت من حالين خالف فيهما ... صرف الزّمان وما رأيت عجيبا

---

(1) حاشية الأصل: «من شأن الغرض أن تنزع السهام منه ثم تعود إليه فى الحال».
(2) قال المرتضى فى الشهاب تعليقا على هذا البيت والّذي قبله: «قوله: خضبت بالمقراض فى غاية الملاحة والرشاقة. ومعنى قوله: رجوع السهام فى الأغراض أنه لا يملك ردا لطلوع الشيب فى شعره ولا تلافيا لحلوله، فيجرى فى ذلك مجرى رجوع السهام إلى الغرض فى أنه لا
يملك مرسل السهم صده عنه ولا رده عن إصابته. ويمكن فى ذلك وجه آخر؛ وإن كان الأول أشف؛ وهو أن يريد بالأغراض المقاتل والمواضع الشريفة من الأعضاء؛ فكأنه يشبه رجوع الشيب بعد قصه له وطلوعه فى شدة إيلامه وإيجاعه بإصابة السهام للمقاتل والفرائص.
ويحتمل وجها آخر؛ وهو أن السهام تنزع من الأغراض، ثم ترجع بالرمى إليها أبدا، فأشبهت فى ذلك

الشيب فى قصه ثم طلوعه ورجوعه إلى موضعه».
(3) حاشية الأصل: الرؤاء يهمز ولا يهمز؛ فإذا لم يهمز كان من الرى وإذا همز كان من الرؤية».
والبخص: لحم ناتئ فوق العينين أو تحتهما كهيئة النفخة. وفى حاشية الأصل أيضا: «مثله لابن الرومى:
إذا شئت عين الفتى عيب نفسه ... فعين سواه بالشناءة أجدر.
(4) ديوانه: 2: 84.
(5) ديوانه: 1: 75. الجثل من الشعر: الكثير. والجون هنا: الأسود؛ وهو من الأضداد، يطلق على الأسود والأبيض. وفى حاشية الأصل: «جعل النهار خضابا لأنه شيء قد شاع وتمرن عليه».

/ إنّ الزّمان إذا تتابع خطوه ... سبق الطّلوب وأدرك المطلوبا
وقال أيضا:
رأت فلتات الشّيب فابتسمت لها ... وقالت: نجوم لو طلعن بأسعد (1)
أعاتك ما كان الشّباب مقرّبى ... إليك، فألحى الشّيب إذ كان مبعدى
وقال أيضا:
عنت كبدى قسوة منك ما إن ... تزال تجدّد فيها ندوبا (2)
وحمّلت عندك (3) ذنب المشي ... ب حتى كأنى ابتدعت المشيبا
ومن يطّلع شرف الأربعين ... يحى من الشّيب شخصا (4) غريبا
قال المرتضى رضى الله عنه: ولي فى هذا المعنى:
قلن لمّا رأين وخطا من الشّي ... ب برأسى أعيا على مجهودى
كسنا بارق تعرّض وهنا ... فى حواشى بعض اللّيالى السّود
أبياض مجدّد من سواد ... كان قدما! لا مرحبا بالجديد
يا لحاكنّ من رماكنّ بالحس ... ن لتقهرننا بغير جنود
ليس بيضى منى فأجزى عليه ... نّ صدودا أو ليس فيكنّ سودى
قلّ ما ضرّ كنّ من شعرات ... كنّ يوما على الوقار شهودى
وقال البحتري أيضا:
خلّياه وجدّة اللهو مادا ... م رداء الشّباب غضّا جديدا

---

(1) الشهاب: 17.
(2) ديوانه 1: 51، والشهاب: 18 عنت: قصدت والندوب: آثار الجراحات. وفى حاشية الأصل: «نسخة ج: ما تزال هو حسن؛ لتكون عروض البيت محذوفة؛ والقصيدة بأسرها محذوفة العروض إلا البيت المصرع فى أولها؛ وإذا روعيت: «ما إن تزال» فالعروض سالمة، فعولن».
(3) حاشية الأصل: «س: روى «حملت عبدك»؛ كأنه تصحيف، ولكنه حسن».

(4) فى حاشيتى الأصل، ف: «يروى: زورا».
(1) ديوانه 1: 182، الشهاب: 19.

إنّ أيّامه من البيض بيض ... ما رأين المفارق السّود سودا
وقال أيضا:
ترك السّواد للابسيه وبيّضا ... ونضا من السّتين عنه ما نضا (1)
وشآه أغيد فى تصرّف لحظه ... مرض أعلّ به القلوب وأمرضا (2)
وكأنّه وجد الصّبا وجديده ... دينا دنا ميقاته أن يقتضي
أسيان أثرى من جوى وصبابة ... وأساف من وصل الحسان وأنفضا (3)
وقال أيضا:
هل أنت صارف شيبة إن غلّست ... فى الوقت أو عجلت عن الميعاد (4)
جاءت مقدّمة أمام طوالع ... هذى تراوحنى وتلك تغادى
وأخو الغبينة تاجر فى لمّة ... يشرى جديد بياضها بسواد (5)
لا تكذبنّ فما الصبا بمخلّف ... لهوا ولا زمن الصّبا بمعاد

---

(1) ديوانه 2: 70، الشهاب: 19. وفى حاشية الأصل: «أى خلع إتيان الستين عليه المسرة والنشاط».
(2) شآه: غلبه، وفى م: «سباه».
(3) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «أسوان»، وهو الحزين، وأساف الرجل: ذهب ماله، وكذلك أنفض، والمراد هنا أنه ذهب من يده وصل
الحسان وميلهن إليه.
(4) ديوانه 1: 144، الشهاب 20 – 21.
(5) قال المرتضى فى الشهاب تعليقا على هذا البيت: ووجدت الآمدي قد نزل فى معنى قوله:
* يشرى جديد بياضها بسواد*
لأنه قال: معنى يشرى يبيع؛ وأراد: أن الغبين من باع جديد بياضه بالسواد، وأراد بالسواد الخضاب؛ فكأنه ذم الخضاب. والأمر بخلاف ما ذكره، وما جرى للخضاب ذكر، ولاها هنا موضع للكناية عنه؛ ومعنى: «يشرى» هاهنا يبتاع؛ لأن قولهم: شريت يستعمل فى البائع والمبتاع جميعا؛ وهذا من الأضداد، نص أهل اللغة على هذا فى كتبهم؛ فكأنه شهد بالغبن لمن يبتاع الشيب بالشباب ويتعوض عنه به؛ وإنما ذهب على الآمدي أن لفظة «يشرى» تقع على الأمرين المضادين؛ فتمحل ذكر الخضاب الّذي لا معنى له هاهنا».

وأرى الشّباب على غضارة حسنه ... وكماله عددا من الأعداد (1)
/ وقال أيضا:
أيثنّى الشّباب أم ما تولّى ... منه فى الدّهر دولة ما تعود (2)
لا أرى العيش والمفارق بيض ... أسوة العيش والمفارق سود
وأعدّ الشّقىّ جدّا ولو أ ع ... طى غنما حتى يقال سعيد
من عدته العيون وانصرفت عن ... ه التفاتا إلى سواه الخدود
وقال أيضا:
قدك منى فما جرى السّقم إلّا ... فى ضلوع على جوى الحبّ تحنى (3)
لو رأت حادث الخضاب لأنّت ... وأرنّت من احمرار اليرنّا (4)
كلف البيض بالمعمّر قدرا ... حين يكلفن والمصغّر سنّا (5)
يتشاغفن بالغرير المسمّى ... من تصاب دون الجليل المكنّى (6)

---

(1) قال المرتضى فى الشهاب أيضا: «وقال الآمدي فى قوله: عددا من الأعداد» أنه أراد: عددا قليلا؛ وقد أصاب فى ذلك؛ إلا أنه ما ذكر ساعده ووجهه؛ والعرب تقول فى الشيء القليل إنه معدود؛ إذا أرادوا الإخبار عن قلته؛ قال الله تعالى: وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وقال جل اسمه فى موضع آخر: وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ وأظنهم ذهبوا فى وصف القليل بأنه معدود من حيث كان العد والحصر لا يقع إلا على القليل والكثير؛ ولكثرته لا ينضبط ولا ينحصر».
(2) ديوانه 1: 208، الشهاب: 18؛ وبرده: جمع برد؛ وهو كساء مربع مخطط.
(3) ديوانه 2: 290، الشهاب: 19.
(4) اليرنا، بضم الياء وفتحها، مقصورة مشددة النون، واليرناء، بالضم والمد: الحناء؛ ويرنأ صبغ به، كحناء؛ وهو من غريب الأفعال.
(5) فى حاشية الأصل ف: الكلف: المحبة؛ وهذا كما قال أبو الشيص:
شيئان لا تصبو النساء إليهما ... حلل المشيب وحلة الإنفاض.
(6) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «الكبير».

وقال أيضا:
أخىّ إنّ الصّبا استمرّ به ... سير الليالى فأنهجت برده (1)
تصدّعنى الحسان مبعدة ... إذ أنا لا قربه ولا صدده
شيب على المفرقين بارضه ... يكثرنى أن أبينه هدده (2)
تطلب منى الشّباب ظالمة ... بعيد خمسين حين لا تجده
لا عجب إن مللت خلّتنا ... فافتقد الوصل منك مفتقده

من يتطاول على مطاولة ال ... عيش تقعقع من ملّة عمده

قال سيدنا أدام الله تمكينه: ورأيت الآمدىّ قد أخطأ فى معنى البيت الأخير، لأنه قال: معنى «تقعقع من ملّة عمده» أى عظامه، يجيء لها صوت إذا قام وقعد من كبره وضعفه قال: وقوله: «من ملّة» أى من تملّى العيش؛ يريد طوله ودوامه؛ ومنه تملّيت حبيبك والأمر بخلاف ما توهمه، ومعنى «تقعقع من ملّة عمده» أنّ من تطاول عمره تعجّل ترحّله وانتقاله عن الدنيا؛ وكنى عن ذلك/ بتقعقع العمد؛ وهذا مثل معروف للعرب، يقولون: «من يتجمّع يتقعقع عمده»؛ يريدون أنّ التجمّع داعى التفرق؛ وأنّ الاجتماع يعقب ويورث ما يدعو إلى الانتقال الّذي يتقعقع معه العمد.

والآمدىّ على كثرة ما يدعيه من التنقيب والتنقير على علوم العرب إن كان لم يعرف هذا المثل ومعناه فهو طريف، وإن كان قد سمعه وجهل أنّ معنى بيت البحترىّ يطابقه فهو أطرف.

فأما قوله: «من ملّة» فإنما أراد به من ملل؛ وملّة «فعلة» من الملل، وكيف يكون

---

(1) ديوانه: 1: 145، الشهاب: 20.

(2) حاشية الأصل: «البارض: النبت أول ما يبدو من البهمى، وهو شوك. أبينه: أزيله. يكثرنى: يغلبنى بالكثرة».

من تملّى العيش، ولم يسمع فى تملّيت «ملّة»! وهذا خطأ على خطأ (1).

وقال البحترىّ:

ما كان شوقى ببدع يوم ذاك ولا ... دمعى بأوّل دمع فى الهوى سفحا (2)

وملّة كنت مشغوفا بجدّتها ... فما عفا الشّيب لى عنها ولا صفحا

وقال أيضا:

وما أنس لا أنس عهد الشّباب ... وعلوة إذ عيّرتنى الكبر (3)

كواكب شيب علقن الصّبا ... فقلّلن من حسنه ما كثر

وإنى وجدت ولا تكذبنّ ... سواد الهوى فى بياض الشّعر

ولا بدّ من ترك إحدى اثنت ... ين إمّا الشّباب وإما العمر

قال الآمدي: وعليه فى قوله:

ولا بدّ من ترك إحدى اثنت ... ين إمّا الشّباب وإما العمر

معارضة، وهو أن يقال له: إنّ من مات شابا فقد فارق الشباب وفاته العمر أيضا، فهو تارك لهما معا، ومن شاب فارق الشباب، وهو مفارق للعمر لا محالة؛ فهو أيضا تارك لهما جميعا.

---

(1) وعاد المرتضى فبسط هذا النقد مرة ثانية فى كتابه الشهاب فقال: وقد نبهنا فى كتاب الغرر على هفوة الآمدي فى قول البحترىّ: «تقعقع من ملّة عمده»؛ لأنه ظن أن معناه أن عظام الكبير المسن يجيء لها صوت إذا قام وقعد، وتسمع لها قعقعة؛ وما سمعنا بهذا الّذي ظنه فى وصف ذوى

الأسنان والكبر؛ والمعنى أظهر من أن يخفى على أحد؛ لأنه أراد: من عمر وأسن وطاول العيش تعجل رحيله وانتقاله عن الدنيا؛ وكنى عن ذلك بتقعقع العمد؛ لأن ذوى الأطناب والخيام إذا انتقلوا من محل إلى غيره وقوضوا عمد خيامهم، وسارت بها الإبل سمعت لها قعقعة، ومن أمثال العرب المعروفة: «من يتجمع يتقعقع عمده»، يريدون أن التجمع يعقب التفرق والرحيل الّذي تتقعقع معه العمد.
ومعنى قوله: «من ملة» يريد من السأم والملال دون ما ظنه الآمدي من أنه تملى العيش.
(2) ديوانه 1: 114.
(3) ديوانه 1: 219.

(1/625)

وقوله: «إما وإمّا» لا نوجب إلا إحداهما قال: والعذر للبحترىّ أن يقال: إنّ من مات شابا فقد فارق الشباب
وحده لأنّه لم يعمّر، فيكون مفارقا للعمر ألا ترى أنهم يقولون:
عمّر فلان إذا أسنّ، وفلان لم يعمّر إذا مات شابا، ومن شاب وعمّر ثم مات لم يكن مفارقا للشباب فى حال موته؛ لأنه قد قطع أيام الشباب، وتقدمت مفارقته له، وإنما يكون فى حال موته مفارقا للعمر وحده، فإلى هذا ذهب البحترىّ، وهو صحيح/ ولم يرد بالعمر المدّة القصيرة التى يعمّرها الإنسان، وإنما أراد بالعمر هاهنا الكبر، كما قال زهير:
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته، ومن تخطئ يعمّر فيهرم (1)
قال رضى الله عنه: وما رأيت أشدّ تهافتا فى الخطأ منه فيما يفسّره ويتكلم عليه من شعر هذين الرجلين! ومعنى البيت غير ما توهّمه؛ وهو أظهر من أن يخفى؛ حتى يحتاج فيه إلى هذا التّغلغل والتعسّف؛ وإنما أراد البحترىّ أن الإنسان بين حالين: إما أن يفارق الشباب بالشّيب، أو العمر بالموت؛ فمن مات شابا- وإن كان قد خرج من العمر، وخرج بخروجه عن سائر أحوال الحياة من شباب وشيب وغيرهما- فإنه لم يفارق الشباب وحده؛ وإنما فارق العمر الّذي فارق بمفارقته الشباب وغيره. وقسمة الرجل تناولت أحد الأمرين: إمّا مفارقة الشباب وحده بلا واسطة- ولن يكون ذلك إلّا بالشّيب- أو مفارقة العمر بالموت. وتلخيص كلامه: أنه لا بدّ للحي من شيب أو موت، فكأن الشيب والموت متعاقبان؛ والبحترىّ إنما جعل قوله: «العمر» مقام الحياة والبقاء، وإنما قال: «العمر» لأجل القافية؛ مع أنه منبئ عن مراده؛ ولو أنّه قال: ولا بدّ من ترك الحياة أو ترك الشباب لقام مقام قوله: «العمر».
*** أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى علىّ بن محمد الكاتب قال حدثنا أحمد بن عبيد الله قال: من معانى ابن الرومىّ التى فتقها قوله يذمّ من جعل مصيبة غيره منسية له مصيبته، وعاب

---

(1) من المعلقة، ديوانه: 29؛ خبط عشواء؛ أى تسير على غير قصد؛ يقال: عشا يعشو عشا إذا أصابه العشا؛ وهو السير على غير بصر.

من تعلّل بالتأسّى بما نال غيره، وهو يرثى شبابه، وأحسن:

يا شبابى وأين منّى شبابى! ... آذنتنى أيّامه بانقضاب (1)
لهف نفسى على نعيمى ولهوى! ... تحت أفنانه اللّدان الرّطاب
ومعزّ عن الشباب مؤسّ ... بمشيب اللّدات والأصحاب
قلت لمّا انتحى يعدّ أساه (2) ... من مصاب شبابه كمصاب
ليس تأسو كلوم غيرى كلومى ... ما به ما به، وما بي ما بي

ولابن الرومىّ:

/ لهفى على الدّنيا وهل لهفة ... تنصف منها إن تلهّفتها! (3)
قبحا لها قبحا على أنها ... أقبح شيء حين كشّفتها
وقد يعزّينى شباب مضى ... ومدّة للعيش أسلفتها
فكّرت فى خمسين عاما مضت ... كانت أمامى ثم خلّفتها
أجهلتها إذ هى موفورة ... ثم مضت عنّى فعرّفتها
ففرحة الموهوب أعدمتها ... وترحة المسلوب ألحفتها
لو أنّ عمرى مائة هدّنى ... تذكّرى أنّى تنصّفتها

وله فى هذا المعنى، وقد تقدمت هذه الأبيات فى الأمالى السالفة، وقد أحسن فى معناها كلّ الإحسان:

كفى بسراج الشّيب فى الرأس هاديا ... إلى من أضلّته المنايا لياليا (4)
أمن بعد إبداء المشيب مقاتلى ... لرامى المنايا تحسبينى ناجيا!
غدا الدّهر يرمينى فتدنو سهامه ... لشخصى أخلق أن يصبن سواديا
وكان كرامى اللّيل يرمى ولا يرى ... فلمّا أضاء الشّيب شخصى رمانيا

---

(1) ديوانه، الورقة 42.
(2) أساة: جمع أسوة؛ وهو القدوة.
(3) ديوانه، الورقة 44.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «لمن قد أضلته».

[48] مجلس آخر [المجلس الثامن والأربعون:]

تأويل آية [: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ؛

[آل عمران: 128].
فقال: كيف جاءت أَوْ بعد ما لا يجوز أن يعطف عليه؟ وما الناصب لقوله تعالى:
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وليس فى الكلام ما يقتضي نصبه؟
الجواب، قلنا: قد ذكر فى ذلك وجوه:
أوّلها أن يكون قوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ معطوفا على قوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً والمعنى أنه تعالى عجّل لكم هذا النصر، ومنحكم به ليقطع طرفا من الذين كفروا، أى قطعة منهم، وطائفة من جمعهم أو يكبتهم؛ أى يغلبهم ويهزمهم بكم فيخيّب سعيهم، ويكذّب فيكم ظنونهم، أو يعظهم ما يرون من تظاهر آيات الله تعالى، الموجبة لتصديق/ نبيه صلى الله عليه وآله، فيتوبوا ويؤمنوا، فيقبل الله تعالى ذلك منهم، ويتوب عليهم، أو يكفروا بعد قيام الحجج، وتأكيد البينات والدلائل، فيموتوا أو يقتلوا كافرين؛ فيعذبهم الله باستحقاقهم فى النار؛ ويكون على هذا الجواب قوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ معطوفا على قوله تعالى: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ؛ أى ليس لك ولا لغيرك من هذا النصر شيء؛ وإنما هو من الله تعالى.
والجواب الثانى أن يكون أَوْ بمعنى «حتى»، أو «إلّا أنّ»؛ والتقدير: ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب عليهم؛ أو إلا أن يتوب عليهم، كما قال امرؤ القيس:

بكى صاحبى لمّا رأى الدّرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا (1)
فقلت له: لا تبك عينك إنّما ... نحاول ملكا، أو نموت فنعذرا
أراد: إلّا أن نموت
وهذا الجواب يضعّف من طريق المعنى؛ لأن لقائل أن يقول: إنّ أمر الخلق ليس إلى أحد سوى الله تعالى قبل توبة العباد وعقابهم بعد ذلك؛ فكيف يصحّ أن يقول: ليس لك من الأمر شيء إلّا أن يتوب عليهم أو يعذبهم؛ حتى كأنه إذا كان أحد الأمرين كان إليه من الأمر شيء!
ويمكن أن ينصر ذلك بأن يقال: قد يصحّ الكلام إذا حمل على المعنى؛ وذلك أن قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ معناه: ليس يقع ما تريده وتؤثره من إيمانهم وتوبتهم، أو ما تريده من استئصالهم وعذابهم، على اختلاف الرواية فى معنى الآية وسبب نزولها؛ إلّا بأن يلطف الله لهم فى التوبة فيتوب عليهم أو يعذبهم؛ وتقدير الكلام: ليس ما تريده من توبتهم أو عذابهم بك، وإنما يكون ذلك بالله تعالى.
والجواب الثالث أن يكون المعنى: ليس لك من الأمر شيء أو من أن يتوب الله عليهم؛ فأضمر «من» اكتفاء بالأولى، وأضمر «أن» بعدها لدلالة الكلام عليها واقتضائه لها، وهى مع الفعل الّذي بعدها بمنزلة المصدر؛ وتقدير الكلام: ليس لك من الأمر شيء ومن توبتهم وعذابهم.
ووجدت أبا بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ يطعن على هذا الجواب ويستبعده، قال: لأنّ الفعل لا يكون محمولا على إعراب الاسم الجامد، الّذي لا تصرّف له على إضمار «أن» مع الفعل/ لأنه ليس من كلام العرب: «عجبت من أخيك ويقوم»، على معنى: «عجبت من أخيك ومن

(1) ديوانه: 100. الدرب: باب السّكّة الواسع؛ وهو هنا كل مدخل إلى الروم فهو درب؛ وصاحبه عمرو بن قميئة الشاعر؛ وكان رفيق امرئ القيس فى رحلته.

أن يقوم»، لأن أخاك اسم جامد محض، لا يعطف عليه إلّا ما شاكله. وقال: وهذا إذا يستقيم ويصلح فى ردّ الفعل على المصدر، كقولهم: «كرهت غضبك وأن يغضب أبوك»؛ على معنى: «كرهت غضبك وأن يغضب أبوك»، فيطرد هذا فى المصادر، لأنها تتأوّل ب «أن» فيقول النحويون: «يعجبنى قيامك»، وتأويله: «يعجبنى أن تقوم»، قال: والاسم الجامد لا يمكن مثل هذا فيه.
وليس الّذي ذكره ابن الأنبارىّ مستبعدا، وإن لم يضعف هذا الجواب إلّا من حيث ذكر فليس بضعيف؛ وذلك أن فيما امتنع منه مثل الّذي أجازه؛ لأنه قد أجاز ذلك فى المصادر، وإن لم يجزه فى غيرها.
وقوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فيه دلالة الفعل، لأنّ «الأمر» مصدر أمرت أمرا؛ فكأنه تعالى قال: ليس لك من أن آمرهم أو تأمرهم شيء، ولا من أن يتوبوا، وجرى ذلك مجرى قولهم: «كرهت غضبك ويغضب أبوك»، فى رد الفعل على المصدر؛ والوجه الأول أقوى الوجوه؛ والله أعلم بمراده.

تأويل خبر [«لا تناجشوا ولا تدابروا ... :]
إن سأل سائل عن الخبر الّذي يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:
«لا تناجشوا ولا تدابروا، كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه».
الجواب، قيل له: أما النّجش فهو المدح والإطراء، قال نابغة بنى شيبان يذكر الخمر:
وترخّى بال من يشربها ... ويفدّى كرمها عند النّجش (1)
أى عند مدحها، ومنه النّجش فى البيع؛ وهو مدح السلعة والزيادة فى ثمنها من غير إرادة لشرائها؛ بل ليقتدى بالزائد فى زيادته غيره؛ وأصل النجش استخراج الشيء والتنقير عنه، قال بعض الفقعسيين:

(1) ديوانه: 86.

أجرس لها يا ابن أبى كباش (1) ... فما لها الليلة من إنفاش (2)
غير السّرى وسائق نجّاش ... أسمر مثل الحيّة الخشخاش
والنّجاش: هو المستثير لسيرها، والمستخرج لما عندها منه، ومعنى: أجرس لها، أى أحد لها لتسمع/ الحداء فتسير، وهو مأخوذ من الجرس وهو الصوت؛ ومعنى:

الإنفاش، أراد أنها لا تترك ترعى ليلا، والنفش أن ترعى الإبل ليلا، وقد أنفشتها إذا أرسلتها بالليل ترعى.
والخشخاش: الخفيف الحركة السريع التقلّب.
والنجش فى البيوع يرجع معناه إلى هذا أيضا؛ لأن الناجش يستثير بزيادته فى الثمن، ومدحه السلعة الزيادة فى ثمنها؛ فيكون معنى الخبر على هذا: لا تناجشوا، أى لا يمدح أحدكم السلعة فيزيد فى ثمنها، وهو لا يريد شراءها ليسمعه غيره فيزيده.
وقد يجوز أيضا أن يريد بذلك: لا يمدح أحدكم صاحبه من غير استحقاق ليستدعى منفعته، ويستثير فائدته؛ وهذا المعنى أشبه بأن يكون مراده عليه السلام، لأن قوله: «ولا تدابروا» أشدّ مطابقة له.
ومعنى: «لا تدابروا» أى لا تهاجروا ويولّى كلّ واحد صاحبه دبر وجهه، قال الشاعر:
وأوصى أبو قيس بأن تتواصلوا ... وأوصى أبوكم، ويحكم! أن تدابروا (3)
فكأنه قال عليه السلام: لا تتمادحوا وتتواصلوا بالمدح الّذي ليس بمستحق، ولا تهاجروا وتتقاطعوا.

---

(1) اللسان (جرس)؛ وفى حاشية الأصل: «صوت الجرس؛ وروى ابن السكيت: «أجرش»، وأنكروا عليه: أجرشت الشيء إذا لم تنعم دقه».
(2) حاشية الأصل: «نفشت الإبل: تفرقت فى المرعى، وأنفشتها أنا، أى ليس لها الليلة استراحة».
(3) اللسان (دبر)، من غير نسبة.

[ذكر ما ورد فى اللغة من معانى «العرض»:]
فأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه»، فقد ذهب قوم إلى أنّ عرض الرجل إنما هو سلفه من آبائه وأمهاته؛ ومن جرى مجراهم.
وذهب ابن قتيبة إلى أن عرض الرجل نفسه، واحتج بحديث النبي صلى الله عليه وآله حين ذكر أهل الجنة فقال: «لا يبولون ولا يتغوّطون؛ إنما هو عرق يجرى من أعراضهم مثل المسك»؛ أى من أبدانهم؛ قال: ومنه قول أبى الدرداء: «أقرض من عرضك ليوم فقرك» أراد من شتمك فلا تشتمه، ومن ذكرك بسوء فلا تذكره به، ودع ذلك قرضا عليه ليوم الجزاء والقصاص.
واحتج أيضا بحديث الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم! كان إذا خرج من منزله قال: اللهمّ إنى قد تصدّقت بعرضى على عبادك»؛ قال: فمعناه قد تصدّقت بنفسى وأحللت من يغتابنى، فلو كان العرض الأسلاف ما جاز أن يحلّ من سبّ الموتى؛ لأن ذلك إليهم لا إليه.
قال: ويدلّ على ذلك أيضا حديث سفيان بن عيينة: «لو أن رجلا أصاب/ من عرض رجل شتما ثم تورّع من بعد؛ فجاء إلى ورثته بعد موته فأحلّوه له، لم يكن ذلك كفارة له، ولو أصاب من ماله شيئا ثم دفعه إلى ورثته؛ لكنّا نرى أن ذلك كفارة له».
قال: ويدلّ على أن عرض الرجل نفسه قول حسان:

هجوت محمّدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء (1)
فإنّ أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمّد منكم وقاء

(1) ديوانه: 9؛ يخاطب أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ويهجوه؛ وقبله:
ألا أبلغ أبا سفيان عنّى ... فأنت مجوّف نخب هواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء
والأبيات فى الاقتضاب: 300؛ ونقل عن محمد بن الحسن بن دريد بسنده: أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته التى أولها:
عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء.

أراد: فإنّ أبى وجدّى ونفسى وقاء لنفس محمد، صلى الله عليه وآله.
وقال آخرون- وهو الصحيح: العرض موضع المدح والذّم من الإنسان، فإذا قيل: ذكر عرض فلان، فمعناه ذكر ما يرتفع به أو ما يسقط بذكره، ويمدح أو يذم به، وقد يدخل فى ذلك ذكر الرجل نفسه، وذكر آبائه وأسلافه؛ لأن كل ذلك مما يمدح به ويذم؛ والّذي يدل على هذا أن أهل اللغة لا يفرّقون فى قولهم: «شتم فلان عرض فلان» بين أن
يكون ذكره فى نفسه بقبيح الأفعال، أو شتم سلفه وآباءه؛ ويدلّ عليه قول مسكين الدارمىّ:
ربّ مهزول سمين عرضه ... وسمين الجسم مهزول الحسب (1)
فلو كان العرض نفس الإنسان لكان الكلام متناقضا؛ لأن السّمن والهزال يرجعان إلى شيء واحد؛ وإنما أراد: ربّ مهزول كريمة أفعاله، أو كريم آباؤه وأسلافه؛ وقد قال ابن عبدل الأسدىّ (2):

حتى انتهى إلى قوله:
هجوت محمدا وأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جزاؤك على الله الجنة يا حسان؛ فلما انتهى إلى قوله:
فإنّ أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء
قال رسول الله صلى الله عليه: وقاك الله يا حسان النار؛ فلما قال:
أتهجوه ولست له بندّ ... فشرّ كما لخير كما الفداء
فقال من حضر: هذا أنصف بيت قالته العرب.
(1) بعده:
كسبته الورق البيض أبا ... ولقد كان وما يدعى لأب
وانظر الأغانى 18: 70، وأمالى القالى 1: 118، واللآلى: 352.
(2) من مقطوعة فى أمالى القالى 2: 261، عدد أبياتها أربعة عشر بيتا؛ ومنها فى حماسة أبى تمام- بشرح المرزوقى 1163 - 1164 ستة أبيات؛ وذكر القالى من خبر هذه الأبيات أنه اجتمع الشعراء

بباب الحجاج؛ وفيهم الحكم بن عبدل الأسديّ فقالوا: أصلح الله الأمير! إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه، قال: ما يقول هؤلاء يا ابن عبدل؟ قال: اسمع أيها الأمير، قال: هات، فأنشده الأبيات؛ حتى انتهى إلى قوله:
ولست بذى وجهين فيمن عرفته ... ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى.

وإنّى لاستغنى فما أبطر الغنى، ... وأبذل ميسورى لمن يبتغى قرضى (1)
وأعسر أحيانا فتشتدّ عسرتى ... وأدرك ميسور الغنى ومعى عرضى
ولا يليق ذلك إلا بما ذكرناه.
قال سيدنا أدام الله تأييده: وجدت أبا بكر بن الأنبارىّ قد ردّ على ابن قتيبة قوله هذا وطعن على ما احتج به، فقال فى
الحديث المروىّ عنه عليه السلام فى وصف أهل الجنة: إن المراد بالأعراض مغابن (2) الجسد.
وحكى عن الأمويّ أنه قال: الأعراض المغابن التى تعرق من الجسد؛ نحو الإبطين وغيرهما، وقال فى
حديث أبى الدرداء: معناه: من عابك/، وذكر أسلافك، فلا تجازه؛ ليكون الله تعالى هو المثيب لك.
وقال فى قول أبى ضمضم: معناه أنه أحلّ من أوصل إليه أذى بذكره وذكر آبائه فلم يحلّ إلا من أمر إليه.
وقال فى قول حسان: المراد بعرضه أيضا أسلافه؛ كأنه قال: إن أبى ووالده وجميع أسلافى الذين أمدح وأذمّ من جهتهم وقاء له عليه السلام، فأتى بالعموم بعد الخصوص؛ كما قال الله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ؛ [الحجر: 87]، فأتى بالعموم بعد الخصوص؛ ولم أجده ذكر فى خبر سفيان بن عيينة شيئا؛ وتأويله يقرب من تأويل خبر أبى ضمضم، لأنّ من آذى رجلا بسبّه فى نفسه، أو سبّ سلفه وأدخل عليه بذلك وضعا ونقصا لم يكن إلى ورثته بعد موته الإحلال من ذلك، لأن الأذى لم يدخل عليهم، ولو كان داخلا عليهم أيضا مع دخوله على المسبوب لكان إحلالهم مما يرجع إلى غيرهم لا يصحّ؛ على أن فى الإحلال من الضرر وسقوط العوض المستحق عليه، وهل يسقط بإسقاط مستحقه أم لا؟ فيه كلام ليس هذا موضعه، وقد ذكرناه فى مواضع.

فلما سمع الحجاج هذا البيت فضله على الشعراء بجائزة ألف درهم فى كل مرة يعطيهم.
(1) أبطر الغنى، أى أبطر فى الغنى حتى أذهب عن سنن الشكر. وأعرض ميسورى؛ يريد يسرى؛ وضع اسم المفعول موضع المصدر.
(2) المغابن: معاطف الجلد؛ جمع مغبن.

وبعد، فلو سلّم لابن قتيبة أنّ المراد بالعرض فى كلّ المواضع التى ذكرناها النفس دون السّلف، أو سلّم له ذلك فى بيت حسان خاصة؛ فإنه أقرب إلى أن يكون المراد به ما ذكره لم يقدح فيما ذكرناه؛ لأنا لم نقل: إن العرض مقصور على سلف الإنسان، بل ذكرنا أنه موضع الذم والمدح من الإنسان، ولا فرق بين سلفه ونفسه؛ فكيف يكون الاحتجاج بما المراد بالعرض فيه النفس طعنا علينا، وإنما ينفع ابن قتيبة أن يأتى بما يدلّ على أن العرض لا يستعمل إلّا فى النفس دون السّلف، وكل شيء فيما المراد بالعرض فيه النفس، أو المراد به السلف فهو مؤكّد لقولنا فى أنّ هذه اللفظة مستعملة فى موضع الذمّ والمدح من الإنسان؛ وإنما يكون ما استشهدنا به، وما جرى مجراه؛ مما يدلّ على استعمال لفظة «العرض» فى السّلف حجة على ابن قتيبة؛ لأنه قصر معناها على النفس والذات، دون السلف؛ وهذا واضح بيّن بحمد الله.

*** أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانىّ قال حدثنا محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرنا أبو حاتم

قال: كان أبو عبيدة/ معمر بن المثنّى صفريا (1)، وكان يكتم ذلك؛ فأنشدنى لعمران بن حطّان (2):

---

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «الصفرية: جنس من الخوارج، سموا بذلك لاصفرار وجوههم؛ وقيل: نسبوا إلى رجل اسمه صفار».

(2) هو أبو سماك عمران بن حطان بن ذبيان السدوسى؛ رأس القعدة من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم، أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، ثم لحق بالشراة، فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام، فطلبه عبد الملك بن مروان ففر إلى عمان، ولما طال عمره قعد عن الحرب، واكتفى بالتحريض والدعوة بشعره؛ وتوفى سنة 84. وهذه الأبيات يقولها فى رثاء أبى بلال مرداس بن أدية؛ وكان قد قتل فى إمارة عبيد الله بن زياد، سنة 61؛ وهى برواية أبى العباس المبرد:

يا عين بكّى لمرداس ومصرعه ... يا ربّ مرداس اجعلنى كمرداس
تركتنى هائما أبكى لمرزئتي ... فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه، ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إمّا شربت بكأس دار أوّلها ... على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكلّ من لم يذقها شارب عجلا ... منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

وانظر الإصابة 5: 81، والكامل- بشرح المرصفى 7: 83.

أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه، ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
إمّا تكن ذقت كأسا دار أوّلها ... على القرون فذاقوا نهلة الكاس
قد كنت أبكيك حينا ثم قد يئست ... نفسى فما ردّ عنّى عبرتى ياسى

*** [طائفة من أشعار قطرىّ بن الفجاءة:]

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنا ابن دريد قال حدثنا الأشنانداني قال قال التوزيّ: كنت إذا أردت أن أنشط أبا عبيدة سألته عن أخبار الخوارج فأبعج منه ثبج بحر؛ فجئته يوما وهو مطرق ينكت الأرض فى صحن المسجد؛ وقد قربت منه الشمس، فسلمت عليه فلم يردد (1)، فتمثلت:

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عدّ من سقط المتاع

– والبيت لقطرىّ بن الفجاءة– فنظر إلى وقال: ويحك! أتدري من يقوله؟ قلت:

قطرىّ، فقال: اسكت، رضّ (2) الله فاك! فألّا قلت: أمير المؤمنين أبو نعامة (3)! ثم انتبه فقال: اكتمها عليّ يا توّزىّ، فقلت: هى ابنة الأرض، فأنشدنى:

أقول (4) لها إذا جاشت حياء ... من الأبطال ويحك لن تراعى (5)

فإنّك لو طلبت حياة يوم ... على الأجل الّذي لك لم تطاعى (6)

فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع

---

(1) د؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف، : «فلم يرد».

(2) حاشية الأصل (من نسخة):

«فض الله فاك».

(3) هى كنية قطرى بن الفجاءة بن مازن الخارجى؛ كان زعيما من زعماء الخوارج؛ خرج زمن مصعب بن الزبير سنة 66، وبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة؛ وكان الحجاج يسير إليه جيشا، وهو يستظهر عليه، إلى أن توجه إليه سفيان بن أبرد الكلبى، فظهر عليه وقتله سنه 78، (ابن خلكان 1: 430).

(4) الأبيات فى الحماسة– بشرح التبريزى 1: 96 – 97.

(5) د، ومن نسخة بحاشية الأصل: «وقد جاشت». وفى حاشية الأصل (من نسخة):

«وقد طارت حياء»، ورواية الحماسة: «وقد طارت شعاعا»؛ الشعاع: المتفرق، والخطاب لنفسه؛ ولن تراعى، من الروع، وهو الفزع.

(6) الحماسة: «بقاء يوم».

وما طول الحياة بثوب مجد ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع (1)

سبيل الموت منهج كلّ حىّ ... وداعيه لأهل الأرض داع (2)

ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتفض به المنون إلى انقطاع (3)

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عدّ من سقط المتاع

فكتبتها وقمت لأنصرف؛ فقال: اقعد، ثم أنشدنى:

إلى كم تعاريني السّيوف ولا أرى ... مغاراتها تدعو إلى حماميا (4)

أقارع عن دار الخلود ولا أرى ... بقاء على حال لما ليس باقيا

/ ولو قرّب الموت القراع لقد أنى ... لموتى أن يدنو لطول قراعيا

أغادى جلاد العالمين كأنّنى (5) ... على العسل الماذىّ أصبح غاديا (6)

---

(1) الحماسة: «بثوب عز». الخنع: الجبن، واليراع: الجبان الضعيف.
(2) حاشية ف (من نسخة): «غاية كل حي»، وهى رواية الحماسة.
(3) ف:
* ويفض به البقاء إلى انقطاع*
ورواية الحماسة:
* وتسلمه المنون إلى انقطاع*
والاعتباط: أن الحى يموت من غير علة؛ أى من لم يمت شابا مات هرما.
(4) د، وحاشية الأصل (من نسخة): «تعاريني، وفى حاشية الأصل، ف: «المعاراة، بالعين المهملة: من العرى، أى تلقانى السيوف عارية، وبالغين المعجمة: من غرى به إذا أولع، والمغاراة أيضا: المتابعة بين الشيئين، يقال غاربت بين الشيئين، إذا واليت بينهما». وفى م: «تغازبنى»، تحريف.
(5) د، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «المعلمين»، بكسر اللام، والمعلم: الفارس الّذي علم مكانه فى ساحة الحرب بعلامة أعلمها؛ ومنه قول الشاعر:
فتعرّفونى أنى أنا ذاكم ... شاك سلاحى فى الحوادث معلم
وقول الأخطل:
ما زال فينا رباط الخيل معلمة ... وفى كليب رباط اللؤم والعار.
(6) الماذىّ: العسل الأبيض.

وأدعو الكماة للنّزال إذا القنا ... تحطّم فيما بيننا من طعانيا
ولست أرى نفسا تموت وإن دنت ... من الموت حتى يبعث الله داعيا (1)
فقال ابن دريد: وهذا الشعر أيضا لقطرىّ بن الفجاءة.
*** أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال: جئت (2) أبا عبيدة يوما، ومعى شعر عروة بن الورد، فقال. فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير، فقلت: ما معى غيره، فأنشدنى أنت ما شئت، فأنشدنى:
يا ربّ ظلّ حمار قد وقيت به ... مهرى من الشّمس، والأبطال تجتلد (3)
وربّ يوم حمى أرعيت عقوته ... خيلى اقتسارا، وأطراف القنا قصد (4)
ويوم لهو لأهل الخفض ظلّ به ... لهوى اصطلاء الوغا وناره تقد (5)
مشهّرا موقفى والحرب كاشفة ... عنها القناع وبحر الموت يطّرد
وربّ هاجرة تغلى مراجلها ... نحرتها بمطايا غارة تخد (6)
تجتاب أودية الأفزاع آمنة ... كأنّها أسد يقتادها أسد (7)
فإن أمت حتف نفسى لا أمت كمدا ... على الطّعان وقصر العاجز الكمد

ولم أقل لم أساق القتل شاربه (8) ... فى كأسه والمنايا ترع ورد
ثم قال له: هذا الشعر! ؛ لا ما تعلّلون به نفوسكم من أشعار المخنّثين. والشعر لقطرىّ.
***

(1) حاشية الأصل: «أى ملكا يقبض روحه ويدعوه».
(2) الخبر والأبيات فى أمالى القالى 1: 265 – 266، وزهر الآداب– طبعة الحلبى 1027 – 1028.
(3) د: «ظل عقاب» وفى حاشية الأصل: «روى ظل عقاب، يريد بها الراية».
(4) العقوة: الساحة، والقصد: القطع؛ واحده قصدة.
(5) د، ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «إذ ناره».
(6) د: «مخرتها». وتخذ: تسرع.
(7) الأفزاع:
المخاوف، وفى زهر الآداب: «يصطادها».
(8) حاشية الأصل (من نسخة): «ساقيه».

أخبرنا على بن محمد الكاتب قال قال أخبرنا ابن دريد قال: أخبرنا أبو حاتم قال: كان أبو عبيدة يأنس إلى فى أول ما اختلفت إليه، لأنه كان يظنّنى على رأيهم ويسألنى عن خوارج سجستان– لأنه كان يظنّنى على رأيهم– وكنت أوهمه أنى على رأيهم، فنالتنى منه لذلك عناية خاصة، فكان كثيرا ما ينشدنى أشعارهم، ثم يتمثل:
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدّوا (1)

[أبيات لرجل خارجىّ من طيئ:]
/ قال: وأنشدنى يوما لرجل من طيئ من الخوارج:
لا كابن ملحان من شار أخى ثقة ... أو كابن علقمة المستشهد الشارى (2)
من صادق كنت أصفيه مخالصتى ... فباع دارى بأعلى صفقة الدار (3)
إخوان صدق أرجّيهم وأحذرهم ... أشكو إلى الله إخوانى وإحذارى
فصرت صاحب دنيا لست أملكها ... وصار صاحب جنات وأنهار
تم القسم الأول من كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى، ويليه القسم الثانى إن شاء الله تعالى، وأوله: تأويل آية؛ إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَقالَتِ الْيَهُودُ ...

(1) البيت للحطيئة، ديوانه: 20.
(2) الشارى: واحد الشراة؛ والخوارج تسمى نفسها بذلك؛ كأنهم شروا أنفسهم لله؛ أى باعوها؛

ومنه قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ أى يبيعها. وقال قطرى فى هذا المعنى:

رأت فئة باعوا الإله نفوسهم ... بجنّات عدن عنده ونعيم.

(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «دارى، يعنى الدنيا التى كانت داره؛ وهو فى قيد الحياة؛ يعنى أنه باعها بصفقة رابحة؛ أراد أنه استشهد وقتل، فباع داره بدار فى الجنة».

(1/639)

الجزء الثاني

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مجلس آخر 49

تأويل آية [وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ [المائدة: 64].

فقال: ما اليد التى إضافتها اليهود إلى الله تعالى، وادّعوا أنها مغلولة؟ وما نرى أنّ عاقلا من اليهود ولا غيرهم يزعم أن لربّه يدا مغلولة، واليهود تتبرأ من أن يكون فيها قائل بذلك؛ وما معنى الدعاء عليهم ب غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ [وهو تعالى ممن لا يصحّ أن] (1) يدعو على غيره؟ لأنه تعالى قادر على أن يفعل ما يشاء، وإنما يدعو الداعى بما لا يتمكّن من فعله طلبا له.

الجواب، قلنا: يحتمل أن يكون قوم من اليهود وصفوا الله تعالى بما يقتضي تناهى مقدوره، فجرى ذلك مجرى أن يقولوا: إنّ يده مغلولة، لأنّ عادة الناس جارية بأن يعبّروا بهذه العبارة عن هذا المعنى، فيقولون: يد فلان منقبضة عن كذا، ويده لا تنبسط إلى كذا، إذا أرادوا وصفه بالفقر والقصور، ويشهد بذلك قوله تعالى فى موضع آخر: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ [آل عمران: 181]، ثم قال تعالى مكذبا لهم: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ؛ أى أنه ممّن لا يعجزه شيء، وثنّى اليدين تأكيدا للأمر، وتفخيما له؛ ولأنه أبلغ فى المعنى المقصود من أن يقول: بل يده مبسوطة.

وقد قيل أيضا: إن اليهود وصفوا الله تعالى بالبخل، واستبطئوا فضله ورزقه؛ وقيل:

إنهم قالوا على سبيل الاستهزاء: إن إله محمد الّذي أرسله؛ يداه إلى عنقه؛ إذ ليس يوسّع عليه وعلى أصحابه، / فردّ الله قولهم وكذّبهم بقوله: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ، واليد هاهنا الفضل

(1) حاشية ف (من نسخة): «وهو تعالى لا يصح أن».

(2/3)

والنعمة، وذلك معروف فى اللغة، متظاهر فى كلام العرب وأشعارهم.
ويشهد له من الكتاب قوله تعالى: وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ [الإسراء: 69]، ولا معنى لذلك إلّا الأمر بترك إمساك اليد عن النفقة فى الحقوق؛ وترك الإسراف، إلى القصد والتوسط.
ويمكن أن يكون الوجه فى تثنية النعمة من حيث أريد بها نعم الدنيا ونعم الآخرة؛ لأن الكل- وإن كانت نعم الله
تعالى- فمن حيث اختص كلّ واحد من الأمرين بصفة تخالف صفة الآخر صارا كأنهما جنسان أو قبيلان.
ويمكن أيضا [أن يكون بتثنية النعمة] (1) أنه أريد بها النعم الظاهرة والباطنة.
فأما قوله تعالى: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ، ففيه وجوه:
أوّلها: أن يكون ذلك على غير سبيل الدّعاء؛ بل على جهة الإخبار منه عز وجل عن نزول ذلك بهم؛ وفى الكلام ضمير «قد» قبل قوله: غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وموضع غُلَّتْ نصب على الحال، كأنّه تعالى قال: وقالت اليهود كذا وكذا؛ فى حال ما غلّ الله تعالى أيديهم ولعنهم، أو حكم بذلك فيهم؛ ويسوغ إضمار «قد» هاهنا كما ساغ فى قوله عز وجل: إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ. وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ [يوسف: 26، 27] والمعنى: فقد صدقت، وقد كذبت.
وثانيها أن يكون معنى الكلام وقالت اليهود يد الله مغلولة فغلّت أيديهم، أو وغلّت أيديهم، وأضمر تعالى الفاء والواو؛ لأنّ كلامهم تمّ، واستؤنف بعده كلام آخر؛ ومن عادة العرب أن تحذف فيما يجرى مجرى هذا الموضع؛ من ذلك قوله تعالى: وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً [البقرة: 67] أراد:

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «يكون المراد بتثنيته النعمة».

فقالوا أتتخذنا هزوا، فاضمر تعالى الفاء؛ لتمام كلام موسى عليه السلام، ومنه قول الشاعر:
لمّا رأيت نبطا أنصارا ... شمّرت عن ركبتى الإزارا (1)
كنت لها من النّصارى جارا
أراد: «وكنت»، فأضمر الواو.
وثالثها أن يكون القول خرج مخرج الدعاء؛ إلا أن معناه التعليم من الله تعالى لنا والتأديب؛ فكأنه جلّت عظمته وقفنا على الدعاء عليهم، وعلّمنا/ ما ينبغى أن نقول فيهم، كما علّمنا الاستثناء فى غير هذا الموضع بقوله تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح: 27]، وكل ذلك جلىّ واضح، والمنة لله.

تأويل خبر [«لعن الله السّارق؛ يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده»]
إن سأل سائل عن الخبر الّذي روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لعن الله السّارق؛ يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده».
الجواب، قلنا: قد تعلق بهذا الخبر صنفان من الناس؛ فالخوارج تتعلّق به، وتدّعي أنّ القطع يجب في القليل والكثير؛ وتستشهد على ذلك بظاهر قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما [المائدة: 38]، ويتعلق بهذا الخبر أيضا الملحدة والشّكاك، ويدّعون أنه مناقض للرواية المتضمّنة أنه لا قطع إلّا في ربع دينار. ونحن نذكر ما فيه:
فأول ما نقوله إنّ الخبر مطعون عند أصحاب الحديث على سنده، وقد حكى ابن قتيبة في تأويله وجها عن يحيى بن أكثم، طعن عليه وضعّفه، وذكر عن نفسه وجها آخر؛ نحن نذكرهما وما فيهما، ونتبعهما بما نختاره.

---

(1) حاشية ف: «أهل السواد يقال لهم النبط، لأنهم يستخرجون النبط وهو الماء».

قال ابن قتيبة: كنت حضرت يوما مجلس يحيى بن أكثم بمكة، فرأيته يذهب إلى أنّ البيضة في هذا الحديث بيضة الحديد التي تغفر الرأس في الحرب، وأن الحبل من حبال السفن، قال: وكلّ واحد من هذين يبلغ ثمنه دنانير كثيرة؛ قال: ورأيته يعجب بهذا التأويل، ويبدي فيه ويعيد، ويرى أنه قطع به حجة الخصم.
قال ابن قتيبة. وهذا إنما يجوز على من لا معرفة له باللغة ومخارج الكلام، وليس هذا موضع تكثير لما يأخذه السارق فيصرفه إلى بيضة تساوي دنانير؛ وحبل لا يقدر السارق على حمله؛ ولا من عادة العرب والعجم أن يقولوا: قبح الله فلانا! عرّض نفسه للضرر في عقد جوهر، وتعرّض لعقوبة الغلول في جراب مسك؛ وإنما العادة في مثل هذا أن يقال: لعنه الله، تعرّض للقطع في حبل رثّ، أو إداوة خلق، أو كبّة شعر؛ وكلّ ما كان من ذلك أحقر كان أبلغ.
قال: والوجه في الحديث أن الله تعالى لما أنزل على رسوله صلى الله عليه وآله: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزاءً بِما كَسَبا؛ قال رسول الله صلى عليه وآله: «لعن الله السارق؛ يسرق البيضة/ فتقطع يده»، على ظاهر ما أنزل عليه (1) في ذلك الوقت، ثمّ أعلمه الله تعالى بعد أن القطع لا يكون إلّا في ربع دينار فما فوقه، ولم يكن عليه السلام يعلم من حكم الله تعالى إلا ما علّمه الله تعالى، وما كان الله يعرّفه ذلك جملة جملة، بل بيّن (2) شيئا بعد شيء.
قال سيدنا أدام الله علوّه: ووجدت أبا بكر الأنباريّ يقول: ليس الّذي طعن به ابن قتيبة (3) على تأويل الخبر بشيء؛ قال: لأن البيضة من السلاح ليست علما في كثرة الثمن ونهاية علوّ القيمة؛ فتجرى مجرى العقد من الجوهر، والجراب من المسك؛ اللّذين هما ربّما ساويا الألوف من الدنانير، والبيضة من الحديد ربّما اشتريت بأقلّ مما يجب فيه القطع، وإنما أراد عليه السلام أنه يكتسب قطع يده بما لا غنى له به، لأن البيضة من السلاح لا يستغنى بها أحد، والجوهر والمسك في اليسير منهما

غنى.

(1) ف: «إليه».
(2) حاشية الأصل (من نسخة): » بل يبين له».
(3) م: «ليس الّذي ذكر ابن قتيبة».

(2/6)

قال سيدنا أدام الله أيامه: والّذي نقوله إن ما طعن به ابن الأنباريّ على كلام ابن قتيبة متوجّه؛ وليس فى ذكر البيضة والحبل تكثير كما ظنّ؛ فيشبه العقد والجراب من المسك؛ غير أنه يبقى فى ذلك أن يقال: أىّ وجه لتخصيص البيضة والحبل بالذكر، وليس هما النهاية فى التقليل؛ وإن كان كما ذكره ابن الأنباريّ؛ من أنّ المعنى أنه يسرق ولا يستغنى به؛ فليس ذكر ذلك بأولى من غيره؛ ولا بدّ من ذكر وجه فى ذلك.
وأما تأويل ابن قتيبة فباطل لأن النبي صلى الله عليه وآله لا يجوز أن يقول ما حكاه عند سماع قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ؛ لأن الآية مجملة مفتقرة إلى بيان؛ ولا يجوز أن يحملها أو يصرفها إلى بعض محتملاتها دون بعض بلا دلالة؛ على أنّ أكثر من قال: إن الآية غير مجملة، وأن ظاهر القول يقتضي العموم يذهب إلى أن ما اقتضى تخصيصها بسارق دون سارق لم يتأخر عن حال الخطاب بها؛ فكيف يصحّ ما قاله ابن الأنباريّ أن الآية تقدمت، ثم تأخر تخصيص السارق؛ ولو كان ذلك كما ظنّ لكان المتأخر ناسخا للآية.
وعلى تأويله هذا يقتضي أن يكون كلّ الخبر منسوخا؛ وإذا أمكن تأويل أخباره عليه السلام على/ ما لا يقتضي رفع أحكامها ونسخها كان أولى.
والأشبه أن يكون المراد بهذا الخبر أنّ السارق يسرق الكثير الجليل، فتقطع يده، ويسرق الحقير القليل فتقطع يده؛ فكأنه تعجيز له، وتضعيف لاختياره، من حيث باع يده بقليل الثمن؛ كما باعها بكثيره.
وقد حكى أهل اللغة أن بيضة القوم وسطهم، وبيضة الدار وسطها، وبيضة السنام شحمته، وبيضة الصّيف معظمه، وبيضة البلد الّذي لا نظير له؛ وإن كان قد يستعمل ذلك فى المدح والذم على سبيل الأضداد، وإذا استعمل فى الذم فمعناه أنّ الموصوف بذلك حقير مهين، كالبيضة التى تفسدها النعامة فتتركها ملقاة لا تلتفت إليها.
فمما جاء من ذلك فى المدح قول أخت عمرو بن عبد ودّ ترثيه، وتذكر قتل أمير المؤمنين

(2/7)

عليه السلام له؛ وقيل إنّ الأبيات لامرأة من العرب؛ غير أخته:
لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكى عليه آخر الأبد (1)

لكنّ قاتله من لا يعاب به (2) ... من كان يدعى قديما بيضة البلد (3)
وقال آخر فى المدح:
كانت قريش بيضة فتفلّقت ... فالمخّ خالصه (4) لعبد مناف
وقال آخر فى الذمّ.
تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبا ... وابنا نزار، فأنتم بيضة البلد (5)
أراد: «أن تعرف» فأسكن.
وقال آخر فى ذلك:
لكنّه حوض من أودى بإخوته ... ريب الزّمان فأمسى بيضة البلد (6)
فقد صار معنى البيضة كلّه يعود إلى التفخيم والتعظيم.
وأما الحبل فذكر على سبيل المثل؛ والمراد المبالغة فى التحقير والتقليل؛ كما يقول القائل:

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «عليها».
(2) حاشية الأصل (من نسخة):
* لكنّ قاتل عمرو لا يعاب به*.
(3) البيتان فى شرح المرزوقى لحماسة أبى تمام: 804 واللسان (بيض).
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «خالصها».
(5) اللسان (بيض)، ونسبه إلى الراعى يهجو ابن الرقاع العاملى وقبله:
لو كنت من أحد يهجى هجوتكم ... يا ابن الرّقاع، ولكن لست من أحد.
(6) من أبيات فى حماسة أبى تمام- بشرح المرزوقى 802 – 804، وفى اللسان (بيض) منسوبة إلى صنان بن عباد اليشكري؛ وقبله:
لما رأى شمط حوضى له ترع ... على الحياض أتانى غير ذى لدد
لو كان حوض حمار ما شربت به ... إلّا بإذن حمار آخر الأبد.

ما أعطانى فلان عقالا، وما ذهب من فلان عقال، ولا يساوى كذا نقيرا؛ كل ذلك على سبيل المثل والمبالغة فى التقليل؛ وليس الغرض بذكر الحبل الواحد من الحبال على الحقيقة؛ وإذا كان على هذا تأويل الخبر/ زال عنه
المناقضة التى ظنّت؛ وبطلت شبهة الخوارج فى أن القطع يجب فى القليل والكثير.
أخبرنا (1) أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى أبو عبيد الله الحكيمىّ قال حدثنى يموت بن المزرّع قال حدثنى أبو زينب (2) عليّ بن ثابت قال، قال الأصمعىّ: [تصرفت فى الأسباب على باب الرشيد] (3) مؤملا للظّفر (4) به؛ والوصول إليه؛ حتى إنى صرت لبعض حرسه خدينا؛ فإنى فى ليلة قد نثرت السعادة والتوفيق فيها الأرق بين أجفان الرشيد إذ خرج خادم فقال:
أبالحضرة (5) أحد ينشد (6) الشّعر؟ فقلت: الله أكبر! ربّ قيد مضيقة قد حلّه التيسير، فقال لى

الخادم: ادخل، فلعلّها أن تكون ليلة تعرّس فى صباحها بالغنى إن فزت بالحظوة عند أمير المؤمنين؛ فدخلت فواجهت الرشيد فى بهوه (7)، والفضل بن يحيى إلى جانبه، فوقف الخادم بى بحيث يسمع التسليم، فسلّمت فردّ السلام ثم قال: يا غلام، أرحه قليلا يفرخ روعه؛ إن كان قد وجد للروعة حسّا، فدنوت قليلا ثم قلت: يا أمير المؤمنين، إضاءة مجدك، وبهاء كرمك، مجيران لمن نظر إليك عن اعتراض أذيّة؛ فقال: ادن، فدنوت، فقال: أشاعر أم راوية؟ فقلت: راوية لكل ذى جدّ وهزل؛ بعد أن يكون محسنا؛ فقال: تالله ما رأيت ادّعاء أعمّ! فقلت: أنا على الميدان، فأطلق من عنانى يا أمير المؤمنين، فقال: «قد أنصف القارة من راماها (8)»؛ ثم قال: ما معنى

---

(1) روى البغدادى الخبر فى خزانة الأدب 2: 267 – 269؛ عن الغرر.

(2) حاشية ف (من نسخة): «أبو وهب».

(3) ف، حاشية الأصل (من نسخة):

«تصرفت بى الأسباب على باب الرشيد».

(4) د، ونسخة بحاشيتى الأصل، ف: «الظفر».

(5) حاشية الأصل (من نسخة): «أما بالحضرة».

(6) حاشية الأصل (من نسخة): «يحسن».

(7) حاشية الأصل (من نسخة): «بهو».

(8) فى مجمع الأمثال للميدانى (1: 42):

«القارة: قبيلة؛ وهم عضل والديش ابنا الهول بن خزيمة؛ وإنما سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد الشداخ أن يفرقهم فى بنى كنانة؛ فقال شاعرهم:

دعونا قادة لا تنفرونا ... فنجفل مثل إجفال الظّليم

–

هذه الكلمة بدءا؟ قلت: فيها قولان؛ القارة هى الحرّة من الأرض، وزعمت الرواة أن القارة كانت رماة للتبابعة (1)، والملك إذ ذاك أبو حسّان، فواقف (2) عسكره عسكرا للسّغد (3)، فخرج فارس من السّغد، قد وضع سهمه فى كبد قوسه فقال: أين رماة العرب؟ فقالت العرب:

«أنصف القارة من راماها» فقال لى الرشيد: أصبت، ثم قال: أتروى لرؤبة بن العجاج والعجاج شيئا، فقلت: هما شاهدان لك بالقوافى؛ وإن غيّبا عن بصرك بالأشخاص، فأخرج من ثنى فرشه رقعة ثم قال: أنشدنى:

* أرّقنى طارق همّ أرقا (4) *

فمضيت فيها مضىّ الجواد فى متن ميدانه، تهدر بى أشداقى (5)، فلما صرت إلى مديحه لبنى أمية تثنيت لسانى إلى امتداحه للمنصور فى قوله:

وهم رماة الحدق فى الجاهلية، وهم اليوم فى اليمن». وفى اللسان (قور): «زعموا أن رجلين التقيا؛ أحدهما قارىّ والآخر أسدىّ، فقال القارىّ: إن شئت صارعتك وإن شئت راميتك، فقال: اخترت المراماة؛ فقال القارىّ: قد أنصفتنى؛ وأنشد:

قد أنصف القارة من راماها ... إنّا إذا ما فئة نلقاها

* نردّ أولاها على أخراها*

ثم انتزع له سهما، فشك فؤاده». ونقل صاحب اللسان أيضا عن ابن برى: «إنما قيل: «أنصف القارة من رماها» لحرب كانت بين قريش وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة، وكانت القارة مع قريش، فلما التقى الفريقان راماهم الآخرون حين رمتهم القارة، فقيل: قد أنصفكم هؤلاء الذين سادوكم فى العمل الّذي هو صناعتكم، وأراد الشداخ أن يفرق القارة فى قبائل كنانة فأبوا».

(1) حاشية الأصل: «التبابعة ملوك العرب الجاهلية؛ وكانوا يكونون باليمن؛ الواحد تبع».

(2) المواقفة: أن تقف مع غيرك، ويقف معك فى حرب أو خصومة.

(3) حاشية الأصل: «السغد: بين سمرقند وبخارى».

(4) مطلع أرجوزة طويلة لرؤبة، يمدح فيها مروان بن الحكم، وهى فى ديوانه 108 – 115، وبعد هذا البيت:

* وركض غربان غدون نعّقا*.

(5) حاشية الأصل (من نسخة): «تهدر بها أشداقى».

* قلت لزير لم تصله مريمه (1) *

/ فلما رآنى قد عدلت من أرجوزة إلى غيرها قال: أعن حيرة أم عن عمد؟ قلت: عن عمد تركت كذبه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده، فقال الفضل: أحسنت بارك الله عليك! مثلك يؤهل لمثل هذا المجلس. فلما أتيت على آخرها قال لى الرشيد: أتروى كلمة عدىّ بن الرقاع:

* عرف الدّيار توهّما فاعتادها (2) *

قلت: نعم، قال: هات، فمضيت فيها حتى إذا صرت إلى وصفه الجمل قال لى الفضل: ناشدتك الله أن تقطع علينا ما أمتعنا به من السهر فى ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب، فقال الرشيد: اسكت، فالإبل هى التى أخرجتك عن دارك، واستلبت تاج ملكك، ثم ماتت وعملت جلودها سياطا ضربت بها أنت وقومك، فقال الفضل: لقد عوقبت (3) على غير ذنب والحمد لله! فقال الرشيد: أخطأت، الحمد لله على النّعم، ولو قلت: وأستغفر الله لكنت مصيبا، ثم قال لى: امض فى أمرك، فأنشدته حتى إذا بلغت إلى قوله:

* تزجى أغنّ كأنّ إبرة روقه*

استوى جالسا وقال: أتحفظ فى هذا ذكرا؟ قلت: نعم، ذكرت الرواة أنّ الفرزدق قال: كنت فى المجلس وجرير إلى جانبى، فلما ابتدأ عدىّ فى قصيدته قلت لجرير مسرّا إليه: هلمّ نسخر من هذا الشامىّ، فلما ذقنا كلامه يئسنا منه؛ فلما قال:

* تزجى أغنّ كأنّ إبرة روقه*

(1) مطلع أرجوزة أخرى لرؤبة أيضا، وهى فى ديوانه: 149 – 159 وفى حاشية الأصل:
«يقال: هو زير نساء إذا كان يحبهن ويزورهن كثيرا، وأصله: زور، فعل، من الزيارة، ومريم اسم عشيقته».
(2) بقيته:
* من بعد ما درس البلى أبلادها*
وهو مطلع قصيدة فى الطرائف الأدبية 87 – 91.
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «الإشارة بالمعاقبة إلى إسماع الرشيد كلامه الموحش الخشن إياه، وهو يعيره بالعجم ويذكر غلبة العرب الذين هم أصحاب الجمال عليهم، وسلبهم ملكهم».

– وعدىّ كالمستريح– قال جرير: أما تراه يستلب بها مثلا! فقال الفرزدق: يا لكع، إنه يقول:
* قلم أصاب من الدّواة مدادها*
فقال عدىّ:
* قلم أصاب من الدّواة مدادها (1) *
فقال جرير: كان سمعك مخبوءا (2) فى صدره! فقال لى: اسكت شغلنى سبّك عن جيّد الكلام؛ فلما بلغ إلى قوله:
ولقد أراد الله إذ ولّاكها ... من أمّة إصلاحها ورشادها (3)
قال الأصمعىّ: فقال لى: ما تراه قال إذ أنشده الشاعر هذا البيت؟ فقلت: قال: كذا أراد الله، فقال الرشيد: ما كان فى جلالته ليقول هذا، أحسبه قال: ما شاء (4) الله! قلت:
وكذا جاءت الرواية، فلما أتيت على آخرها قال لى: أتروى لذى الرّمة شيئا؟ قلت: الأكثر، قال: فماذا أراد بقوله:
/ ممرّ أمرّت متنه أسديّة ... ذراعية حلّالة بالمصانع (5)
قلت: وصف حمار وحش، أسمنه بقل روضة تواشجت أصوله، وتشابكت فروعه، عن مطر سحابة كانت بنوء الأسد فى الذّراع من ذلك. فقال الرشيد: أرح، فقد وجدناك ممتعا، وعرفناك محسنا، ثم قال: أجد ملالة ونهض، فأخذ الخادم يصلح عقب النعل فى رجله وكانت عربيّة، فقال الرشيد: عقرتنى يا غلام، فقال الفضل: قاتل الله الأعاجم، أما إنها

(1) حاشية ف: «يصف ظبية تسوق ولدا، فى صوته غنة، ثم شبه رأس قرنه بقلم أصاب طرفه المداد. وأراد بالروق رأس القرن، وروق كل شيء: أوله».
(2) حاشية الأصل (من نسخة):
«كأن سمعك مخبوء فى قلبه».

(3) حاشية الأصل: «عدىّ قال: «وفسادها»، والأصمعى أنشد: «رشادها».
(4) حاشية الأصل: قوله «ما شاء الله» على الطريقة المعهودة أى ما شاء الله كان، كأنه يشير إلى أن دولته فى مشيئة الله تعالى».
(5) ديوانه: 361، وروايته:
* يمانية حلّت جنوب المضاجع*.

(2/12)

لو كانت سندية لما احتجت إلى هذه الكلفة (1)، فقال الرشيد: هذه نعلى ونعل آبائى، كم تعارض فلا تترك من جواب ممضّ! ثم قال: يا غلام؛ يؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم على هذا الرجل فى ليلته ولا يحجب فى المستأنف، فقال الفضل: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه غيره لأمرت لك بمثل ما أمر لك به، وقد أمرت لك به، إلّا ألف درهم، فتلقّ الخادم صباحا.
قال الأصمعىّ: فما صليت من غد إلّا وفى منزلى تسعة وخمسون ألف درهم.

---

(1) فى خزانة الأدب: «الكلمة».

(2/13)

مجلس آخر 50
تأويل آية [اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ [البقرة: 257].
فقال: أليس ظاهر هذه الآية يقتضي أنه هو الفاعل للإيمان فيهم؟ لأن النور هاهنا كناية عن الإيمان والطاعات، والظلمة كناية عن الكفر والمعاصى، ولا معنى لذلك غير ما ذكرناه.
وإذا كان مضيفا للإخراج إليه فهو الفاعل لما كانوا به خارجين، وهذا خلاف مذهبكم.
الجواب، قلنا: أما النور والظلمة المذكوران فى الآية فجائز أن يكون المراد بهما الإيمان والكفر، وجائز أيضا أن يراد بهما الجنة والنار، والثواب والعقاب فقد تصحّ الكناية عن الثواب والنعيم فى الجنة بأنه نور، وعن العقاب فى النار بأنه ظلمة، وإذا كان المراد بهما الجنة والنار ساغ إضافة إخراجهم من الظلمات إلى النور إليه تعالى؛ لأنه لا شبهة فى أنه جل وعز هو المدخل للمؤمن الجنة، والعادل به عن طريق النار. والظاهر بما ذكرناه أشبه؛ لأنه يقتضي أنّ المؤمن الّذي ثبت كونه مؤمنا/ يخرج من الظلمة إلى النور؛ فلو حمل على الإيمان والكفر لتناقض المعنى، ولصار تقدير الكلام:
أنه يخرج المؤمن الّذي قد تقدّم كونه مؤمنا من الكفر إلى الإيمان؛ وذلك لا يصحّ.
وإذا كان الكلام يقتضي الاستقبال فى إخراج من قد ثبت كونه مؤمنا كان حمله على دخول الجنة والعدول به عن طريق النار أشبه بالظاهر.

على أنا لو حملنا الكلام على الإيمان والكفر لصحّ، ولم يكن مقتضيا لما توهموه، ويكون وجه إضافة الإخراج
إليه، وإن لم يكن الإيمان من فعله من حيث دلّ وبيّن وأرشد ولطّف وسهّل؛ وقد علمنا أنه لولا هذه الأمور لم يخرج المكلّف من الكفر إلى الإيمان، فيصح

إضافة الإخراج إليه تعالى لكون ما عددناه من جهته. وعلى هذا يصحّ من أحدنا إذا أشار على غيره بدخول بلد من البلدان ورغّبه فى ذلك، وعرّفه ما فيه من الصلاح، أو بمجانبة فعل من الأفعال أن يقول: أنا أدخلت فلانا البلد الفلانىّ؛ وأنا أخرجته من كذا وكذا وأنتشته منه؛ ويكون وجه الإضافة ما ذكرناه من الترغيب، وتقوية الدواعى.
ألا ترى أنه تعالى قد أضاف إخراجهم من النور إلى الظلمات، إلى الطواغيت، وإن لم يدلّ ذلك على أن الطاغوت هو الفاعل للكفر فى الكفار؛ بل وجه الإضافة ما تقدم؛ لأن الشياطين يغوون ويدعون إلى الكفر، ويزيّنون فعله، فتصح إضافته إليهم من هذا الوجه، والطاغوت هو الشيطان وحزبه، وكلّ عدو لله تعالى صدّ عن طاعته، وأغرى (1) بمعصيته يصحّ إجراء هذه التّسمية عليه؛ فكيف اقتضت الإضافة الأولى أن الإيمان من فعل الله تعالى فى المؤمن، ولم تقتض الإضافة الثانية أنّ الكفر من فعل الشياطين فى الكفار؛ لولا بله المخالفين وغفلتهم!
وبعد، فلو كان الأمر على ما ظنوه لما صار الله تعالى وليّا للمؤمنين، وناصرا لهم على ما اقتضته الآية، والإيمان من فعله تعالى لا من فعلهم؛ ولم كان خاذلا للكفار ومضيفا لولايتهم إلى الطاغوت والكفر من فعله تعالى فيهم؟ ولم فصل بين الكافر والمؤمن فى باب الولاية، وهو المتولى لفعل الأمرين فيهما؟ ومثل هذا لا يذهب على أحد، ولا يعرض عنه إلّا معاند مغالط لنفسه.
***/ أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال: قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ حدثنا أحمد بن حيان قال حدثنا أبو عبد الله بن النطاح قال أخبرنا أبو عبيدة قال، قال عبد الملك بن مسلم:
كتب (2) عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: إنه ليس شيء من لذة الدنيا إلا وقد أصبت منه،

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «أغوى».
(2) القصة فى الأغانى 9: 162 – 165، ووردت مختصرة فى الشعر والشعراء 109 – 110، ونقلها عن ابن قتيبة البغدادى فى الخزانة 1: 288.

ولم يبق لى من لذة الدنيا إلّا مناقلة الإخوان الأحاديث، وقبلك عامر الشعبىّ، فابعث به إلى يحدثنى.
فدعا الحجاج بالشعبىّ، وجهزه وبعث به إليه، وقرّظه وأطراه فى كتابه، فخرج الشعبىّ حتى إذا كان

بباب عبد الملك، قال للحاجب: استأذن لى، قال: من أنت؟ قال: عامر الشعبىّ؛ قال: حيّاك الله، ثم نهض فأجلسه على كرسيه،
فلم يلبث أن خرج الحاجب إليه فقال: ادخل، فدخل، قال: فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسىّ، وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية، على كرسىّ، فسلمت فرد السلام، ثم أومأ إلى بقضيبه، فقعدت عن يساره، ثم أقبل على الّذي بين يديه فقال: ويحك! من أشعر الناس؟ قال: أنا يا أمير المؤمنين، قال الشعبىّ: فأظلم علىّ ما بينى وبين عبد الملك، ولم أصبر أن قلت: ومن هذا يا أمير المؤمنين الّذي يزعم أنه أشعر الناس! فعجب عبد الملك من عجلتى قبل أن يسألنى عن حالى، ثم قال: هذا الأخطل، قلت: يا أخطل، أشعر منك الّذي يقول:

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التّمام (1)

للحارث الأكبر والحارث ال ... أصغر والحارث خير الأنام (2)

خمسة آباء هم ما هم ... هم خير من يشرب صوب الغمام

فقال عبد الملك: ردّها علىّ، فرددتها حتى حفظها، فقال الأخطل: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الشعبىّ، قال: صدق والله، النابغة أشعر منى.

قال الشعبىّ: ثم أقبل علىّ عبد الملك فقال. كيف أنت يا شعبىّ؟ قلت: بخير لا زلت

---

(1) وفى حاشية الأصل (من نسخة): «مقتبل الخير»، أى يستقبل خيره فيما يؤتنف من الأيام.

(2) رواية الأغانى وابن قتيبة:

للحارث الأكبر والحارث الأ ... صغر والأعرج خير الأنام

وبعده:

ثمّ لهند ولهند وقد ... أسرع فى الخيرات منه إمام.

به، ثم ذهبت لأصنع معاذيرى لما كان من خلافى على الحجّاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث فقال: مه! فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق، ولا تراه منّا فى قول ولا فعل حتى تفارقنا. ثم أقبل علىّ فقال: ما تقول فى النابغة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قد فضّله عمر بن الخطاب/ فى غير موطن على جميع الشعراء، وذلك أنّه خرج يوما وببابه وفد غطفان، فقال: يا معاشر غطفان، أىّ شعرائكم الّذي يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب (1)

لئن كنت قد بلّغت عنّى خيانة ... لمبلغك الواشى أغشّ وأكذب

ولست بمستبق أخا لا تلمّه ... على شعث، أىّ الرّجال المهذّب!

قالوا: النابغة، قال: فأيّكم الّذي يقول:

فإنك كاللّيل الّذي هو مدركى ... وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع (2)

خطاطيف حجن فى حبال متينة ... تمدّ بها أيد إليك نوازع (3)

قالوا: النابغة، قال: أيّكم الّذي يقول:
إلى ابن محرّق أعملت نفسى ... وراحلتى وقد هدت العيون (4)
أتيتك عاريا خلقا ثيابى ... على خوف تظنّ بى الظّنون
فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون
قالوا: النابغة، قال: هذا أشعر شعرائكم.

---

(1) ديوانه 13 – 12، وفى م بعد هذا البيت:
ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ... ترى كلّ ملك دونها يتذبذب
لأنّك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهنّ كوكب
ولم يذكر البيتان فى الأصول المخطوطة.
(2) ديوانه: 55.
(3) خطاطيف: جمع خطاف، وهو ما يخرج به الدلو من البئر. وحجن: معوجة، واحدها أحجن. ونوازع: جواذب.
(4) أصله: «هدأت»، بالهمز.

ثم أقبل عبد الملك على الأخطل فقال: أتحبّ أنّ لك قياضا بشعرك شعر أحد من العرب، أم تحب أنك قلته؟ فقال: لا والله؛ إلّا أنى وددت أنى كنت قلت أبياتا قالها رجل منّا، كان والله مغدف القناع (1)، قليل السّماع، قصير الذراع، قال: وما قال؟ فأنشده:
إنّا محيّوك فاسلم أيّها الطّلل ... وإن بليت، وإن طالت بك الطّيل (2)
ليس الجديد به تبقى بشاشته ... إلّا قليلا، ولا ذو خلّة يصل (3)
والعيش لا عيش إلّا ما تقرّبه ... عين، ولا حال إلّا سوف تنتقل
إن ترجعى من أبى عثمان منجحة ... فقد يهون على المستنجح العمل (4)
/ والنّاس من يلق خيرا قائلون له ... ما يشتهى، ولأمّ المخطئ الهبل
قد يدرك المتأنّى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزّلل
قال الشعبىّ: فقلت: قد قال القطامىّ أفضل من هذا، قال: وما قال؟ قلت: قال (5):
طرقت جنوب رحالنا من مطرق ... ما كنت أحسبه قريب المعنق (6)
حتى أتيت إلى آخر القصيدة، فقال عبد الملك: ثكلت القطامىّ أمّه! هذا والله الشعر.
قال: فالتفت إلى الأخطل فقال: يا شعبىّ، إنّ لك فنونا فى الأحاديث، وإنّ لنا فنّا واحدا، فإن رأيت ألّا تحملنى على أكتاف قومك، فأدعهم حرضا! قلت: لا أعرض لك

---

(1) مغدف القناع، أى خامل الذكر.
(2) ديوان القطامى 32، وجمهرة الأشعار 313 – 316، والطيل: جمع طيلة، هى الدهر.

(3) الضمير فى «به»، للدهر فى البيت الّذي قبله، وهو:
كانت منازل منّا قد نحلّ بها ... حتى تغيّر دهر خائن خبل.
(4) الخطاب للناقة، ومنجحة: ظافرة. والمستنجح: طالب النجاح.
(5) حاشية الأصل: «القطامى، هو عمير بن شييم بن عمر بن عباد».
(6) اللسان (عنق)، والمعنق: المكان الّذي أعنقت منه؛ أى سرت؛ يقول: لم أظن أنها تقدر على أن تعنق وتسرع من هذا المكان. والعنق: ضرب من السير السريع؛ يقال: عانق وأعنق إذا أسرع.

فى شيء من الشعر أبدا، فأقلنى هذه المرة، قال: من يكفل بك؟ قلت: أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: هو عليّ ألّا يعرض لك أبدا.
ثم قال: يا شعبىّ، أىّ شعراء الجاهلية كان أشعر من النساء؟ قلت: خنساء، قال:
ولم فضّلتها على غيرها؟ قلت: لقولها:
وقائلة- والنّعش قد فات خطوها (1) ... لتدركه-: يا لهف نفسى على صخر!
ألا ثكلت أمّ الّذين غدوا به ... إلى القبر! ماذا يحملون إلى القبر!
فقال عبد الملك: أشعر منها والله ليلى الأخيلية حيث تقول:
مهفهف الكشح والسّربال منخرق ... عنه القميص لسير اللّيل محتقر
لا يأمن النّاس ممساه ومصبحه ... فى كلّ فجّ، وإن لم يغز ينتظر (2)
ثم قال: يا شعبىّ، لعله شقّ عليك ما سمعته؟ فقلت: إي والله يا أمير المؤمنين أشدّ المشقّة! إنى لمحدّثك منذ شهرين لم أفدك إلا أبيات النابغة فى الغلام، ثم قال: يا شعبىّ، إنما أعلمناك هذا، لأنّه بلغنى أنّ أهل العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدولة، فلن يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق؛ ثم ردّد عليّ أبيات ليلى حتى حفظتها، وأذن لى فانصرفت، فكنت أول داخل/ وآخر خارج.
*** قال سيدنا أدام الله تمكينه: والصحيح فى الرواية أن البيتين اللذين رواهما عبد الملك ونسبهما إلى ليلى الأخيلية لأعشى باهلة (3)، يرثى المنتشر بن وهب الباهلىّ (4)، وهذه القصيدة

---

(1) حاشية الأصل: «الحرض: الّذي أذيب حزنا وهما». والحرض يوصف به المفرد، مذكرا ومؤنثا، والمثنى والجمع بلفظ واحد.
(2) ديوانها: 92.
(3) ذكره الآمدي فى المؤتلف والمختلف ص 14 فقال: «أعشى باهلة يكنى أبا قحفان، جاهلى، واسمه عامر بن الحارث، أحد بنى عامر ابن عوف بن وائل بن معن، ومعن أبو باهلة، وباهلة امرأة من همدان، وهو الشاعر المشهور صاحب القصيدة المرثية فى أخيه لأمه، المنتشر».
(4) هو المنتشر بن وهب بن سلمة بن كراثة بن هلال بن عمرو-

من المراثى المفضّلة المشهورة بالبلاغة والبراعة وهى (1):

إنى أتتنى لسان لا أسرّ بها ... من علو لا عجب منها ولا سخر (2)
فظلت مكتئبا حرّان أندبه ... وكنت أحذره، لو ينفع الحذر!
فجاشت النّفس لما جاء جمعهم ... وراكب جاء من تثليث معتمر (3)
يأتى على الناس لا يلوى على أحد ... حتى التقينا، وكانت بيننا مضر (4)

***

إنّ الّذي جئت من تثليث تندبه ... منه السماح ومنه النّهى والغير (5)

ابن سلامة؛ كان رئيسا فارسا، وكان رئيس الأبناء يوم أرمام، وهو أحد يومى مضر فى اليمن وكان يوما عظيما. (خزانة الأدب 1: 91).

(1) القصيدة فى الأصمعيات 32 – 34، وأمالى اليزيدى 13 – 18، وجمهرة الأشعار 280 – 283، والكامل– شرح المرصفى 8: 211 – 212، وملحقات ديوان الأعشى 266 – 268، ونقلها صاحب الخزانة عن الغرر فى 1: 91 – 92. وذكر أبو العباس المبرد خبر هذه القصيدة فقال: «كانت العرب تقدم مراثى وتفضلها وترى قائلها بها فوق كل مؤبن؛ وكأنهم يرون ما بعدها من المراثى؛ منها أخذت، وفى كنفها تصلح؛ فمنها قصيدة أعشى بأهلة، ويكنى أبا قحافة التى يرثى بها المنتشر بن وهب الباهلى– وكان أحد رجلي العرب، وهم السعاة السابقون فى سعيهم، وكان من خبره أنه أسر صلاءة بن العنبر الحارثى، فقال: افد نفسك، فأبى فقال: لأقطعنك أنملة أنملة وعضوا عضوا ما لم تفتد نفسك، فجعل يفعل ذلك به حتى قتله. ثم حج من بعد ذلك ذا الخلصة (وهو بيت كانت خثعم تحجه)، فدلت عليه بنو نفيل بن عمرو بن كلاب الحارثيين فقبضوا عليه، فقالوا: لنفعلن بك كما فعلت بصلاءة، ففعلوا ذلك به، فلقى راكب أعشى باهلة، فقال له أعشى باهلة: هل من جائية خبر؟ قال: نعم، أسرت بنو الحارث المنتشر– وكانت بنو الحارث تسمى المنتشر مجدعا– فلما صار فى أيديهم قالوا:

لنقطعنك كما فعلت بصلاءة؛ فقال أعشى باهلة يرثى المنتشر ... ». وأورد القصيدة.

(2) اللسان هنا: الرسالة، وأراد بها نعى المنتشر، ولهذا أنث الفعل. وعلو، يريد من مكان عال، ورواية لمبرد: «من عل» (بالضم)؛ وفى حاشية الأصل: «لا سخر، أى لا أقول ذلك سخرية، وقيل معناه:

ولا سخر بالموت».

(3) جاشت نفسه، أى غثت. وتثليث: موضع بالحجاز قرب مكة؛ ذكره ياقوت واستشهد بالبيت ومعتمر: صفة لراكب؛ وهو بمعنى زائر. وفى حاشية الأصل: «جمعهم، يعنى الذين شهدوا مقتله».

(4) حاشية الأصل (من نسخة): «يأبى على الناس»، وفيها أيضا: «لا يلوى على أحد، أى لم يعرج على أحد حتى أتانى؛ لأنى كنت خلصانه».

(5) أى فقلت للراكب: إن الّذي جئت ... ، وتندبه:

تبكى عليه، يقال: ندب الميت، أى بكى عليه وعدد محاسنه. والغير: اسم من غيرت الشيء فتغير، أقامه مقام الأمر.

تنعى امرأ لا تغبّ الحىّ جفنته ... إذا الكواكب أخطأ (1) نوءها المطر (2)
وراحت الشّول مغبرّا مناكبها (3) ... شعثا تغيّر منها النّىّ والوبر (4)
وألجأ الكلب موقوع الصّقيع به (5) ... وألجأ الحىّ من تنفاحها الحجر (6)
عليه أوّل زاد القوم قد علموا ... ثمّ المطىّ إذا ما أرملوا جزر (7)
قد تكظم البزل منه حين تبصره (8) ... حتّى تقطّع فى أعناقها الجرر (9)
أخو رغائب يعطيها ويسألها ... يأبى الظّلامة منه النّوفل الزّفر (10)

---

(1) من نسخة مجاشبتى الأصل، ف: «خوّى، وخوّى سقط، من قولك: خوت لدار: خلت أو سقطت، ومعنى خوّى فى البيت: نسب الخىّ إلى
النجوم وهو المحل، يقال: خوت النجوم إذا أمحلت، خيا».
(2) النعى: خبر الموت، قال الأصمعى: كانت العرب إذا مات ميت له قدر، ركب راكب فرسا، وجعل يسير فى الناس ويقول: نعاء فلانا! أى انعه وأظهر خبر وفاته، مبنية على الكسر. ولا يغب، من قولهم: لا يغبنا عطاؤه، أى لا يأتينا يوما دون يوم؛ بل يأتينا كل يوم.
والجفنة: القصعة. وأخطأه كتخطاه: تجاوز. والنوء: سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبة من المشرق، يقابله من ساعته كل ليلة إلى ثلاثة عشر يوما؛ وهكذا إلى انقضاء السنة، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، يريد أن جفانه لا تنقطع فى الشدة والقحط.
(3) حاشية الأصل: «رواية الأصمعى: «مبامتها» أى مراحها».
(4) الشول: النوق التى خف لبنها وقد أتى عليها سبعة أشهر أو ثمانية من يوم نتاجها، الواحدة شائلة. والنىّ بالفتح: الشحم.
(5) حاشية الأصل (من نسخة):
* وأحجر الكلب موقوع الصّقيع به*
وأحجرته أنا: ألجأته إلى الحجر.
(6) الصقيع: الجليد. وتنفاحه: ضربه، وهو مصدر نفحت الريح إذا هبت باردة؛ يقول: إنه لا ينقطع عن إطعام الطعام فى شدة البرد حينما يضطر الكلب ما بتلبد على شعره من الجليد الأبيض إلى الدخول فى الحجر».
(7) يريد أنه يرتب على نفسه زاد أصحابه أولا، وإذا فنى الزاد نحر لهم. وأرمل الرجل: نفد زاده. وجزر: قطع، يقال تركهم جزرا للسباع.
(8) حاشية الأصل: فى رواية:

* وتفزع الشّول منه حين يفجؤها*.
(9) كظم البعير كظوما: إذا أمسك عن الجرة، والبزل: جمع بازل؛ وهو الجمل إذا دخل فى التاسعة.
والحرر: جمع جرة؛ وهى ما يخرجه البعير للاجترار. يقول: تعودت الإبل أنه يعقر منها، فإذا رأته كظمت على جرتها فزعامته.
(10) الرغيبة: العطاء الكثير. والنوفل: الكبير العطاء.
والزفر: الكثير الناصر والعدد والعدد «ومنه» للتجريد.

لم تر أرضا ولم تسمع بساكنها ... إلّا بها من نوادى وقعه أثر (1)
وليس فيه إذا استنظرته عجل ... وليس فيه إذا ياسرته عسر
فإن يصبك عدوّ فى مناوأة ... يوما، فقد كنت تستعلى وتنتصر
من ليس فى خيره منّ يكدّره ... على الصّديق، ولا فى صفوه كدر
أخو شروب، ومكساب إذا عدموا ... وفى المخافة منه الجدّ والحذر (2)
مردى حروب، ونور يستضاء به ... كما أضاء سواد الظّلمة القمر (3)
/ مهفهف أهضم الكشحين منخرق ... عنه القميص لسير اللّيل محتقر (4)
طاوى المصير على العزّاء منجرد ... بالقوم ليلة لا ماء ولا شجر (5)
لا يصعب الأمر إلّا ريث يركبه ... وكلّ أمر سوى الفحشاء يأتمر
معنى «لا يصعب الأمر» أى لا يجده صعبا-
لا يتأرّى لما فى القدر يرقبه ... ولا يعضّ على شرسوفه الصّفر (6)

---

(1) نوادى كل شيء: أوله.
(2) شرب: جمع شرب؛ وهو جمع شارب؛ كصحب وصاحب، ومكساب: اسم مبالغة من كاسب، وفى حاشية الأصل: «نسخة ص: أخو حروب».
(3) المردى فى الأصل: حجر يرمى؛ والمعنى:
أنه شجاع يقذف فى الحروب ويرجم فيها؛ وفى حاشية الأصل (من نسخة):
مردى حروب شهاب يستضاء به ... كما أضاء سواد الطّخية القمر
والطخية، بالفتح وبضم: الظلمة.
(4) المهفهف: الخميص البطن الدقيق الخصر. والأهضم: المنضم الجنبين. والكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف؛ وهو مما تمدح به العرب. ويقال: رجل منخرق السربال؛ إذا طال سفره فشققت ثيابه؛ وهو كناية عن الجلادة وتحمل المشقات.
(5) المصير: جمع مصران، والعزاء: الشدة والجهد؛ والمنجرد: المشمر نشاطا، ومن نسخة بحاشية الأصل: «منصلت». وقوله: «ليلة لا ماء ولا شجر»، أى يرعى. وفى الخزانة بعد هذا البيت:
لا يهتك السّتر عن أنثى يطالعها ... ولا يشدّ إلى جاراته النّظر.

(6) لا يتأرى: لا يتحبس ويتلبث؛ يقال: تأرى بالمكان إذا أقام فيه. الشرسوف: طرف الضلع والصفر– فيما يزعم العرب: حية تكون فى البطن إذا جاع الإنسان عضته؛ وقد كذبه النبي عليه السلام بقوله:
«لا عدوى ولا هامة ولا صفر».

لا يغمز السّاق من أين ولا وصب ... ولا يزال أمام القوم يقتفر (1)
لا يأمن النّاس ممساه ومصبحه ... فى كلّ فجّ، وإن لم يغز ينتظر (2)
تكفيه حزّة فلذ إن ألمّ بها ... من الشّواء ويروى شربه الغمر (3)
لا تأمن البازل الكوماء عدوته (4) ... ولا الأمون إذا ما اخروّط السّفر (5)
كأنّه بعد صدق الناس أنفسهم ... باليأس تلمع من قدّامه البشر (6)
قال المبرّد" لا نعلم بيتا فى يمن النقيبة وبركة الطلعة أبرع من هذا البيت"–
لا يعجل القوم أن تغلى مراجلهم ... ويدلج اللّيل حتى يفسح البصر (7)
[عشنا به حقبة حيّا ففارقنا] (8) ... كذلك الرّمح ذو النّصلين ينكسر (9)
أصبت فى حرم منّا أخا ثقة ... هند بن أسماء، لا يهنى لك الظّفر (10)
! ... لو لم تخنه نفيل وهى خائنة ... لصبّح القوم ورد ماله صدر (11)

---

(1) يصف جلده وتحمله للمشاق، والأين: الإعياء، والوصب: الوجع، والاقتفاء: تتبع الآثار.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «من كل أوب».
(3) الحزة: قطعة من اللحم قطعت طولا؛ والفلذ: كبد البعير والجمع أفلاذ. وألم بها: أصابها. والغمر: قدح صغير لا يروى.
(4) حاشية الأصل: «نسخة ص: «ضربته».
(5) البازل: البعير الّذي فطر نابه بدخوله فى السنة التاسعة، ويقال للناقة أيضا. والكوماء: الناقة العظيمة السنام. والعدوة: التعدى. والأمون:
الناقة الموثقة الخلق، واخروط: امتد.
(6) البشر: جمع بشير، وفى حاشية الأصل: «أى إذا يئس الناس من أمورهم ووطنوا نفوسهم على اليأس فالبشائر تلمع من قدامه».
(7) حتى يفسح البصر، أى يجد متسعا من الصبح؛ وفى حاشية الأصل: «أى هو رابط الجأش عند الفزع، لا يستخفه الفزع فيجعل أصحابه عن الإطباخ».
(8) حاشية الأصل (من نسخة):
* عشنا بذلك دهرا ثم ودّعنا*.
(9) النصلان هما: السنان– وهى الحديدة العليا من الرمح– والزج، وهو الحديدة السفلى: ويقال: هما الزجان أيضا؛ وهو مثل. وفى حاشية الأصل: «رواية الأصمعى بعد قوله «ينكسر»:

فإن جزعنا فقد هدّت مصابتنا ... وإن صبرنا فإنا معشر صبر
والمصابة: المصيبة، والصبر: جمع صبور، مبالغة صابر».
(10) حاشية الأصل: «هند بن أسماء:
من قبيلة نفيل، قاتل المنتشر»، وأراد بالحرم ذا الخلصة.
(11) صبحه: سقاه الصبوح؛ وهو الشرب بالغداة، أراد: أنه كان يقتلهم.

وأقبل (1) الخيل من تثليث مصغية ... وضمّ أعينها عوران أو حضر (2)
إمّا سلكت سبيلا كنت سالكها ... فاذهب فلا يبعدنك الله منتشر
قال رحمه الله: وقد رويت هذه القصيدة للدّعجاء أخت المنتشر، وقيل لليلى أخته، ولعل الشبهة الواقعة فى نسبتهما إلى ليلى الأخيلية من هاهنا والصحيح، ما ذكرناه.
*** أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم عن أبى عبيدة قال: وفد الأخطل على معاوية فقال: إنى قد امتدحتك بأبيات فاسمعها، فقال: إن كنت شبّهتنى بالحية أو الأسد أو الصّقر فلا حاجة لى فيها؛ وإن كنت قلت فىّ كما قالت الخنساء (3):
وما بلغت كفّ امرئ متناول (4) ... به المجد إلّا حيث ما نلت أطول (5)
وما بلغ المهدون فى القول مدحة ... وإن صدقوا إلّا الّذي فيك أفضل
فهات، فقال الأخطل: والله لقد أحسنت وقلت بيتين؛ ما هما بدون ما سمعته، وأنشد:
إذا متّ مات العزّ (6) وانقطع الغنى ... فلم يبق إلّا من قليل مصرّد (7)

---

(1) حاشية الأصل: «قبل، بمعنى أقبل، ويعدّى بالألف، تقول: أقبلته أنا جعلته مقبلا، وأقبلته الشيء أى جعلته يلى قبالته؛ يقال: أقبلت الرماح نحو القوم، وأقبلت الإبل أفواه الوادى».
(2) عوران وحضر: موضعان. ف: «خوان»، د، م: «رغوان». وهو يوافق ما فى الخزانة، وفى حاشية الأصل (من نسخة): «روعان»، وفيها أيضا: «فى نسخة ديوانه: رعوان، جوان، خوان»، هذه كلها مواضع».
(3) ديوانها: 481.
(4) م: «متطاول».
(5) رواية اللسان (طول):
* من المجد إلّا والّذي نلت أطول*.
(6) ف: «العرف».
(7) مصرد: مقلل، وفى حاشية الأصل: «أى لم يبق الغنى إلا من قبل عطاء قليل».

وردّت أكفّ الرّاغبين وأمسكوا ... من الدّين والدّنيا بخلف مجدّد (1)
فأحسن صلته.
وأخبرنا المرزبانىّ قال أخبرنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد النحوىّ قال أخبرنا أحمد بن يحيى النحوىّ أن ابن الأعرابىّ أنشدهم:
مررنا عليه وهو يكعم كلبه ... دع الكلب ينبح؛ إنما الكلب نابح
قوله «يكعم كلبه» - أى يشدّ فاه خوفا أن ينبح فيدل عليه.
وقال آخر:
وتكعم كلب الحىّ من خشية القرى ... ونارك كالعذراء من دونها ستر (2)
قال: وقد قال الأخطل:
قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ... قالوا لأمّهم بولى على النار
قال أبو عبد الله: وسمعت محمد بن يزيد الأزدىّ يقول: هذا من أهجى ما هجى به جرير، لأنه جعل نارهم تطفئها البولة، وجعلهم يأمرون أمهم بالبول استخفافا بها.

---

(1) حاشية الأصل: «منقطع اللبن، من قولهم: ناقة جداء؛ يقال: ناقة مجددة الأخلاف إذا ضربها الصرار وقطعها، وتجدد ضرع الناقة ذهب لبنه». وفيها أيضا: «لما احتضر عبد الملك بن مروان غشى عليه، ثم أفاق، فسمع امرأة تقول: مات أمير المؤمنين: فتمثل بهذين البيتين».
(2) اللسان (كعم) من غير عزو.

مجلس آخر 51
تأويل آية [رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ]
إن سأل سائل فقال: ما تأويل قوله تعالى: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ؛ [آل عمران: 8].
أوليس ظاهر الآية يقتضي أنه تعالى يجوز أن يزيغ القلوب عن الإيمان حتى تصحّ مسألته تعالى ألّا يزيغها، ويكون هذا الدعاء مفيدا؟
الجواب، قلنا فى هذه الآية وجوه:
أوّلها أن يكون المراد بالآية: ربنا لا تشدّد علينا المحنة فى التكليف، ولا تشق علينا فيه، فيفضى بنا ذلك إلى زيغ القلوب منّا بعد الهداية؛ وليس يمتنع أن يضيفوا ما يقع من زيغ قلوبهم عند تشديده تعالى عليهم المحنة إليه؛ كما قال عز وجل فى السورة: إنّها (1) زادتهم رجسا إلى رجسهم، وكما قال مخبرا عن نوح عليه السلام: فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً؛ [نوح: 6].
فإن قيل: كيف يشدّد عليهم فى المحنة؟
قلنا: بأن يقوّى شهواتهم، لما قبحه فى عقولهم، ونفورهم (2) عن الواجب عليهم، فيكون التكليف

عليهم بذلك شاقا، والثواب المستحقّ عليهم عظيما متضاعفا وإنما يحسن أن يجعله شاقا تعريضا لهذه المنزلة.
وثانيها أن يكون ذلك دعاء بالتثبيت لهم على الهداية، وإمدادهم بالألطاف التى معها يستمرّون على الإيمان.
فإن قيل: وكيف يكون مزيغا لقلوبهم بألّا يفعل اللّطف؟

---

(1) الضمير يعود إلى المحنة؛ والآية فى سورة التوبة: 125: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «ونقارهم».

قلنا: من حيث كان المعلوم أنه متى قطع إمدادهم بألطافه وتوفيقاته زاغوا وانصرفوا عن الإيمان.
ويجرى هذا مجرى قولهم: اللهم لا تسلّط علينا من لا يرحمنا؛ معناه لا تخلّ بيننا وبين من لا يرحمنا فيتسلّط علينا؛ ومثله قول الشاعر:
أتانى ورحلى بالمدينة وقعة ... لآل تميم أقعدت كلّ قائم
أراد: قعد لها كل قائم؛ فكأنهم قالوا: لا تخلّ بيننا وبين نفوسنا وتمنعنا ألطافك، فنزيغ ونضلّ.
وثالثها ما أجاب به أبو عليّ الجبائى محمد بن عبد الوهاب، لأنه قال: المراد بالآية ربّنا لا تزغ قلوبنا عن ثوابك ورحمتك. ومعنى هذا السؤال أنهم سألوا الله تعالى أن يلطف لهم فى فعل الإيمان؛ حتى يقيموا عليه ولا يتركوه فى مستقبل عمرهم، فيستحقوا بترك الإيمان أن تزيغ قلوبهم عن الثواب، وأن يفعل بهم بدلا منه العقاب.
فإن قال قائل: فما هذا الثواب الّذي هو فى قلوب المؤمنين؛ حتى زعمتم أنّهم سألوا الله تعالى ألّا يزيغ قلوبهم عنه؟ وأجاب بأنّ من الثواب الّذي فى قلوب المؤمنين ما ذكره الله تعالى من الشرح والسّعة بقوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ؛ [الأنعام: 125]؛ وقوله تعالى لرسوله/ عليه وآله السلام: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [الشرح: 1] وذكر أن ضدّ هذا الشرح هو الضّيق والحرج اللّذان يفعلان بالكفار عقوبة، قال: ومن ذلك أيضا التطهير الّذي يفعله فى قلوب المؤمنين، وهو الّذي منعه الكافرين، فقال تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ؛ [المائدة: 41].
قال: ومن ذلك أيضا كتابته الإيمان فى قلوب المؤمنين، كما قال الله تعالى: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [المجادلة: 22] وضدّ هذه الكتابة هى سمات الكفر التى فى قلوب الكافرين؛ فكأنهم سألوا الله تعالى ألّا يزيغ قلوبهم عن هذا الثواب إلى ضده من العقاب.

ورابعها أن تكون الآية محمولة على الدعاء بألّا يزيغ القلوب عن اليقين والإيمان. ولا يقتضي ذلك أنّه تعالى سئل ما كان لا يجب أن يفعله، وما لولا المسألة لجاز فعله؛ لأنّه غير ممتنع أن يدعوه على سبيل الانقطاع إليه، والافتقار إلى ما عنده بأن يفعل تعالى ما نعلم أنه لا بدّ من أن يفعله، وبألّا يفعل ما نعلم أنه واجب ألّا يفعله؛ إذا تعلق بذلك ضرب من المصلحة؛ كما قال تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ؛ [الشعراء: 87] وكما قال فى تعليمنا ما ندعو به: قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ؛ [الأنبياء: 112] وكقوله تعالى: رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ؛ [البقرة: 286]، على أحد الأجوبة:

وكل ما ذكرناه واضح بين بحمد الله.

*** قال سيدنا أدام الله تمكينه: وإنى لأستحسن قول الراعى فى وصف الأثافىّ والرماد، فقد (1) طبّق وصفه المفصل، مع جزالة الكلام وقوته واستوائه واطراده:

وأورق مذ عهد ابن عفّان حوله ... حواضن ألّاف على غير مشرب

وراد الأعالى أقبلت بنحورها ... على راشح ذى شامة متقوّب

كأنّ بقايا لونه فى متونها ... بقايا هناء فى قلائص مجرب

الأورق: الرّماد، جعل الأثافىّ له كالحواضن؛ لاحتضانها له واستدارتها حوله.

وأراد بوراد الأعالى أن ألوانها تضرب إلى الحمرة، وخصّ الأعالى؛ لأنها مواضع القدر فلا تكاد/ تسودّ.

والراشح: هو الراضع؛ وإنما شبّه الرماد بينهن بفصيل بين أظآر.

والمتقوّب: الّذي قد انحسر أعلاه.

وشبّه ما سوّدت النار منهن بأثر قطران على قلائص جربى. والمجرب: الّذي قد جربت إبله.

ونظير هذا المعنى بعينه، أعنى تشبيه تسويد النار بالهناء قول ذى الرّمة:

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فلقد».

عفا الزّرق من أطلال ميّة فالدّحل ... فأجماد حوضى حيث زاحمها الحبل (1)

سوى أن يرى سوداء من غير خلقة ... تخاطأها، وارتثّ جاراتها النّقل (2)

من الرّضمات البيض غيّر لونها ... بنات فراض المرخ واليابس الجزل

كجرباء دسّت بالهناء فأفصيت ... بأرض خلاء أن تقاربها الإبل

قوله: «سوداء من غير خلقة» يعنى أثفيّة؛ لأن السواد ليس بخلقة بها؛ وإنما سوّدتها النار.

وقوله: تخاطأها النقل، أى تجاوزها فلم تحمل من مكان إلى مكان؛ بل بقيت منفردة.

وارتثّ جاراتها: يعنى بجاراتها؛ أى نقلن عنها الأثافىّ اللواتى كنّ معها. والمرتثّ:

هو المنقول من مكان إلى مكان؛ وأصل ذلك فى الجريح والعليل؛ يقال ارتثّ الرجل ارتثاثا إذا حمل من المعركة وبه رمق. قال النضر بن شميل: معنى ارتثّ صرع. وقال أبو زيد:

هو مأخوذ من قولهم ارتثثنا رثّة القوم إذا جمعوا رديء متاعهم بعد أن يتحملوا من موضعهم؛ وكلا

المعنيين يليق ببيت ذى الرّمة؛ لأنه قد يجوز أن يريد [بقوله: «وارتثّ جاراتها»، أى نقلن عنها، ويجوز أن يريد] (3): صرعن وبقيت ثابتة قائمة.
والرّضات: حجارة بيض بعضها على بعض. والفراض: جمع فرض، وهو الحزّ يكون فى الزند وعنى ببنات فراض المرخ شرر النار الخارجة من ذلك الفرض. والمرخ: شجر تتخذ منه الرندة. ومن أمثالهم: «فى كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار (4)»، وهذا المثل يضرب للرجل الكريم الّذي يفضل على القوم ويزيد عليهم؛ فكأن المعنى: كلّ القوم كرام وأكرمهم فلان.

---

(1) ديوانه: 454. الزرق: أكثبة بالدهناء؛ والدحل وحوضى: موضعان؛ والأجماد: جمع جمد؛ وهى الأرض الغليظة فى صلابة الجبل، ويعنى بالجبل حبل الرمل، وهو رمل مستطيل.
(2) من نسخة بحاشية الأصل: «تخطأها».
(3) ساقط من م.
(4) المثل فى مجمع الأمثال للميدانى (2: 18)؛ قال: استمجد المرخ والعفار؛ أى استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما؛ شبها بمن يكثر العطاء طلبا للمجد لأنهما يسرعان الورى».

ومعنى «كجرباء دسّت بالهناء» أنه شبه الأثفيّة المفردة بناقة جرباء قد أفردت وأبعدت عن الإبل حتى لا تجربها ولا تعديها. ومعنى دسّت بالهناء، طليت به.
وفى معنى قول الراعى: «وراد الأعالى» شبه من قول الشّماخ بن ضرار:
/ أقامت على ربعيهما جارتا صفا ... كميتا الأعالى جونتا مصطلاهما (1)
يعنى «بربعيهما» منزلى الامرأتين (2) اللتين ذكرهما، ويعنى «بجارتا صفا» الأثفيّتين؛ لأنهما مقطوعتان من الصّفا الّذي هو الصّخر. ويمكن فى قوله: «جارتا صفا» وجه آخر هو أحسن من هذا؛ وهو أنّ الأثفيّتين توضعان قريبا من الجبل، لتكون حجارة الجبل ثالثة لهما، وممسكة للقدر معهما؛ ولهذا تقول العرب: رماه بثالثة الأثافىّ؛ أى بالصخرة أو الجبل، وشبه أعلاهما بلون الكميت؛ وهو لون الحجر نفسه؛ لأن النار لم تصل إليه فتسوده (3).
ومصطلاهما جون أى أسود؛ لأنّ النار قد سفعته وسوّدته.
وقال الراعى فى وصف الأثافىّ أيضا:
أذاع بأعلاه، وأبقى شريده ... ذرا مجنحات بينهنّ فروج
كأنّ بجزع الدّار لمّا تحمّلوا ... سلائب ورقا بينهنّ خديج
أذاع بأعلاه، يعنى الرماد؛ لأن السافى (4) يطيّر ظاهره وما علا منه.
وأبقى شريده، أى بقى (5) لما شرد على السافى فلم يطر.
وذرا لجنحات يعنى الأثافىّ. وذرا كل شيء: جانبه وما استذريت به منه. والمجنحات: المسبلات منه.

---

(1) ديوانه 86.
(2) فى حاشيتى الأصل، ف: «منزلتى المرأتين».
(3) حاشية الأصل: ويمكن فى «جارتا صفا» وجه آخر؛ وهو أحسن من هذا؛ وهو أن الأثفيتين توضعان قريبا من الجبل، لتكون حجارة الجبل
ثالثة الأثافى وممسكة للقدر معهما؛ ولهذا يقال: رماه بثالثه الأثافى؛ أى الصخرة أو الجبل».
(4) السافى: الريح التى تسقى التراب.
(5) حاشية الأصل (من نسخة): «يبقى».

(2/30)

والسلائب: جمع سلوب؛ وهى الناقة التى قد سلبت ولدها بموت أو نحر؛ فقد عطفت على حوار آخر.
والخديج: الّذي قد سقط لغير تمام.
والورق: اللواتى ألوانهن كلون الرماد.
وفى معنى قول الراعى: «وأبقى شريده ذرا مجنحات» قول المخبّل السعدىّ:
وأرى لها دارا بأغدرة السيّ ... دان لم يدرس لها رسم (1)
إلّا رمادا هامدا دفعت ... عنه الرّياح خوالد سحم (2)
إلا هاهنا: بمعنى الواو، فكأنه قال: وأرى رمادا هامدا، ولولا أن «إلّا» هاهنا بمعنى الواو لفسد الكلام ونقض آخره أوّله، لأنه يقول فى آخر البيت: إنّ الخوالد السّحم دفعت عنه الرياح، فكيف يخبر بأنه قد درس، وإنما أراد أنّه باق ثابت، لأنّ الأثافىّ دفعت عنه الرياح فلم يستثنه، إذن هو من جملة ما لم يدرس، بل هو داخل فى جملته.
وللراعى أيضا فى الأثافىّ:
أنخن وهنّ أغفال عليها ... فقد ترك الصّلاء بهنّ نارا
/ شبه الأثافىّ بنوق أنخن أغفالا، ليست عليهنّ سمة؛ ثم أخبر أنّ الوقود أثّر فيهن أثرا كالسّمة، والنار السمة، تقول العرب: ما نار بعيرك؟ أى، ما سمته؟ وفى أمثالهم: «نجارها نارها»، أى سمتها تدلّ على كرمها، يضرب ذلك للرجل ترى له ظاهرا حسنا يدلّ على باطن خبره.

---

(1) من قصيدة فى المفضليات 113 – 118، مطلعها:
ذكر الرباب وذكرها سقم ... فصبا وليس لمن صبا حلم
وأغدرة: جمع غدير. والسيدان: أرض لبنى سعد؛ والرسم: الأثر بلا شخص؛ ودروسه: ذهابه؛ يريد: لم يذهب كله.
(2) الخوالد: البواقى، عنى بها الأثافى. بسحم: من السحمة؛ وهو لون يضرب إلى السواد.

(2/31)

وقال عدىّ بن الرّقاع العامليّ:
إلّا رواكد كلّهنّ قد اصطلى ... حمراء أشعل أهلها إيقادها (1)
كانت رواحل للقدور فعرّيت ... منهنّ، واستلب الزّمان رمادها
وقال الأسعر الجعفىّ:
إلّا رواكد بينهنّ خصاصة ... سفع المناكب، كلّهنّ قد اصطلى (2)
وقال حميد بن ثور:
فتغيّرت إلّا ملاعبها ... ومعرّسا من جونة ظهر (3)
عرش الثّقاب لها بدار مقامة ... للحىّ بين نظائر وتر
الجونة: القدر: ويقال: قدر ظهر، وقدور ظهور، إذا كانت قديمة (4). وعرش، أى جعل مثل العريش، يعنى الوقود. والثّقاب: ما أثقبت به النار من الوقود. والنظائر: هى الأثافىّ: والوتر: الفرد، وأراد أنها ثلاث.
وقال الكميت بن زيد:
ولن تحيّيك أظآر معطّفة ... بالقاع، لا تمك فيها ولا ميل
ليست بعوذ، ولم تعطف على ربع ... ولا يهيب بها ذو النيّة الإبل
يعنى الأثافىّ، فشبّه عطفها على الرماد بنوق أظآر قد عطفن على فصيل. والتّمك: انتصاب السنام. والميل: من صفة السّنام أيضا.
والعائذ من النّوق: التى يتبعها ولدها. والرّبع: الّذي نتج فى أول الربيع. والإهابة: الدعاء؛ أهاب بإبله إذا دعاها. وذو النية: الّذي قد نوى الرّحيل. الإبل: صاحب الإبل.

---

(1) الطرائف الأدبية 87 مع اختلاف فى الرواية.
(2) البيت فى أمالى القالى 1: 45 غير منسوب، ونسبه فى اللآلي: 189 للرخيم العبدى، وفى م نسب إلى مالك الجعفى، والبيت ليس فى قصيدة الأسعر التى فى أول الأصمعيات.
(3) ديوانه: 93. المعرس: مكان تعريس القوم فى السفر فى آخر الليل.
(4) فى اللسان: «وقدر ظهر: قديمة؛ كأنها تلقى وراء الظهر لقدمها»، واستشهد بالبيت.

وقال ذو الرّمة:
فلم يبق إلّا أن ترى فى محلّه ... رمادا نحت عنه السيول جنادله (1)
/ كأنّ الحمام الورق فى الدّار وقّعت (2) ... على حرق بين الظّنور جوازله
شبه الأثافىّ بالحمام الورق؛ وجعلها ظئورا لتعطّفها على الرماد؛ وشبه الرّماد بفرخ حرق قد سقط ريشه. والجوازل: الفراخ. واحدها جوزل.
وقال البعيث:

ألا حيّيا الرّبع القواء وسلّما ... ورسما كجثمان الحمامة أدهما
قيل إن الحمام هاهنا القطاة؛ وإنه شبّه ألوان الرسوم من الرّماد، وموقد نار، ودمنة، ومجرّ طنب، وما أشبه هذه الأشياء بألوان ريش قطاة.
ومثله لجرير:
كأنّ رسوم الدّار ريش حمامة ... محاها البلى واستعجمت أن تكلّما (3)
ولقد أحسن كلّ الإحسان كثيّر فى قوله:
أمن القيلة بالدّخول رسوم ... وبحومل طلل يلوح قديم (4)
لعب الرّياح برسمه فأجدّه ... جون عواكف فى الرّماد جثوم
سفع الخدود كأنّهنّ وقد مضت ... حجج عوائد بينهنّ سقيم
وقيل فى قوله: «فأجدّه جون عواكف» يعنى الأثافىّ، لأن الريح لما كشفت عنها، وظهرت صارت هى كأنها أجدّت الرّسم. ويحتمل وجه آخر، وهو أن يكون معنى «أجدّت» أنّها حمت الرماد الّذي أحاطت به عن لعب الرّياح، فبقى بحاله يستدلّ به المترسم (5)،

---

(1) ديوانه: 465. نحت: صرفت؛ وفى الديوان: «نفت»، والجنادل: الحجارة.
(2) وقعت: ربضت، وفى الديوان: «جثمت».
(3) ديوانه: 543.
(4) ديوانه 1: 253.
(5) حاشية الأصل (من نسخة): «المتوسم».

فكأن الرياح درست الربع ومحته إلّا ما أجدّته هذه الأثافىّ من الرماد، ومنعت الريح منه، ويجرى ذلك مجرى قول المخبّل:
إلّا رمادا هامدا ... ... البيت ...
وقال المرار الفقعسيّ فى الأثافىّ:
أثر الوقود على جوانبها ... بخدودهنّ كأنّه لطم
ويقال إن أبا تمام الطائىّ أخذ ذلك فى قوله:
قفوا نعط المنازل من عيون ... لها فى الشّوق أحساء غزار (1)
عفت آياتهنّ، وأىّ ربع ... يكون له على الزّمن الخيار!
/ أثاف كالخدود لطمن حزنا ... ونؤي مثل ما انفصم السّوار
وقد عاب عليه قوله: «لطمن حزنا» بعض من لا معرفة له، وقال: لا فائدة فى قوله «حزنا»، ولذلك فائدة؛ وذلك أنّ لطم الحزن يكون أوجع وأبلغ، فتأثيره أظهر وأبين؛ وقد يكون اللطم لغير الحزن؛ فأما قوله.
* ونؤي مثل ما انفصم السوار*

فمأخوذ من قول الشاعر:
نؤي كما نقص الهلال محاقه (2) ... أو مثلما فصم السّوار المعصم
وقد شبّه الناس النّؤى بالسوار والخلخال كثيرا، وبغير ذلك، قال كثيّر:
عرفت لسعدى بعد عشرين حجّة ... بها درس نؤي فى المحلّة منحن (3)
قديم كوقف العاج ثبّت حوله ... مغارز أوتاد برضم موضّن

---

(1) ديوانه: 140؛ والرواية فيه: «قفا نعط». وأحساء: جمع حسى؛ وهو الماء تحت الرمل، ينبط بالأيدى.
(2) المحاق، مثلثة: آخر الشهر.
(3) ديوانه: 1: 58.

– الوقف: السوار من الذّبل ومن العاج. والرّضم: صخور عظام. والموضّن: الّذي يعضه فوق بعض.
وقال بشار:
ونؤي كخلخال الفتاة، وصائم ... أشجّ على ريب الزمان رقوب (1)
الصائم الأشج: يعنى الوتد؛ وإنما وصفه بأنه صائم لقيامه وثباته، وجعله رقوبا لانفراده، والمرأة الرّقوب والشيخ الرّقوب: الّذي لا يعيش له ولد.
ومن مستحسن ما وصف به النؤى قول أبى تمام:
والنّؤى أهمد شطره فكأنّه ... تحت الحوادث حاجب مقرون (2)
وقال المتنبى فى ذلك:
قف على الدّمنتين بالدّوّ من ريّ ... اكخال فى وجنة جنب خال (3)
بطول كأنّهنّ نجوم ... فى عراص كأنّهنّ ليال
ونؤيّ كأنهنّ عليه ... نّ خدام خرس بسوق خدال
الخدام: جمع خدمة (4)؛ وهى الخلخال، وجعلها خرسا لأنها غير قلقة، وشبه ما أحدق به النؤى من الأرض وامتلائها بامتلاء الخلخال، من الساق الخدلة، وهى الممتلئة.

---

(1) ديوانه: 1: 181.
(2) ديوانه: 328.
(3) ديوانه: 3: 192. الدو: الأرض الواسعة المستوية القفرة؛ وريا: اسم امرأة؛ والمراد: من ريا، والخال: شامة تخالف لون الوجه. والشامة: تكون فى الوجه والجسم.
(4) الخدمة فى الأصل: سير يشد فى رسغ البعير، وبه سمى الخلخال؛ لأنه ربما كان من سيور، يركب فيه الذهب والفضة.

مجلس آخر 52

تأويل آية [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ. قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ. قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ، [البقرة: 67 – 70].

فقال: ما تأويل هذه الآيات؟ وهل البقرة التى نعتت بجميع النعوت هى البقرة المرادة باللفظ الأول والتكليف واحد، أو المراد مختلف والتكليف متغاير؟

الجواب، قلنا: أهل العلم فى تأويل هذه الآية مختلفون بحسب اختلاف أصولهم؛ فمن جوّز تأخير البيان عن وقت

الخطاب يذهب إلى أن التكليف واحد، وأن الأوصاف المتأخرة هى للبقرة المتقدّمة؛ وإنما تأخر البيان، ولما سأل القوم عن الصفات ورد البيان شيئا بعد شيء.

ومن لم يجوّز تأخير البيان يقول: إن التكليف متغاير؛ وإنهم لما قيل لهم: اذبحوا بقرة لم يكن المراد منهم إلا ذبح أىّ بقرة شاءوا، من غير تعيين بصفة، ولو أنهم ذبحوا أىّ بقرة اتفقت لهم كانوا قد امتثلوا الأمر، فلمّا لم يفعلوا كلّفوا ذبح بقرة لا فارض ولا بكر، ولو ذبحوا ما اختصّ بهذه الصفة من أىّ لون كان لأجزأ عنهم، فلمّا لم يفعلوا كلّفوا ذبح بقرة صفراء، فلما لم يفعلوا كلّفوا ذبح ما اختص بالصفات الأخيرة.

ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر، فمنهم من قال فى التكليف الأخير: إنه يجب أن يكون مستوفيا لكل صفة تقدّمت، حتى تكون البقرة مع أنها غير ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلّمة لا شية فيها، [صفراء فاقع لونها، ولا فارض ولا بكر] (1). ومنهم من قال: إنما يجب أن تكون بالصفة الأخيرة فقط، دون ما تقدم.

وظاهر الكتاب بالقول/ المبنى على جواز تأخير البيان أشبه، وذلك أنه تعالى لما كلّفهم ذبح بقرة قالوا للرسول: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ، فلا يخلو قولهم: ما هِيَ من أين يكون كناية عن البقرة المتقدّم ذكرها، أو عن التى أمروا بها ثانيا؛ على قول من يدّعى ذلك.

وليس يجوز أن يكون (2) سألوا عن صفة غير التى تقدّم ذكرها، لأن الظاهر من قولهم ما هِيَ بعد قوله لهم: اذبحوا بقرة يقتضي أن يكون السؤال عن صفة البقرة المأمور بذبحها؛ ولأنه لا علم لهم

بتكليف ذبح بقرة أخرى فيستفهموا عنها؛ وإذا صحّ أن السؤال إنما كان عن صفة البقرة المنكّرة التى أمروا فى الابتداء يذبحها فليس يخلو قوله: إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ من أن يكون كناية عن البقرة الأولى، أو عن غيرها، وليس يجوز أن يكون ذلك كناية عن بقرة ثانية، لأن ظاهر قوله: إنّها بقرة من صفتها كذا بعد قولهم: ما هِيَ يقتضي أن يكون كناية متعلقة بما تضمنه سؤالهم، ولأنّ الأمر لو لم يكن على ما ذكرناه لم يكن ذلك جوابا لهم، بل كان يجب أن يكونوا سألوه عن شيء فأجابهم عن غيره، وهذا لا يليق بالنبى عليه السلام.

على أنه لما أراد أن يكلّفهم تكليفا ثانيا عند تفريطهم فى الأول على ما يدعيه من ذهب إلى هذا المذهب قد كان يجب أن يجيبهم عن سؤالهم، وينكر عليهم الاستفهام فى غير موضعه، وتفريطهم فيما أمروا به؛ مما لا حاجة بهم إلى الاستفهام عنه، فيقول فى جواب قولهم: ما هِيَ:

---

(1) حاشية الأصل: «ش: صفراء فاقعا لونها، ولا فارضا ولا بكرا».

(2) حاشية الأصل (من نسخة): أن يكونوا».

إنما كلّفتم أىّ بقرة شئتم، وما يستحق اسم بقرة، وقد فرّطتم فى ترك الامتثال، وأخطأتم فى الاستفهام، مع وضوح الكلام، إلّا أنكم قد كلّفتم ثانيا كذا وكذا، لأن هذا مما يجب عليه بيانه؛ لإزالة الشك والإبهام واللبس؛ فلما لم يفعل ذلك، وأجاب بالجواب الّذي ظاهره يقتضي التعلّق بالسؤال علم أن الأمر على ما ذكرناه. وهب أنه لم يفعل ذلك فى أول سؤال، كيف لم يفعله مع تكرار الأسئلة والاستفهامات التى لم تقع على هذا المذهب بموقعها؟ ومع تكرر المعصية والتفريط كيف يستحسن أن يكون جميع أجوبته غير متعلّقة بسؤالاتهم؟ لأنهم يسألونه/ عن صفة شيء فيجيبهم بصفة غيره من غير بيان؛ بل على أقوى الوجوه الموجبة لتعلّق الجواب بالسؤال؛ لأنّ قول القائل فى جواب من سأله ما كذا وكذا: إنه بالصفة الفلانية صريح فى أن الهاء كناية عمّا وقع السؤال عنه؛ هذا مع قولهم: إن البقر تشابه علينا، لأنهم لم يقولوا ذلك إلا وقد اعتقدوا أن خطابهم مجمل غير مبين، فلم لم يقل: أىّ تشابه عليكم إذ إنما أمرتم فى الابتداء بأىّ بقرة كانت، وفى الثانى بما اختص باللون المخصوص من أى البقر كان؟

فإن قيل: كيف يجوز أن يأمرهم بذبح بقرة لها جميع الصفات المذكورة إلى آخر الكلام ولا يبين ذلك لهم، وهل هذا إلا تكليف ما لا يطاق!

قلنا: لم يرد منهم أن يذبحوا البقرة فى الثانى من حال الخطاب؛ ولو كانت حال الفعل حاضرة لما جاز أن يتأخر البيان، لأن تأخيره عن وقت الحاجة هو القبيح الّذي لا شبهة فى قبحه، وإنما أراد أن يذبحوها فى المستقبل، فلو لم يستفهموا ويطلبوا البيان لكان قد ورد عليهم عند الحاجة إليه.

فإن قيل: إذا كان الخطاب غير متضمّن لصفة ما أمروا بذبحه، فوجوده كعدمه، وهذا يخرجه من باب الفائدة، ويوجب كونه عبثا!

قلنا: ليس يجب ما ظننتم؛ لأن القول وإن كان لم يفد صفة البقرة بعينها فقد أفاد تكليف ذبح بقرة على سبيل الجملة؛ ولو لم يكن ذلك معلوما قبل هذا الخطاب، لصار مفيدا من حيث ذكرنا،

(2/38)

وخرج من أن يكون وجوده كعدمه. وفوائد الكلام لا يجب أن يدخلها الاقتراح، وليس يخرج الخطاب من تعلّقه ببعض الفوائد كونه غير متعلق بغيرها، وبما هو زيادة عليها.
فإن قيل: ظاهر قوله تعالى: فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ يدلّ على استبطائهم وذمّهم على التقصير فى امتثال الأمر!
قلنا: ليس ذلك صريح ذمّ، لأن كادُوا للمقاربة، وقد يجوز أن يكون التكليف صعب عليهم لغلاء ثمن البقرة التى
تكاملت لها تلك الصفات، فقد روى أنهم ابتاعوها بملء جلدها ذهبا.
على أن الذمّ يقتضي ظاهره أن يصرف إلى تقصيرهم أو تأخيرهم امتثال الأمر بعد/ البيان التام، لأن قوله تعالى: وَما كادُوا يَفْعَلُونَ إنما ورد بعد تقدّم البيان التامّ المتكرر، ولا يقتضي ذمّهم على ترك المبادرة فى الأول إلى ذبح بقرة، فليس فيه دلالة على ما يخالف ما ذكرناه.
فإن قيل: لو ثبت تقديرا أن التكليف فى البقرة متغاير، أىّ القولين اللّذين حكيتموهما عن أهل هذا المذهب أصحّ وأشبه؟ قلنا: قول من ذهب إلى أنّ البقرة إنما يجب أن تكون بالصفة الأخيرة فقط، لأن الظاهر به أشبه؛ من حيث إذا ثبت تغاير التكليف: وليس فى قوله: إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ إلى آخر الأوصاف ذكر لما تقدم من الصفات، وهذا التكليف غير الأول، فالواجب اعتبار ما تضمنه لفظه والاقتصار عليه.
فأما «الفارض» فهى المسنّة، وقيل: هى العظيمة الضخمة؛ يقال: غرب فارض، أى ضخم، والغرب الدلو؛ ويقال أيضا: لحية فارضة؛ إذا كانت عظيمة؛ والأشبه بالكلام أن يكون المراد المسنّة.
فأما «البكر» فهى الصغيرة التى لم تلد، فكأنه تعالى قال: تكون غير مسنّة، ولا صغيرة.

(2/39)

والعوان: دون المسنّة وفوق الصغيرة؛ وهى النّصف التى ولدت بطنا أو بطنين؛ يقال:
حرب عوان إذا لم تكن أول حرب وكانت ثانية؛ وإنما جاز أن يقول: بَيْنَ ذلِكَ «وبين» لا يكون إلا مع اثنين أو أكثر؛ لأن لفظة «ذلك» تنوب عن الجمل، تقول: ظننت زيدا قائما، ويقول القائل: قد ظننت ذلك.
ومعنى فاقِعٌ لَوْنُها، أى خالصة الصفرة، وقيل: إن كل ناصع اللون؛ بياضا كان أو غيره فهو فاقع.
وقيل: إنه أراد ب «صفراء» هاهنا سوداء.
ومعنى قوله تعالى: لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ أى تكون صعبة لا يذللها العمل فى إثارة الأرض وسقى الزرع.

ومعنى مُسَلَّمَةٌ، مفعلة، من السلامة من العيوب، وقال قوم: مسلّمة من الشّية، أى لا شية فيها تخالف لونها.
وقيل: لا شِيَةَ فِيها، أى لا عيب فيها؛ وقيل: لا وضح، وقيل: لا لون يخالف لون جلدها، والله أعلم بما أراد، وإياه نسأل حسن التوفيق.
*** قال سيدنا أدام الله تمكينه: كنت أظن أن المتنبى قد سبق إلى معنى قوله فى مرثية أخت سيف الدولة:
/ طوى الجزيرة حتّى جاءنى خبر ... فزعت فيه بآمالى إلى الكذب (1)
حتّى إذا لم يدع لى صدقه أملا ... شرقت بالدّمع حتّى كاد يشرق بى
حتى رأيت هذا المعنى لمسلم بن الوليد الأنصارىّ، وللبحترىّ.

(1) ديوانه 1: 87 – 88. الجزيرة: ما كان من الموصل إلى الفرات؛ وكان الخبر بوفاتها ورد إليه من حلب.

أما الّذي لمسلم فقوله فى قصيدة يرثى بها سهل بن الصباح:
وقف العفاة عليك من متحيّر ... وله الرّجاء، وذى غنى يسترجع
ومخادع السّمع النّعىّ ودونه ... خطب ألمّ بصادق لا يخدع
وقال البحترى يرثى وصيفا التركيّ:
إذا جدّ ناعيه توهّمت أنه ... يكرّر من أخباره قول مازح (1)
وكنت أظن المتنبى قد سبق إلى قوله:
يحلّ القنا يوم الطّعان بعقوتى ... فأحرمه عرضى، وأطعمه جلدى (2)
حتى رأيت هذا المعنى واللفظ بعينه لجهم بن شبل الكلابىّ من أهل اليمامة فى قوله:
ثنى قومه عن حدرجان وقد حنا ... إلى الموت دامى الصّفحتين كليم (3)
أخو الحرب، أمّا جلده فمجرّح ... كليم، وأما عرضه فسليم (4)
وكنت أظنّ البحترى قد سبق إلى معنى قوله فى الفتح بن خاقان:
حملت عليه السّيف، لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدّت، ولا حدّه نبا (5)
حتى وجدت لشاعر متقدم:
طعنت ابن دهمان بنجران طعنة ... شققت بها عنه مضاعفة السّرد
فلا الكفّ أوهت بى، ولا الرّمح خاننى، ... ولا الأدهم المنعوت حاد عن القصد
***

(1) ديوانه 1: 121.
(2) ديوانه 2: 61. عقوتى؛ أى بقربى.

(3) فى حاشيتى الأصل، ت: «الحدرجان، بالكسر: القصير؛ قال ابن دريد فى كتاب الاشتقاق: حدرجان: اسم رجل قتله أمير المؤمنين صلوات الله عليه؛ وهو فعللان؛ من قولهم: حدرجت السوط وغيره؛ إذا فتلته فتلا شديدا، ويجوز أن يكون من مقلوب دحرج».
(4) التبيان 2: 61.
(5) ديوانه 1: 56.

قال محمد بن يحيى الصولىّ: وصف الناس صفرة اللون فى العلل؛ فكلّ حكى ذلك وبلا فضيلة إلّا البحترى:
قال أعرابى من أبيات:
جعلت وما عاينت عطرا كأنّما ... جرى بين جلدى والعظام خلوق
/ وقال أبو تمام:
لم تشن وجهه المليح ولكن ... جعلت ورد وجنتيه بهارا (1)
وقال غيره:
ولم تشن شيئا ولكنّها ... بدّلت التّفّاح بالياسمين
وقال بكر بن عيسى:
علة زعفرت مورّد خدّ ... كاد من رقة وريّ يفيض
ولأحمد بن يزيد المهلبى:
وقالوا عرت غراء حمى شديدة ... فوجنتها منها شديد صفارها
فقلت لهم: هيهات هاتيك روضة ... مضى وردها عنا، وجاء بهارها
ولأبى العتاهية:
وكأننى مما تطاول بى ... منك السّقام طليت بالورس
وقال ابن المعتز:
وصفّرت علته وجهه ... فصار كالدّينار من حقّ (2)

---

(1) ديوانه: 441.
(2) حاشية الأصل: «كذا فى ديوانه، وحق كلمة عراقية» أى حقيقة، أى هذا الّذي أقوله من جملة الحق، وقبله:
وا بأبي من جئته عائدا ... فزادنى عشقا على عشق.

وقال البحترىّ:
بدت صفرة فى لونه إنّ حمدهم ... من الدّرّ ما اصفرّت نواحيه فى العقد
وجرّت على الأيدى مجسّة كفّه ... كذلك موج البحر ملتهب الوقد
وما الكلب محموما، وإن طال عمره ... ولكنّما الحمّى على الأسد الورد
قال سيدنا أدام الله تمكينه: أما تشبيهه صفرة اللون بصفرة الدرّ فهو تشبيه مليح موافق لغرضه؛ إلّا أنه أخطأ فى قوله:
... إنّ حمدهم ... من الدّر ما اصفرّت نواحيه فى العقد
لأن ذلك ليس بمحمود بل مذموم؛ ولو شبّه وترك التعليل لكان أجود.
*** وروى أبو العباس أحمد بن فارس المنبجىّ قال حدّثنا أبو أحمد عبيد الله بن يحيى بن البحترىّ قال حدثني أبى قال حدثنى جدّى البحترىّ قال: كنت عند أبى العباس المبرّد، فتذاكرنا شعر عمارة بن عقيل، فقال لى: لقد أحسن عمارة فى قوله لخالد بن يزيد لما وجّه إليه بهذين البيتين:
لم أستطع سيرا لمدحة خالد ... فجعلت مدحيه إليه رسولا
/ فليرحلنّ إلى نائل خالد ... وليكفينّ رواحلى التّرحيلا
قال البحترىّ: فقلت له: لمروان بن أبى حفصة فى عبد الله بن طاهر- وقد أتاه نائله من الجزيرة ما هو أحسن من هذا- وأنشدته:
لعمرى لنعم الغيث غيث أصابنا ... ببغداد من أرض الجزيرة وابله
فكنّا كحىّ صبّح الغيث أهله ... ولم ترتحل أظعانه ورواحله
فقال: نعم، هذا أحسن، فقلت له: إن لى فى بنى السّمط- وقد أتانى برّهم من حمص ما لا يتضع عن الجميع وأنشدته:

جزى الله خيرا- والجزاء بكفّه- ... بنى السّمط أخدان السّماحة والمجد
هم وصلونى والمهامة بيننا ... كما ارفضّ غيث من تهامة فى نجد
فقال: هذا والله أرقّ مما قالا وأحسن.
*** وروى أحمد بن فارس المنبجىّ عن عبيد الله بن يحيى بن البحترىّ قال حدثنا أبى عن جماعة من أهل العلم والأدب، منهم يموت بن المزرّع قال: قلت لأبى عثمان الجاحظ: من أنسب العرب؟ فقال: الّذي يقول:
عجلت إلى فضل الخمار فأثّرت ... عذباته بمواضع التّقبيل (1)
وهذا للبحترىّ فى القصيدة التى أوّلها:
* صبّ يخاطب مفحمات طلول (2) *
قال سيدنا: وفى نسيب هذه القصيدة بيت ليس يقصر فى ملاحة الكلام ورشاقته، وأخذه بمجامع القلوب عن البيت الّذي فضله به الجاحظ، وهو:
أأخيب عندك والصّبا لى شافع ... وأردّ دونك والشّباب رسولى

وفى مديح هذه القصيدة بيت معروف بفرط الحسن، وهو:
لا تطلبنّ له الشّبيه فإنّه ... قمر التأمّل مزنة التأميل
*** وبهذا الإسناد عن يحيى بن البحترىّ قال: انصرفت يوما من مجلس أبى العباس محمد بن يزيد المبرّد/ فقال لى البحترىّ أبى: ما الّذي أفدت يومك هذا من أبى العباس؟ قلت:
أملى علىّ أخبارا حسنة، وأنشدنى أبياتا للحسين بن الضحاك، فقال أبى: أنشدنى الأبيات، فأنشدته:
كأنّى إذا فارقت شخصك ساعة ... لفقدك بين العالمين غريب

---

(1) عذاباته: جوانبه وأهدابه.
(2) ديوانه 2: 205 – 207.

وقد رمت أسباب السّلوّ فخاننى ... ضمير عليه من هواك رقيب
أغرّك صفحى عن ذنوب كثيرة ... وغضّى على أشياء منك تريب
كأن لم يكن فى النّاس قبلى متيّم ... ولم يك فى الدّنيا سواك حبيب
إلى الله أشكو إن شكوت فلم يكن ... لشكواى من عطف الحبيب نصيب
فقال: ما أحسن هذا الكلام! وأنشدنى لنفسه:
حبيبى حبيب يكتم النّاس أنّه ... لنا حين تلقانا العيون حبيب
يباعدنى فى الملتقى وفؤاده ... وإن هو أبدى لى البعاد قريب
ويعرض عنّى والهوى منه مقبل ... إذا خاف عينا أو أشار رقيب
فتنطق منّا أعين حين نلتقى ... وتخرس منّا ألسن وقلوب
ثم قال: ارويا بنيّ هذين؛ فإنهما من حسن الشّعر وطريفه.
*** روى أحمد بن فارس المنبجيّ عن أبى نصر محمد بن إسحاق النحوىّ قال: سمعت بعض أهل الأدب يقول للزجاج: قد كنت تعرف أبا العباس المبرّد وكبره، وأنه لم يكن يقوم لأحد ولا يتطاول له، وينشد إذا أشرف عليه الرجل:
* ثهلان ذو الهضبات لا يتحلحل (1) *
ولقد رأيته يوما وقد دخل عليه رجل متدرع، فقام إليه أبو العباس فاعتنقه وتنحّى عن موضعه وأجلسه، فجعل الرجل يكفه ويستعفيه من ذلك؛ فلما أكثر من ذلك عليه أنشده أبو العباس:
أتنكر أن أقوم وقد بدا لي ... لأكرمه وأعظمه هشام
فلا تنكر مبادرتى إليه ... فإنّ لمثله خلق القيام (1)
/ فلما انصرف الرجل سألت عنه فقيل لى هذا البحترىّ.

---

(1) البيتان والخبر فى طبقات النحويين واللغويين للزبيدى: 114.

مجلس آخر 53

تأويل آية [لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ]

إن سأل سائل عن قوله تعالى فى قصة قابيل وهابيل حاكيا عن هابيل: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ؛ [المائدة: 28، 29].

فقال: كيف يجوز أن يخبر عن هابيل- وقد وصفه بالتقوى والطاعة- بأنه يريد أن يبوء أخوه بالإثم؛ وذلك إرادة القبيح، وإرادة القبيح قبيحة عندكم على كل حال؛ ووجه قبحها كونها إرادة لقبيح، وليس قبحها مما يتغير؟

وكيف يصحّ أن يبوء القاتل بإثمه وإثم غيره؟ وهل هذا إلا ما تأبونه من أخذ البريء بجرم السقيم؟

الجواب، قلنا: جواب أهل الحق عن هذه الآية معروف؛ وهو أن هابيل لم يرد من أخيه قبيحا، ولا أراد أن يقتله، وإنما أراد ما خبر الله تعالى عنه من قوله: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ؛ أى إنى أريد أن تبوء بجزاء ما أقدمت عليه من القبيح وعقابه، وليس بقبيح أن يريد نزول العقاب المستحق بمستحقّه.

ونظير قوله: «إثمى»؛ مع أن المراد به

عقوبة إثمى؛ الّذي هو قتلى قول القائل لمن يعاقب على ذنب جناه: هذا ما كسبت يداك، والمعنى: هذا جزاء ما كسبت يداك، وكذلك قولهم لمن يدعون عليه: لقّاك الله عملك، وستلقى عملك يوم القيامة، معناه ما ذكرناه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يحسن إرادة عقاب غير مستحق لم يقع سببه؛ لأن القتل على هذا القول لم يكن واقعا؟

قلنا: ذلك جائز بشرط وقوع الأمر الّذي يستحقّ به العقاب؛ فهابيل لمّا رأى من أخيه التصميم على قتله، والعزم على إمضاء القبيح فيه، وغلب على ظنه وقوع ذلك جاز أن يريد عقابه؛ بشرط أن يفعل ما همّ به، وعزم عليه.

فأما قوله: بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فالمعنى فيه واضح لأنه أراد بإثمى عقاب قتلك لى وبإثمك أى عقاب المعصية التى أقدمت عليها من قبل؛ فلم يتقبل قربانك لسببها، لأن الله تعالى أخبر عنهما بأنهما: قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما/ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، وأن العلة فى أن قربان أحدهما لم يتقبل أنه غير متق، وليس يمتنع أن يريد بإثمى ما ذكرناه؛ لأن الإثم مصدر، والمصادر قد تضاف إلى الفاعل والمفعول جميعا، وذلك مستعمل مطرد فى القرآن والشعر والكلام.

فمثال ما أضيف إلى الفاعل قوله تعالى: وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ؛ [الحج: 40] ومن

إضافته إلى المفعول قوله تعالى: لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ؛ [فصلت: 51] وقوله تعالى: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ؛ [ص: 24].
ومما جاء فى الشعر من إضافته إلى المفعول ومعه الفاعل قول الشاعر:
أمن رسم دار مربع ومصيف ... لعينيك من ماء الشّئون وكيف (1)

---

(1) البيت للحطيئة، ديوانه: 39؛ وهو مطلع قصيدة يمدح فيها سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص؛ حينما كان واليا على المدينة. الشئون: مجارى الدمع من الرأس إلى العين؛ واحدها شأن، ووكيف:
مصدر وكف، أى سال. وفى حاشية الأصل: » يقول: أأن رسم دارا مربع ومصيف بكيت! والمربع والمصيف واردان مورد المصدر، فلذلك عملا فى رسم دار».

وفى الكلام: يقول القائل: أعجبنى ضرب عمرو خالدا، إذا كان «عمرو» فاعلا، وضرب عمرو خالد إذا كان «عمرو» مفعولا.
وقد ذكر قوم فى الآية وجها آخر؛ وهو أن يكون المراد: إنى أريد زوال أن تبوء بإثمى وإثمك؛ لأنه لم يرد له إلا الخير والرّشد؛ فحذف «الزوال»، وأقام «أن» وما اتصل بها مقامه؛ كما قال تعالى:
وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ
؛ [البقرة: 93] أراد «حبّ العجل» فحذف «الحب» وأقام «العجل» مقامه، وكما قال تعالى:
وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ؛ [يوسف: 82]، وهذا قول بعيد، لأنه لا دلالة فى الكلام على محذوف، وإنما تستحسن العرب الحذف فى بعض المواضع لاقتضاء الكلام المحذوف ودلالته عليه.
وذكر أيضا وجه آخر وهو أن يكون المعنى: إنى أريد ألّا تبوء بإثمى وإثمك، أى أريد ألّا تقتلنى ولا أقتلك، فحذف «لا» واكتفى بما فى الكلام (1)، كما قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا؛ [النساء: 176]، معناه ألّا تضلوا، وكقوله تعالى: وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ؛ [النحل: 15]، معناه ألا تميد بكم، وكقول الخنساء:
فأقسمت آسى على هالك ... وأسأل نائحة ما لها (2)
أرادت: «لا آسى».
وقال امرؤ القيس:
فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى (3)
أراد «لا أبرح».

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): (بباقى الكلام»: .
(2) ديوانها، 202 والرواية هناك:

يد الدّهر آسى على هالك ... وأسأل نائحة ما لها.
(3) ديوانه: 58.

(2/48)

وقال عمرو بن كلثوم:
نزلتم منزل الأضياف منّا ... فعجّلنا القرى أن تشتمونا (1)
أراد ألّا (2) تشتمونا؛ والشواهد فى هذا كثيرة جدّا.
وهذا الجواب يضعّفه كثير من أهل العربية؛ لأنهم لا يستحسنون إضمار «لا» فى مثل هذا الموضع.
فأما قوله تعالى حاكيا عنه: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ؛ فقال قوم من المفسرين: إن القتل على سبيل الانتصار والمدافعة لم يكن مباحا فى ذلك الوقت؛ وإن الله تعالى أمره بالصبر عليه، وامتحن بذلك، ليكون هو المتولّى للانتصاف.
وقال آخرون: بل المعنى أنك إن بسطت إلى يدك مبتدئا ظالما لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك على وجه الظلم
والابتداء؛ فكأنه نفى عن نفسه القتل القبيح، وهو الواقع على سبيل الظلم.
والظاهر من الكلام بغير ما ذكر من الوجهين أشبه، لأنه تعالى خبّر عنه أنه وإن بسط أخوه إليه يده ليقتله لا يبسط يده ليقتله؛ أى وهو مريد لقتله ومخير (3) إليه؛ لأن هذه اللام بمعنى «كى»، وهى منبئة عن الإرادة والغرض؛ ولا شبهة فى حظر ذلك وقبحه؛ ولأن المدافع إنما تحسن منه المدافعة للظالم طلبا للتخلص (4) من غير أن يقصد إلى قتله أو الإضرار به؛ ومتى قصد ذلك كان فى حكم المبتدئ بالقتل؛ لأنه (5) فاعل القبيح، والعقل شاهد بوجوب التخلص من المضرة بأى وجه يمكن منه؛ بعد أن يكون غير قبيح.

---

(1) من المعلقة، ص 235 – بشرح التبريزى.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «لئلا تشتمونا».
(3) حاشية ف (من نسخة): «مختار له».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «طلبا للنجاة»، م: «طلب التخلص».
(5) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فى أنه».

(2/49)

فإن قيل: فكأنكم تمنعون من حسن امتحان الله تعالى بالصبر على ترك الانتصار والمدافعة وتوجبونهما على كل حال!
قلنا: لا نمنع من ذلك؛ وإنما بيّنا أن الآية غير مقتضية لتحريم المدافعة والانتصاف؛ على ما ذهب إليه

قوم؛ لأن قوله: لَأَقْتُلَنَّكَ يقتضي أن يكون البسط لهذا الغرض؛ والمدافعة لا تقتضى ذلك، ولا يحسن من المدافع أن يجرى بها إلى ضرر (1)؛ فلا دلالة فى الآية على تحريم المدافعة، ووجب أن يكون ما ذكرناه أولى بشهادة الظاهر.

تأويل خبر [«لا يموت لمؤمن ثلاثة من الأولاد فتمسه النار إلا تحلّة القسم.]

إن سأل سائل عن معنى الخبر الّذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: / «لا يموت لمؤمن ثلاثة من الأولاد فتمسه النار إلا تحلّة القسم.

الجواب، قيل له: أما أبو عبيد القاسم بن سلّام فإنه قال: يعنى بتحلّة القسم قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا؛ [مريم: 71]، فكأنه قال عليه السلام: لا يرد النار إلا بقدر ما يبرّر الله قسمه.

وأما ابن قتيبة فإنه قال فى تأويل أبي عبيد: هذا مذهب حسن من الاستخراج؛ إن كان هذا قسما.

قال: وفيه مذهب آخر أشبه بكلام العرب ومعانيهم؛ وهو أن العرب إذا أرادوا تقليل مكث الشيء وتقصير مدّته شبهوه بتحلّة القسم؛ وذلك أن يقول الرجل بعد حلفه: إن شاء الله، فيقولون: ما يقيم فلان عندنا إلا تحلّة القسم، وما ينام العليل إلا كتحليل الألّيّة، وهو كثير مشهور.

قال ابن أحمر (2) وذكر الريح:

---

(1) ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «إلى الضرر».

(2) ف: «مزاحم بن أحمر».

إذا عصبت رسما فليس بدائم ... به وتد إلا تحلّة مقسم (1)

يقول: لا يثبت الوتد إلّا قليلا كتحلّة القسم، لأن هبوب الريح يقلعه.

وقال آخر (2) يذكر ثورا:

يخفى التّراب بأظلاف ثمانية ... فى أربع، مسّهنّ الأرض تحليل (3)

يقول: هو سريع خفيف؛ فقوائمه لا تثبت فى الأرض إلا كتحليل اليمين.

وقال ذو الرّمة:

طوى طيّه فوق الكرى جفن عينه ... على رهبات من جنان المحاذر (4)

قليلا كتحليل الألى ثمّ قلّصت ... به شيمة روعاء تقليص طائر (5)

والألى: جمع ألوة، وهى اليمين.

قال: ومعنى الخبر على هذا التأويل أن النار لا تسمه إلا قليلا كتحليل اليمين ثم ينجّيه الله منها.

وقال أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ: الصواب قول أبي عبيد، لحجج ثلاث:

منها أن جماعة من كبار أهل العلم فسّروه على تفسير أبي عبيد.

ومنها أنه ادّعى أن النار تمسّ الّذي وقعت منزلته عند الله جليلة، لكن مسّا قليلا، والقليل لا يقع به

الألم العظيم؛ وليس صفة الأبرار فى الآخرة صفة من تمسّه النار لا قليلا ولا كثيرا.

(1) حاشية الأصل: «أى ضمته وأحاطت به». وفى ف، ش: «عصفت».
(2) هو عبدة بن الطبيب، من قصيدة له فى المفضليات 135 – 145 (طبعة المعارف).
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «يخفى [بفتح الياء]، أى يظهر ويثير؛ يقال: أخفى إذا ستر، وخفى إذا ظهر». فى أربع: أربع قوائم، فى كل قائمة ظلفان. تحليل: تحلة القسم؛ كأنه أقسم أن يمس الأرض؛ فهو يتحلل من قسمه بأدنى مس.
(4) ديوانه: 264؛ وفى حاشية الأصل: «يصف صاحب سفر أغفى إغفاءة ثم انتبه سريعا».
(5) قلصت؛ أى ارتفعت. والشيمة: الطبيعة. روعاء: حديدة.

ومنها أنّ أبا عبيد لم يحكم على هذا المصاب بولده بمسّ النار، وإنما حكم عليه بالورود، / والورود لا يوجب ألّا يكون من الأبرار؛ لأن «إلّا» معناه الاستثناء المنقطع، فكأنه قال: فتمسّه النار لكن تحلّة اليمين، أى لكن ورود النار لا بدّ منه، فجرى مجرى قول العرب: سار الناس إلا الأثقال، وارتحل العسكر إلّا أهل الخيام، وأنشد الفرّاء:

وسمحة المشى شملال قطعت بها ... أرضا يحار بها الهادون ديموما (1)
مهامها وحزونا لا أنيس بها ... إلّا الصّوائح والأصداء والبوما (2)

وأنشد الفراء أيضا:

ليس عليك عطش ولا جوع ... إلّا الرقاد، والرّقاد ممنوع

فمعنى الحديث: لا يموت للمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار البتة، لكن تحلّة اليمين لا بدّ منها، وتحلّة اليمين الورود، والورود لا يقع فيه مسّ.

وقال أبو بكر: وقد سنح لى فيه قول آخر: وهو أن تكون «إلا» زائدة دخلت للتوكيد، و «تحلّة» اليمين منصوب على الوقت والزمان، ومعنى الخبر: فتمسه النار، وقت تحلّة القسم، و «إلا» زائدة.

قال الفرزدق شاهدا لهذا:

هم القوم إلّا حيث سلّوا سيوفهم ... وضحّوا بلحم من محلّ ومحرم (3)

معناه: هم القوم حيث سلّوا سيوفهم، و «إلا» مؤكدة.

وقال الأخطل:

يقطّعن إلّا من فروع يردنها ... بمدحة محمود نثاه ونائله (4)

معناه يقطعون من فروع يردنها، والفروع: الواسعة من الأرض.

(1) سمحة المشى: سهلة المشى. والشملال: الناقة السريعة. والديموم والديمومة. الفلاة يدوم السير فيها لبعدها.
(2) لا أنيس بها: لا أحد بها. والضوابح: جمع ضابح، والضباح صوت الثعالب. والأصداء:

جمع صدى، وهو الهامة.
(3) ديوانه 2: 760.
(4) ديوانه: 63 ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ويقطعن». وفى الديوان:
* إليكم من الأغوار حتى يزرنكم*.

(2/52)

قال سيدنا أدام الله تمكينه: والوجوه المذكورة فى تأويل الخبر كالمتقاربة (1)، إلا أن الوجه الّذي اختص به ابن الأنبارىّ فيه أدنى تعسّف وبعد؛ من حيث جعل «إلّا» زائدة، وذلك كالمستضعف عند جماعة من أهل العربيّة.
وقد تبقّى فى الخبر مسألة، التشاغل بالجواب عنها أولى مما تكلّفه القوم، وهى متوجّهة على كل الوجوه التى ذكروها فى تأويله.
وهو أن يقال: كيف يجوز أن يخبر عليه السلام بأنّ من مات له ثلاثة من الولد لا تمسّه النار إما جملة، أو مقدار تحلة القسم؛ / وهو النهاية فى القلة! أوليس ذلك يوجب أن يكون إغراء بالذنوب لمن هذه حاله! وإذا كان من يموت وله هذا العدد من الأولاد غير خارج عن التكليف، فكيف يصحّ أن يؤمّن من العقاب!
والجواب عن ذلك، أنّا قد علمنا أو لا خروج هذا الخبر مخرج المدحة لمن هذه صفته والتخصيص له والتمييز، ولا مدحة فى مجرد موت الأولاد؛ لأن ذلك لا يرجع إلى فعله، فلا بدّ من أن يكون تقدير الكلام: إنّ النار لا تمسّ المسلم الّذي يموت له ثلاثة أولاد؛ إذا حسن صبره واحتسابه وعزاؤه، ورضاه بما جرى به القضاء عليه؛ لأنه بذلك يستحقّ الثواب والمدح؛ وإذا كان إضمار الصبر والاحتساب لا بدّ منه لم يكن فى القول إغراء؛ لأن كيفية وقوع الصبر والوجه الّذي إذا وقع عليه تفضّل الله سبحانه بغفران ما لعلّه أن يستحقّه من العقاب فى المستقبل وإذا لم يكن معلوما، فلا وجه للاغراء.
وأكثر ما فى هذا الكلام أن يكون القول مرغّبا فى حسن الصبر، وحاثّا عليه رغبة فى الثواب، ورجاء لغفران ما لعلّه أن يستحق فى المستقبل من العقاب؛ وهذا واضح لمن تأمله.

(1) م، «متقاربة».

(2/53)

مجلس آخر 54
تأويل آية [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً؛

[البقرة: 74].
فقال: ما معنى أَوْ هاهنا؟ أو ظاهرها يفيد الشك الّذي لا يجوز عليه تعالى.
الجواب، قلنا فى ذلك وجوه:
أوّلها أن تكون أَوْ هاهنا للإباحة كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين؛ والق الفقهاء أو المحدّثين، ولم يريدوا الشك؛ بل كأنهم قالوا: هذان الرجلان أهل للمجالسة، وهذان القبيلان أهل للّقاء؛ فإن جالست الحسن فأنت مصيب، وإن جالست ابن سيرين فأنت مصيب، وإن جمعت بينهما فكذلك.
فيكون معنى الآية على هذا: إن قلوب هؤلاء قاسية متجافية عن الرّشد والخير، فإن شبّهتم قسوتها بالحجارة أصبتم، وإن شبّهتموها بما هو أشدّ أصبتم، وإن شبهتموها بالجميع فكذلك.
وعلى هذا يتأوّل قوله تعالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ؛ [البقرة: 19]، لأن أَوْ لم يرد بها الشكّ بل على نحو الّذي ذكرناه/، من أنكم إن شبهتموهم بالذى استوقد نارا فجائز، وإن شبهتموهم بأصحاب الصيّب فجائز، وإن شبهتموهم بالجميع فكذلك.
وثانيها أن تكون أَوْ دخلت للتفصيل والتمييز، ويكون معنى الآية: إن قلوبهم قست، فبعضها ما هو كالحجارة فى القسوة، وبعضها ما هو أشد قسوة منها.

(2/54)

ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا؛ [البقرة: 135] معناه: وقال بعضهم: كونوا هودا– وهم اليهود– وقال بعضهم: كونوا نصارى وهم النصارى– فدخلت أَوْ للتفصيل.
وكذلك قوله تعالى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ [الأعراف: 4] معناه فجاء بعض أهلها بأسنا بياتا، وجاء بعض أهلها بأسنا فى وقت القيلولة.
وقد يحتمل قوله تعالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ هذا الوجه أيضا، ويكون المعنى أن بعضهم يشبه الّذي استوقد نارا، وبعضهم يشبه أصحاب الصيب.
وثالثها أن يكون أَوْ دخلت على سبيل الإبهام فيما يرجع إلى المخاطب، وإن كان الله تعالى عالما بذلك غير شاك فيه، لأنه تعالى لم يقصد فى إخبارهم عن ذلك إلا التفصيل؛ بل علم عز وجلّ أن خطابهم بالإجمال أبلغ فى
مصلحتهم، فأخبر تعالى أنّ قسوة قلوب هؤلاء الذين ذمّهم كالحجارة أو أشد قسوة، والمعنى أنها كانت كأحد هذين لا يخرج عنهما.
ويجرى ذلك مجرى قولهم: ما أطعمتك إلا حلوا أو حامضا، فيبهمون على المخاطب ما يعلمون أنه لا فائدة فى تفصيله؛ والمعنى: ما أطعمتك إلا أحد هذين الضّربين.
وكذلك يقول أحدهم: أكلت بسرة أو ثمرة؛ وهو قد علم ما أكل على التفصيل إلا أنه أبهمه على المخاطب، قال لبيد:
تمنّى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلّا من ربيعة أو مضر (1)
أراد: هل أنا إلّا من أحد هذين الجنسين (2)، فسبيلى أن أفنى كما فنيا؛ وإنما حسن ذلك لأن

قصده الّذي أجرى إليه، وغرضه الّذي نحاه وهو أن يخبر بكونه ممن يموت ويفنى، ولا يخلّ به إجمال ما أجمل من كلامه، فأضرب عن التفصيل؛ لأنه لا فائدة فيه، ولأنه سواء

(1) ديوانه: 2: 1.
(2) ش «الحيين».

كان من ربيعة أو مضر فموته واجب. وكذلك الآية، لأن الغرض فيها أن يخبر تعالى عن شدة قسوة/ قلوبهم، وأنها مما لا تنثنى لوعظ، ولا تصغى إلى حق، فسواء كانت فى القسوة كالحجارة أو أشد منها، فقد تم ما أجرى إليه من الغرض فى وصفها وذمّها، وصار تفصيل تشبيهها بالحجارة وبما هو أشد قسوة منها كتفصيل كونه من ربيعة أو مضر؛ فى أنه غير محتاج إليه، ولا يقتضيه الغرض فى الكلام.
ورابعها أن تكون أَوْ بمعنى «بل» كقوله تعالى: وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (1) [الصافات: 147] معناه: بل يزيدون.
وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ؛ قال: كانوا مائة ألف وبضعا وأربعين ألفا. وأنشد الفراء:
بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضّحا ... وصورتها، أو أنت فى العين أملح (2)
وقد تكون «أم» فى الاستفهام أيضا بمعنى «بل»، كقول القائل: أضربت عبد الله أم أنت رجل متعنت؟ معناه: بل أنت رجل متعنت.
وقال الشاعر:
فو الله ما أدرى أسلمى تغوّلت، ... أم النّوم، أم كلّ إلى حبيب!
معناه: بل كلّ.
وقد طعن بعضهم على هذا الجواب فقال: وكيف يجوز أن يخاطبنا تعالى بلفظة بل؛ وهى تقتضى الاستدراك والنقض للكلام الماضى والإضراب عنه، وليس ذلك بشيء.
أما الاستدراك فإن أريد به الاستفادة أو التذكر لما لم يكن معلوما فليس بصحيح، لأن

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «قال ابن جنى: الغرض فى قوله تعالى: أَوْ يَزِيدُونَ أنهم بحيث يحزرهم الحازر فيقول: هم مائة ألف أو يزيدون، فحكى على موجب الحزر».
(2) ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «وصورتها» بالضم. والمعنى: وصورة الشمس فى العين أملح؛ بل أنت».

أحدنا قد يقول: أعطيته ألفا بل ألفين، وقصدته دفعة بل دفعتين؛ وهو عالم فى ابتداء كلامه بما أخبر به فى الثانى، ولم يتجدد به علم، وإن أريد به الأخذ فى كلام غير الماضى، واستئناف زيادة عليه فهو صحيح؛ ومثله جائز عليه تعالى.

فأما النقض للكلام الماضى فليس بواجب فى كل موضع تستعمل فيه لفظة «بل»، لأن القائل إذا قال: أعطيته ألفا بل ألفين لم ينقض الأول؛ وكيف ينقضه؛ والأول داخل فى الثانى وإنما زاد عليه! وإنما يكون ناقضا للماضى إذا قال: لقيت رجلا بل حمارا؛ وأعطيته درهما بل ثوبا؛ لأن الأول لم يدخل فى الثانى على وجه، وقوله تعالى: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً غير ناقض للأول، لأنها لا تزيد فى القسوة على الحجارة إلا بعد أن تساويها، وإنما/ تزيد المساواة.

وخامسها أن تكون أَوْ بمعنى الواو كقوله: أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ؛ [النور: 61]، معناه: وبيوت آبائكم، قال جرير:

نال الخلافة أو كانت له قدرا ... كما أتى ربّه موسى على قدر (1)

وقال توبة بن الحمير:

وقد زعمت ليلى بأنّى فاجر ... لنفسى تقاها، أو عليها فجورها (2)

وقال جرير أيضا:

أثعلبة الفوارس أم رياحا ... عدلت بهم طهيّة والخشابا (3)

أراد: أو رياحا.

---

(1) ديوانه: 275؛ والبيت من قصيدة يمدح فيها عمر بن عبد العزيز؛ مطلعها:

لجّت أمامة فى لومى وما علمت ... عرض السماوة روحاتى ولا بكرى.

(2) أمالى القالى: 1: 131.

(3) ديوانه: 66؛ من قصيدته المشهورة التى يذم فيها الراعى؛ ومطلعها:

أقلّى اللوم عاذل والعتابا ... وقولى إن أصبت لقد أصابا

وقال آخر (1):

فلو كان البكاء يردّ شيئا (2) ... بكيت على بجير أو عفاق

على المرأين إذ هلكا جميعا ... لشأنهما بشجو واشتياق (3)

أراد على بجير وعفاق.

وقد حكى المفضل بن سلمة هذا الوجه عن قطرب، وطعن عليه بأن قال: ليس شيء يعلم أشدّ قسوة عند المخاطبين من الحجارة، فينسق به عليها (4)؛ وإنما يصح ذلك فى قولهم:

أطعمتك تمرا أو أحلى منه، لأن أحلى منه معلوم.

واختار المفضل الوجه الّذي يتضمن أن أَوْ بمعنى «بل».

وهذا الّذي طعن به المفضّل ليس بشيء، لأنهم وإن لم يشاهدوا أو يعرفوا ما هو أشدّ قسوة من الحجارة فصورة قسوة الحجارة معلومة لهم، ويصحّ أن يتصوروا ما هو أشد قسوة منها، وما له الزيادة عليها؛ لأن قدرا ما إذا عرف صح (5) أن يعرف ما هو أزيد منه أو أنقص،

وهى القصيدة التى تسميها العرب: الفاضحة. والبيت من شواهد الكتاب (1: 52) استشهد به على نصب «ثعلبة»، بإضمار فعل دل عليه ما بعده؛ فكأنه قال: أظلمت ثعلبة، عدلت بهم طهية، ونحوه من التقدير. وأورده أيضا فى (1: 489) شاهدا على دخول «أم» عديلة للألف. وفى حاشية الأصل: «كأنه قال: أأخملت ثعلبة الفوارس فعدلت بهم طهية والخشاب! ».

(1) البيتان فى اللسان (عفق)؛ ونقل عن ابن برى أنهما لمتمم بن نويرة، وعفاق: اسم رجل أكلته باهلة فى قحط أصابهم.

(2) حاشية الأصل (من نسخة): «ميتا».

(3) رواية اللسان:

هما المرءان إذ ذهبا جميعا ... لشأنهما بحزن واشتياق

وذكر أن بسطام بن قيس أغار على بنى يربوع فقتل عفاقا وقتل بجيرا أخاه بعد قتله عفاقا فى العام الأول، وأسر أباهما أبا مليك، ثم أعنقه وشرط عليه ألا يغير عليه؛ قال ابن برى: ويقوى قول من قال إن باهلة أكلته قول الراجز:

إنّ عفاقا أكلته باهله ... تمششوا عظامه وكاهله.

(4) حاشية ف: «النسق أن تعطف كلاما على كلام، والنسق الترتيب».

(5) م: «جاز».

لأن الزيادة والنقصان إنما يضافان إلى معلوم معروف، على أن الآية خرجت مخرج المثل، وأراد تعالى بوصف قلوبهم بالزيادة فى القسوة على الحجارة أنها قد انتهت إلى حد لا تلين معه للخير على وجه من الوجوه، وإن كانت الحجارة ربما لانت وانتفع بها، فصارت من هذا الوجه كأنها أشدّ قسوة منها تمثيلا وتشبيها.

فقول المفضل: «ليس يعرفون ما هو أقسى من الحجارة» لا معنى له إذا كان القول على طريق المثل. وبعد؛ فإن الّذي طعن به على هذا الجواب يعترض على الوجه الّذي اختاره، لأنه إذا اختار أنّ أَوْ فى الآية بمعنى «بل» فكيف جاز بأن يخبرهم بأنّ قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة، وهم لا يعرفون ما هو أقسى من الحجارة! وإذا جاز أن يقول لهم: بل قلوبهم أقسى مما يعرفون من الحجارة جاز أن يخبر عن مثل ذلك بالواو فيقول: قلوبهم كالحجارة التى يعرفون فى القسوة، وهى مع ذلك تزيد عليها.

فإن قال [قائل] (1) كيف يكون أَوْ فى الآية بمعنى الواو، والواو للجمع، وليس يجوز أن تكون قلوبهم كالحجارة، وأشد من الحجارة فى حالة واحدة؛ لأن الشيء إذا كان على صفة لم يجز أن يكون على خلافها!

قلنا: قد أجاب بعضهم عن هذا الاعتراض بأن قال: ليس يمتنع أن تكون قلوبهم كالحجارة فى حال، وأشد من الحجارة فى حال أخرى؛ فيصحّ المعنى، ولا يتنافى، وهذا قريب، ويكون فائدة هذا الجواب أن قلوب هؤلاء فى بعض الأحوال مع القسوة والعدول عن قبول (2) الحق والفكر فيه؛ ربما لانت بعض اللين؛ [وهمّت بالانعطاف، وكادت تصغى إلى الحق فتكون فى هذه الحال كالحجارة التى ربما لانت] (3)، وفى حال أخرى تكون فى نهاية البعد عن الخير (4) والنفور عنه، فتكون فى هذا الحال أشدّ قسوة من الحجارة.

---

(1) من ف.
(2) م: «تصور».
(3) ساقط من م.
(4) م: «الحق».

على أنه يمكن فى الجواب عن هذا الاعتراض وجه آخر؛ وقد تقدم معناه فى بعض كلامنا، وهو أن قلوبهم لا تكون أشدّ من الحجارة إلا بعد أن يكون فيها قسوة الحجارة؛ لأن القائل إذا قال: فلان أعلم من فلان فقد أخبر أنه زائد عليه فى العلم الّذي اشتركا فيه؛ فلا بدّ من الاشتراك ثم الزيادة، فليس هاهنا تناف على ما ظنّ المعترض، ولا إثبات لصفة ونفيها، فكل هذا واضح (1) بحمد الله.
*** قال سيدنا أدام الله تمكينه: وإنى لأستحسن من الشعر قول الأحوص بن محمد الأنصارىّ:

ومولى سخيف الرّأى رخو تزيده ... أناتى، وعفوى (2) جهله عنده ذمّا (3)
دملت، ولولا غيره لأصبته ... بشنعاء باق عارها تقر العظما (4)
طوى حسدا ضغنا عليّ كأنّما ... أداوى به فى كلّ مجمعة كلما (5)
/ ويجهل أحيانا فلا يستخفّنى ... ولا أجهل العتبى إذا راجع الحلما (6)
يصدّ وينأى فى الرّخاء بودّه ... ويدعو ويدعونى إذا خشى الهضما
فيفرج عنه أربة الخصم مشهدى ... وأدفع عنه عند عثرته الظّلما

الإربة: الدهاء، والإربة: العقدة، وكلا المعنيين يحتمل لفظ البيت–

وكنت امر أعود (7) الفعال تهزّنى ... مآثر مجد تالد لم يكن زعما

---

(1) م: «بين».
(2) ف، حاشية الأصل (من نسخة): «غفرى».
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «أى كلما غفرت جهله زادنى ذما».
(4) دملت: داريت وداجيت؛ ويقال: «ادمل القوم»؛ أى اطوهم على ما فيهم؛ ومنه قول ابن الطيفان:

ومولى كمولى الزّبرقان دملته ... كما اندملت ساق يهاض بها الكسر

وتقر العظم: تصدعه وتكسره. وشنعاء، أى قصيدة فى الهجو.
(5) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «أدارى». وبه أى بحطئه، والمجمعة: المجمع.
(6) العتبى: الرضا.
(7) عود الفعال: جليله وعظيمه.

(2/60)

وكنت وشتمى فى أرومة مالك ... بسبّى له كالكلب إذ ينبح النجما
ولست بلاق سيّدا ساد مالكا ... فتنسبه إلّا أبا لى أو عمّا
ستعلم إن عاديتنى فقع قرقر ... أما لا أفدت- لا أبا لك- أو عدما (1)
لقد أبقت الأيّام منّى وحرسها ... لأعدائنا ثكلا وحسّادنا رغما (2)
وكانت عروق السّوء أزرت (3) وقصّرت ... به أن ينال الحمد فالتمس الذّما
ومن مختار قوله:
إنى إذا خفى اللئام (4) رأيتنى ... كالشّمس لا تخفى بكلّ مكان
ما من مصيبة نكبة أمنى بها ... إلّا تشرّفنى وتعظم شأنى
وتزول حين تزول عن متخمّط (5) ... تخشى بوادره على (6) الأقران
ومن جيد شعره.
خليلان باحا بالهوى فتشاحنت ... أقاربها فى وصلها (7) وأقاربه
ألا إنّ أهوى النّاس قربا ورؤية ... وريحا إذا ما اللّيل غارت كواكبه
ضجيع دنا منّى جذلت بقربه ... فبات يمنّينى وبتّ أعاتبه
وأخبره فى السّرّ بينى وبينه ... بأن ليس شيء عند نفسى يقاربه
***

---

(1) فقع قرقر، أى يا فقع قرقر، والفقع: ضرب من أردأ الكمأة، والقرقر: الأرض الخالية؛ ويشبه به الرجل الذليل؛ يقال: أذل من فقع بقرقر؛ لأن الدواب تنجله بأرضها؛ قال النابغة:
حدّثونى بنى الشّقيقة ما يم ... نع فقعا بقرقر أن يزولا.
(2) الحرس: الدهر.
(3) م: «أودت».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
«الرجال».
(5) التخمط: الغضب مع الثورة والجلبة.
(6) البوادر: جمع بادرة وهى ما يبدر من الإنسان عند الشر، وفى ف: «لدى الأقران».
(7) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
* أقاربها فى وصله وأقاربه*.

وقد غبّر فى وجه كل من وصف المضاجعة امرؤ القيس حيث يقول (1):
تقول وقد جرّدتها من ثيابها ... كما رعت مكحولا من العين أتلعا (2)
وجدّك لو شيء أتانا رسوله ... سواك، ولكن لم نجد لك مدفعا
فبتنا نذود الوحش عنّا كأنّنا ... قتيلان لم تعلم لنا النّاس مصرعا (3)
إذا أخذتها هزّة الرّوع أمسكت ... بمنكب مقدام على الهول أروعا (4)
وقال على بن الجهم فى وصفه شدة الالتزام:
سقى الله ليلا ضمّنا بعد هجعة ... وأدنى فؤادا من فؤاد معذّب (5)
فبتنا جميعا لو تراق زجاجة ... من الرّاح فيما بيننا لم تسرّب
ولعبد الصمد بن المعذّل فى هذا المعنى:
كأنّنى عانقت ريحانة ... تنفّست فى ليلها البارد (6)
فلو ترانا فى قميص الدّجى ... حسبتنا فى جسد واحد

---

(1) من قصيدة رواها أبو عمرو الشيبانى، وأولها:
جزعت ولم أجزع من البين مجزعا ... وغويت قلبا بالكواعب مولعا
وأصبحت ودّعت الصبا غير أننى ... أراقب خلّات من العيش أربعا
ولم تذكر فى ديوانه بشرح البطليوسى؛ وهى فى مجموعة أشعار الستة للأعلم ص 79 (مخطوطة المكتبة التيمورية 450 أدب) والأبيات أيضا فى حماسة ابن الشجرى: 195 – 196.
(2) قال الأعلم: «قوله: » كما رعت مكحول المدامع»، أى لما جردتها من ثيابها بدت محاسنها وتبين طول عنقها، كما تبين ذلك من الغزل المروع. والأتلع: الطويل العنق».
(3) بعد هذا البيت فى رواية الأعلم عن أبى عمرو:
تجافى عن المأثور بينى وبينها ... وتدنى علىّ السّابرىّ المضلّعا
تجافى: ترفع. والمأثور: السيف الّذي فيه أثر؛ وهو فرند السيف، والسابرىّ: ضرب من الثياب. والمضلع: الّذي فيه طرائق وشى.
(4) أخذتها هزة الروع: ارتعدت فزعا وهيبة. والمقدام: الكثير الإقدام على الأهوال. والأروع: المعجب المنظر جمالا وقوة.
(5) ديوانه 95 وحماسة ابن الشجرى: 196.
(6) حماسة ابن الشجرى 196.

ولبشار بن برد:
إنّنى أشتهي لقاءك والل ... ه فماذا عليك أن تلقانى
قد تلفّ الرّياح غصنا من الب ... ان إلى مثله فيلتقيان
ومثل هذا للبحترىّ:
ولم أنس ليلتنا فى العن ... اق لفّ الصّبا بقضيب قضيبا (1)
كما افتنّت الرّيح فى مرّها ... فطورا خفوتا، وطورا هبوبا
ولآخر فى مثل هذا بعينه، ولسنا ندرى هل سبق البحترىّ أو تأخر عنه:
وضمّ لا ينهنهه اعتناق ... كما التفّ القضيب على القضيب
ولعلى بن الجهم:
وبتنا على رغم الحسود كأنّنا ... خليطان من ماء الغمامة والخمر (2)
/ وهذا وإن جعله فى العناق فهو مأخوذ من قول بشار:
وإن نلتقى خلف الغيور كأنّنا ... سلاف عقار بالنّقاخ مشوب (3)
والأصل فى هذا قول الأخطل، والناس من بعده على أثره:
من الجازئات الحور مطلب سرّها ... كبيض الأنوق المستكنّة فى الوكر (4)
وإنى وإيّاها إذا ما لقيتها ... لكالماء من صوب الغمامة والخمر
وقد أخذه أيضا ابن أبى عيينة فقال:

---

(1) ديوانه 1: 51.
(2) ديوانه 144 وحماسة ابن الشجرى 196، وروايته هناك:
* وبتنا على رغم الوشاة كأنّنا*.
(3) ديوانه 1: 185. والنقاخ: الماء البارد؛ وفى حاشية الأصل: «س: خلف العيون».
(4) ديوانه: 212 الأنوق: الرخمة؛ وفى المثل: «أعزّ من بيض الأنوق»، لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به؛ لأن أوكارها فى رءوس الجبال والأماكن الصعبة.

«1» ذاك إذ روحها وروحى مزاجا ... ن كأصفى خمر بأعذب ماء
وأخذه العباس بن الأحنف فقال (1):
ما أنس لا أنس يمناها معطّفة ... على فؤادى، ويسراها على راسى (2)
وقولها: ليته ثوب على جسدى ... أو ليتنى كنت سربالا لعبّاس (3)
أو ليته كان لى خمرا وكنت له ... من ماء مزن، فكنّا الدّهر فى كاس
ومثل هذا للبحترىّ:
وجدت نفسك من نفسى بمنزلة ... هى المصافاة بين الماء والرّاح (4)
ولقد أحسن بشار فى قوله:

لقد كان ما بينى زمانا وبينها ... كما بين ريح المسك والعنبر الورد
*** أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنا أحمد بن محمد المكّى قال حدثنا أبو العيناء قال

---

(1) ساقط من م.
(2) ديوانه: 90؛ وبعده:
قالت وإنسان ماء العين فى لجج ... يكاد ينطق عن كرب ووسواس!
يطفو ويرسو غريقا ما يكفكفه ... كفّ، فيا لك من طاف ومن راس.
(3) رواية الديوان:
عبّاس ليتك سربالى على جسدى ... أو ليتنى كنت سربالا لعباس
(4) ديوانه: 1: 113؛ وفى حاشية الأصل: وأشد إمعانا منه قوله:
وبتنا جميعا لو تراق زجاجة ... من الخمر فيما بيننا لم تسرّب
وقول أبى الجوائز الواسطى رحمه الله:
فاعتنقنا ضمّا يذوب حصى الي ... اقوت منه، وتطمّن النهود.

حدثنا العتبىّ عن أبيه قال: سيّر الوليد بن عبد الملك (1) الأحوص إلى دهلك (2)، فكتب الأحوص إلى عمر بن عبد العزيز حين استخلف:
وكيف ترى للنّوم طعما ولذّة ... وخالك أمسى موثقا فى الحبائل!
فمن يك أمسى سائلا عن شماتة ... ليشمت بى، أو شامتا غير سائل
/ فقد عجمت منّى الحوادث ماجدا ... صبورا على غمّاء تلك البلابل
إذا سرّ لم يفرح، وليس لنكبة ... ألمّت به بالخاشع المتضايل
فبعث عمر بن عبد العزيز إلى عراك بن مالك، الّذي كان شهد عليه فقال: ما ترى فى هذا البائس؟ فقال عراك: مكانه خير له، فتركه فى موضعه، فلما ولى يزيد بن عبد الملك جلب الأحوص وسيّر عراكا (3).

---

(1) كذا جاءت الرواية هنا؛ وفى الأغانى 4: 246 (طبعة الدار) أن الأحوص كان ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة ويتغنى فى شعره معبد ومالك، ويشيع ذلك فى الناس، فنهى فلم ينته، فشكى إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة، وسألوه الكتاب فيه إليه، ففعل ذلك؛ فكتب سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط، ويقيمه على البلس للناس، ثم يصيره إلى دهلك. ففعل ذلك به، فنوى هناك سلطان سليمان بن عبد الملك، ثم ولى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه يستأذنه فى القدوم ويمدحه، فأبى أن يأذن له، وكتب فيما كتب إليه به ... ثم أورد الأبيات.
(2) دهلك: جزيرة فى بحر اليمن؛ وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة.
(3) فى خبر صاحب الأغانى: «فأتى رجال من الأنصار عمر عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن

يقدمه، وقالوا له: قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه، وقد أخرج إلى أرض الشرك، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه؛ فقال لهم عمر: فمن الّذي يقول:

فما هو إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت حتّى ما أكاد أجيب

قالوا: الأحوص. قال: فمن الّذي يقول:

أدور ولولا أن أرى أم جعفر ... بأبياتكم مادرت حيث أدور

وما كنت زوّارا ولكنّ ذا الهوى ... إذا لم يزر لا بدّ أن سيزور

قالوا: الأحوص، قال فمن الّذي يقول: –

(2/65)

قال سيدنا أدام الله علوه: وإنما كان الأحوص خال عمر بن عبد العزيز من جهة أنّ أمّ عمر هى أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وأمها أنصارية.

فأما قوله «إذا سرّ لم يفرح» فمأخوذ من قول لقيط بن زرارة:

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده، ... وليس إن عضّ مكروه به خشعا (1)

وللأحوص:

وببطن مكّة لا أبوح به ... قرشيّة غلبت على قلبى

ولو أنّها إذ مرّ موكبها ... يوم الكديد أطاعنى صحبى (2)

قلنا لها: حيّيت من شجن ... ولركبها: حيّيت من ركب

والشّوق أقتله برؤيتها ... قتل الظّما بالبارد العذب

والنّاس إن حلّوا جميعهم ... شعبا– سلام، وأنت فى شعب (3)

كأنّ لبنى صبير غادية ... أو دمية زيّنت بها البيع

الله بينى وبين قيّمها ... يفرّ منّى بها وأتّبع

قالوا: الأحوص، قال: بل الله بينها وبين قيمه. قال: فمن الّذي يقول:

ستبلى لكم فى مضمر القلب والحشا ... سريرة حبّ يوم تبلى السّرائر

قالوا: الأحوص. قال: إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول، والله لا أرده ما كان لى سلطان. فمكث هناك بقية ولاية عمر وصدرا من ولاية يزيد بن عبد الملك. قال فبينا يزيد وجاريته حبابة ذات ليلة على سطح تغنيه بشعر الأحوص، فقال لها: من يقول هذا الشعر؟ قالت: لا وعينيك ما أدرى– وقد كان ذهب من الليل شطره– فقال: ابعثوا إلى ابن شهاب الزهرى فعسى أن يكون عنده علم من ذلك، فأتى الزهرى فقرع عليه بابه، فخرج مروعا إلى يزيد، فلما صعد إليه قال له يزيد: لا ترع، لم ندعك إلا لخير، اجلس، من يقول هذا الشعر؟ قال: الأحوص بن محمد يا أمير المؤمنين، قال: ما فعل؟ قال: طال حبسه بدهلك قال: قد عجبت لعمر كيف أغفله. ثم أمر بتخلية سبيله ووهب له أربعمائة دينار، فأقبل الزهرى

من ليلته إلى قومه من الأنصار فبشرهم بذلك».

(1) مختارات ابن الشجرى: 5.
(2) حاشية الأصل: «خبر» إن» قوله: «أطاعنى صحبى».
والعائد إلى الاسم الهاء من «موكبها» والتقدير: ولو أنها أطاعنى صحبى إذا مر موكبها يوم الكديد».
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «وأنت فى شعب».

(2/66)

لحللت شعبك دون شعبهم ... ولكان قربك منهم حسبى (1)
قوله:
* والشوق أقتله برؤيتها*
نظير قول جرير:
فلما التقى الحيّان ألقيت العصا ... ومات الهوى لمّا أصيبت مقاتله (2)

---

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «فى هذه الأبيات:
ثنتان لا أدنو لوصلهما ... عرس الخليل وجارة الجنب
أما الخليل فلست خائنه ... والجار قد أوصى به ربّى.
(2) ديوانه: 478.

(2/67)

مجلس آخر 55
تأويل آية [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ، [البقرة: 31].
فقال: كيف يأمرهم أن يخبروا بما لا يعلمون، أوليس ذلك أقبح من تكليف ما لا يطاق؛ الّذي تأبونه؛ والّذي جوّز (1) أن يكلّف تعالى مع ارتفاع القدرة لا يجوّزه.
/ الجواب، قلنا: قد ذكر فى هذه الآية وجهان:
أحدهما أنّ ظاهر الآية إن كان أمرا يقتضي التّعلّق بشرط، وهو كونهم صادقين عالمين بأنهم إذا أخبروا عن ذلك صدقوا- فكأنه قال لهم: خبّروا بذلك إن علمتموه؛ ومتى رجعوا إلى نفوسهم فلم يعلموا، فلا تكليف عليهم. وهذا بمنزلة أن يقول القائل لغيره: خبّرنى بكذا وكذا إن كنت تعلمه، أو إن كنت تعلم أنك صادق فيما تخبر به عنه.
فإن قيل: أليس قد قال المفسرون فى قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ إنّ المراد به: إن كنتم تعلمون

بالعلّة التى من أجلها جعلت فى الأرض خليفة، أو إن كنتم صادقين فى اعتقادكم أنكم تقومون بما أنصب الخليفة له، وتضطلعون به، وتصلحون له؟ .
قلنا: قد قيل كل ذلك، وقيل أيضا ما ذكرناه؛ وإذا كان القول محتملا للأمرين جاز أن يبنى الكلام على كل واحد منهما؛ وهذا الجواب لا يتمّ إلّا لمن يذهب إلى أن الله تعالى يصحّ أن يأمر العبد بشرط قد علم أنه لا يحصل، ولا يحسن أن يريد منه الفعل على هذا

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «ومن يجوّز».

الوجه؛ ومن ذهب إلى جواز ذلك صحّ منه أن يعتمد على هذا الجواب.
فإن قيل: فأىّ فائدة فى أن يأمرهم بأن يخبروا عن ذلك بشرط أن يكونوا صادقين، وهو عالم بأنهم لا يتمكنون من ذلك لفقد علمهم به؟
قلنا: لمن ذهب إلى الأصل الّذي ذكرناه أن يقول: لا يمتنع أن يكون الغرض فى ذلك هو أن ينكشف بإقرارهم وامتناعهم من الإخبار بالأسماء ما أراد تعالى بيانه من استئثاره بعلم الغيب، وانفراده بالاطلاع على وجوه المصالح فى الدين.
فإن قيل: فهذا يرجع إلى الجواب الّذي تذكرونه من بعد؟ قلنا: هو وإن رجع إلى هذا المعنى فبينهما فرق (1) من حيث كان هذا الجواب، على تسليم أنّ الآية تضمنت الأمر والتكليف الحقيقيين.
والجواب الثانى لا نسلّم فيه أنّ القول أمر على الحقيقة، فمن هاهنا افترقا.
والجواب (2) الثانى أن يكون الأمر (3) وإن كان ظاهره ظاهر أمر، فغير أمر على الحقيقة؛ بل المراد به التقرير والتنبيه على مكان الحجة؛ وقد يرد بصورة الأمر ما ليس بأمر، / والقرآن والشعر [وكلام العرب مملوء بذلك] (4).
وتلخيص هذا الجواب أنّ الله تعالى لما قال للملائكة: إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ؛ [البقرة: 30]؛ أى مطّلع من مصالحكم، وما هو أنفع لكم فى دينكم على ما لا تطّلعون عليه. ثم أراد التنبيه على أنه لا يمتنع أن يكون غير الملائكة– مع أنها تسبح وتقدّس وتطيع ولا تعصى– أولى بالاستخلاف فى الأرض؛ وإن

(1) م: «والوجه الثانى».
(2) د، ف: «بون».
(3) حاشية ف (من نسخة): «القول».
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «وأخبار العرب مملوءة بذلك».

كان فى ذريته من يفسد ويسفك الدماء. فعلّم آدم عليه السلام أسماء جميع الأجناس، أو أكثرها (1) ثم قال: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ مقررا لهم ومنبها على ما ذكرناه، ودالا على اختصاص آدم بما لم يخصّوا به. فلما أجابوه بالاعتراف والتسليم إليه علم الغيب الّذي لا يعلمونه، فقال تعالى لهم أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [البقرة: 33] منبّها على أنه تعالى هو المنفرد بعلم المصالح فى الدين، وأن الواجب على كل مكلف أن يسلم لأمره، ويعلم أنه لا يختار لعباده إلا ما هو أصلح لهم فى دينهم؛ علموا وجه ذلك أم جهلوه.

وعلى هذا الجواب يكون قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ محمولا على كونهم صادقين فى العلم بوجه المصلحة فى نصب الخليفة، أو فى ظنهم أنهم يقومون بما يقوم به هذا الخليفة، ويكملون له؛ فلولا أن الأمر على ما ذكرناه، وأنّ القول لا يقتضي التكليف لم يكن لقوله تعالى بعد اعترافهم وإقرارهم: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ معنى، لأن التكليف الأول لا يتغير حاله بأن يخبرهم آدم عليه السلام بالأسماء، ولا يكون قوله: إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إلى آخر الآية إلّا مطابقا لما ذكرناه من المعنى؛ دون معنى التكليف؛ فكأنه قال تعالى: إذا كنتم لا تعلمون هذه الأسماء، فأنتم عن علم الغيب أعجز؛ وبأن تسلموا الأمر لمن يعلمه ويدبّر أمركم بحسبه أولى.

فإن قيل: فكيف علمت الملائكة بأن فى ذرية آدم عليه السلام من يفسد فى الأرض، ويسفك الدماء؟ وما طريق علمها بذلك؟ / وإن كانت غير عالمة فكيف يحسن أن تخبر عنه بغير علم!

قلنا: قد قيل إنها لم تخبر وإنما استفهمت؛ فكأنها قالت متعرفة: أتجعل فيها من يفعل كذا وكذا.

---

(1) م: بعد هذه الكلمة: «وقيل أسماء محمد صلى الله عليه وآله والأئمة من ولده وسلم، وفيه أحاديث مروية».

وقيل: إن الله تعالى أخبرها بأنه سيكون من ذرّية هذا المستخلف من يعصى ويفسد فى الأرض: فقالت على وجه التعرف لما فى هذا التدبير من المصلحة والاستفادة لوجه الحكمة فيه: أتجعل فيها من يفعل كذا وكذا؟

وهذا الجواب الأخير يقتضي أن يكون فى أول الكلام حذف ويكون التقدير: وإذ قال ربّك للملائكة إنّ جاعل فى الأرض خليفة، وإنى عالم أن سيكون من ذريته من يفسد فيها، ويسفك الدماء، فاكتفى عن إيراد هذا المحذوف بقوله تعالى: قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ لأن ذلك دلالة على الأول؛ وإنما حذفه اختصارا.

وفى جملة جميع الكلام اختصار شديد، لأنه تعالى لما حكى عنهم قولهم: أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ كان فى ضمن هذا الكلام: فنحن على ما نظنه ويظهر لنا من الأمر أولى بذلك لأنا نطيع وغيرنا يعصى.

وقوله تعالى: إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ يتضمن أيضا أننى أعلم من مصالح المكلّفين ما لا تعلمونه، وما يكون مخالفا لما تظنونه على ظواهر الأمور.
وفى القرآن من الحذوف العجيبة، والاختصارات الفصيحة ما لا يوجد فى شيء من الكلام؛ فمن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام والناجى من صاحبيه فى السجن عند رؤيا البقر السمان والعجاف: أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ؛ [يوسف: 45]، [ففعلوا، فأتى يوسف، فقال له] (1): يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ؛ [يوسف: 46] [ولو بسط الكلام فأورد محذوفه لقال أنا أنبئكم بتأويله، فأرسلون ففعلوا، فأتى يوسف فقال له: يا يوسف أيها الصديق أفتنا (2)].
ومثله قوله فى الأنعام، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ [الأنعام: 14]: أى، وقيل لى: ولا تكونن من المشركين.

---

(1) ساقط من م.
(2) تكملة من ف.

وكذلك قوله تعالى فى قصة سليمان عليه والسلام: وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ، وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ
وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ
إلى قوله: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً [سبأ: 12، 13]، أى وقيل لهم: اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً.
وقال جرير:
/ وردتم على قيس بخور مجاشع ... فبؤتم على ساق بطيء جبورها (1)
أراد: فبؤتم على ساق مكسورة بطيء جبورها، كأنه لما كان فى قوله: «بطيء جبورها» دليل على الكسر اقتصر عليه.
وقال عنترة:
هل تبلغنّى دارها شدنيّة ... لعنت بمحروم الشّراب مصرّم (2)
يعنى ناقته؛ ومعنى «لعنت» دعاء عليها بانقطاع لبنها وجفاف ضرعها، فصار (3) كذلك هذا كله (4)؛ والناقة إذا كانت لا تنتج كان أقوى لها على السير. قال: تأبط شرا- ويروى للشنفرى:

---

(1) ديوانه: 268؛ وفى حاشية الأصل: «قبله:
ألم تر قيسا حين خارت مجاشع ... تجير، وما إن تبتغى من يجيرها
بنى دارم من ردّ خيلا مغيرة ... غداة الصّفا لم ينج إلّا عشورها
وردتم .... البيت
ومجاشع هو مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن عمرو بن تميم» وخور: جمع خوار، والخور:

الضعف، وناقة خوارة، والجمع أيضا خور». من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فبؤتم».
(2) من المعلقة؛ ص 183 – بشرح التبريزى. والشدنية: ناقة نسبت إلى شدن؛ موضع باليمن، وقيل: هو فحل كان باليمن، تنسب إليه الإبل: والمصرم: الّذي أصاب أخلافه شيء فقطعه؛ من صرار أو غيره.
(3) حاشية الأصل (من نسخة): «فصارت».
(4) من نسخة بحاشية الأصل، ف: «فحذف هذا كله».

فلا تدفنونى إنّ دفنى محرّم ... عليكم، ولكن خامرى أمّ عامر (1)
لأنه أراد: فلا تدفنونى بل دعونى تأكلنى التى يقال لها: خامرى أم عامر؛ وهى الضّبع.
وقال أوس بن حجر:
حتّى إذا الكلّاب قال لها ... كاليوم مطلوبا ولا طلبا (2)
أراد: «لم أر كاليوم»، فحذف.
وقال أبو دؤاد الإيادىّ:
إنّ من شيمتى لبذل تلادى ... دون عرضى، فإن رضيت فكونى
أراد: فكونى معى على ما أنت عليه، وإن سخطت فبينى فحذف هذا كلّه.
وقال الآخر:
إذا قيل سيروا إنّ ليلى لعلّها ... جرى دون ليلى مائل القرن أعضب (3)
أراد لعلّها قريب، وهذا يتسع؛ وهو أكثر من أن يحيط (4) به قول. والحذف غير الاختصار. وقوم يظنون أنهما واحد؛ وليس كذلك لأن الحذف يتعلق بالألفاظ؛ وهو أن تأتى بلفظ يقتضي غيره ويتعلق به، ولا يستقلّ بنفسه؛ ويكون فى الموجود دلالة على المحذوف، فتقتصر عليه طلبا للاختصار، والاختصار يرجع إلى المعانى وهو أن تأتى بلفظ مفيد لمعان كثيرة لو عبّر عنها بغيره لاحتيج إلى أكثر من ذلك اللفظ، فلا حذف إلا وهو اختصار، وليس كل اختصار حذفا.

---

(1) شعر الشنفرى 1: 36 (ضمن الطرائف الأدبية للأستاذ عبد العزيز الميمنى)، وانظر تحقيق نسبة البيت هناك والرواية فيه: «أبشرى أم عامر». وأورد بعده:
إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرّنى ... سجيس الليالى مبسلا بالجرائر.
(2) ديوانه: 2.
(3) فى حاشيتى الأصل، ف «يعنى به الوحشى من الأوعال».
(4) ف وحاشية الأصل (من نسخة): «نحيط به»، ومن نسخة أيضا بحاشيتى الأصل، ف: «أن يضبط».

فمثال الحذف قوله: «ولكن خامرى أمّ عامر» ونظائره مما أنشدناه؛ لأن القول غير مستغن بنفسه؛ بل يقتضي كلاما آخر غير أنه لما كان فيه دلالة على ما حذف حسن استعماله.
ومثال الاختصار الّذي ليس بحذف قول الشاعر:
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل (1)
أراد أنهم أعزاء مقيمون بدار مملكتهم، لا ينتجعون كالأعراب؛ فاختصر هذا المبسوط فى قوله: «حول قبر أبيهم».
ومثله قول عدىّ بن زيد:
عالم بالذى يريد نقى الصّد ... ر وعفّ على جثاه نحور (2)
وفى معنى الاختصار قول أوس بن حجر:
وفتيان صدق لا تخمّ لحامهم ... إذا شبّه النّجم الصّوار النّوافرا
فقوله: «لا تخم لحامهم» لفظ مختصر؛ ولو بسطه لقال: إنهم لا يدّخرون اللحم ولا يستبقونه فيخمّ، (3) بل يطعمونه الأضياف والطّرّاق.
ومعنى قوله:
* إذا شبّه النّجم الصّوار النّوافرا*
يعنى فى شدة البرد وكلب الشتاء؛ والثريا تطلع فى هذا الزمان عشاء، كأنها صوار متفرق.

---

(1) ديوانه: 80؛ وهى مارية بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة.
(2) اللسان (جثا). وفى حاشيتى الأصل، ف: «قوله «جثاه»: تراب كان يجمع ويجعل عليه حجارة وينحر عليها الأصنام؛ يريد أنه طائع متدين؛ ويروى: على جباه»؛ وهى الحياض. والجابية: شيء مثل الحوض يجعل فيها الماء للإبل؛ وجمعها الجوابى».
(3) فى حاشيتى الأصل، ف: «خم اللحم يخم»، وأخم يخم: إذا أنتن».

وهذا أيضا أكثر من أن يحصى، وإنما فضّل الكلام الفصيح بعضه على بعض؛ لقوّة حظه من إفادة المعانى الكثيرة بالألفاظ المختصرة.
فأما قوله تعالى: ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ بعد ذكر الأسماء التى لا تليق بها هذه الكناية، فالمراد به أنه عرض المسمّيات؛ لأن الكناية لا تليق بالأسماء، ولا بدّ من أن تكون تلك المسميات، أو فيها ما يجوز (1) أن يكنّى عنه بهذه الكناية؛ لأنها لا تستعمل إلّا فى العقلاء ومن يجرى مجراهم.
وقيل إن فى قراءة أبىّ: ثمّ عرضها وفى قراءة عبد الله بن مسعود: ثمّ عرضهنّ وعلى هاتين القراءتين يصلح أن

تكون عبارة عن الأسماء.
وقد يبقى فى هذه الآية سؤال لم نجد أحدا ممّن تكلم فى تفسير القرآن، ولا فى متشابهه ومشكله تعرّض له؛ وهو من مهمّ ما يسأل عنه.
وذلك أن يقال: من أين علمت الملائكة لما خبّرها آدم عليه السلام بتلك الأسماء صحة قوله، ومطابقة الأسماء للمسمّيات؛ وهى لم تكن عالمة بذلك من قبل؛ إذ لو كانت عالمة لأخبرت بالأسماء؛ ولم تعترف بفقد العلم؛ والكلام يقتضي أنّهم لما أنبأهم آدم بالأسماء/ علموا صحتها ومطابقتها للمسميات؛ ولولا ذلك لم يكن لقوله: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ معنى، ولا كانوا مستفيدين بذلك نبوّته وتمييزه واختصاصه بما ليس لهم؛ لأنّ كلّ ذلك إنما يتمّ مع العلم دون غيره.
والجواب أنّه غير ممتنع أن يكون الملائكة فى الأوّل غير عارفين بتلك الأسماء؛ فلما أنبأهم آدم عليه السلام بها فعل الله لهم فى الحال العلم الضرورى بصحتها ومطابقتها للمسميات؛ إما عن طريق أو ابتداء بلا طريق؛ فعلموا بذلك تميّزه (2) واختصاصه؛ وليس لأحد أن يقول:
إن ذلك يؤدى إلى أنهم علموا نبوّته اضطرارا؛ وفى هذا منافاة طريقة التكليف؛ وذلك أنّه ليس فى علمهم بصحة ما أخبر به ضرورة ما يقتضي العلم بالنبوّة ضرورة، بل بعده

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «من يجوز».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «تمييزه».

درجات ومراتب لا بدّ من الاستدلال عليها؛ ويجرى هذا مجرى أن يخبر أحدنا نبيّ بما فعل على سبيل التفصيل على وجه يخرق العادة؛ وهو وإن كان عالما بصدق خبره ضرورة لا بدّ له من الاستدلال فيما بعد على نبوّته، لأنّ علمه بصدق خبره ليس هو العلم بنبوّته، لكنه طريق يوصل إليها على ترتيب.
ووجه آخر وهو أنه لا يمتنع أن يكون للملائكة لغات مختلفة، فكلّ قبيل منهم يعرف أسماء الأجناس فى لغته دون لغة غيره، إلّا أن يكون إحاطة عالم واحد لأسماء الأجناس فى جميع لغاتهم خارقة للعادة، فلما أراد الله تعالى التنبيه على نبوّة آدم علّمه جميع تلك الأسماء، فلما أخبرهم بها علّم كل فريق مطابقة ما خبّر به من الأسماء للغته، وهذا لا يحتاج فيه إلى الرجوع إلى غيره، وعلم مطابقته ذلك لباقى اللغات يخبر كل قبيل، ولا شكّ فى أنّ كل قبيل إذا كانوا كثيرة (1)، وخبّروا بشيء يجرى هذا المجرى علم مخبرهم، وإذا أخبر كلّ قبيل صاحبه علم من ذلك فى لغة غيره
ما علمه من لغته.
وهذا الجواب يقتضي أن يكون قوله: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ أى ليخبرنى كلّ قبيل منكم بجميع هذه الأسماء.
وهذان الجوابان جميعا مبنيّان على أن آدم عليه السلام مقدّم له العلم بنبوّته، وأن إخباره بالأسماء

كان افتتاح معجزاته (2)، لأنه لو كان نبيا قبل ذلك، وكانوا قد علموا بقدم ظهور معجزات على يده لم يحتج إلى هذين الجوابين معا، لأنهم يعلمون إذا كانت الحال هذه مطابقة الأسماء للمسميات بعد أن لم يعلموا ذلك بقوله الّذي قد أمنوا به فيه غير الصدق، وهذه بيّن لمن تأمله.

*** قال سيدنا أدام الله علوّه: رأيت قوما ممن تكلم على معانى الشعر، يذكرون فى بيت حسان بن ثابت:

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «كثرة».

(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «افتتاحا لمعجزاته».

لم تفتها شمس النّهار بشيء ... غير أنّ الشّباب ليس يدوم (1)

أن المراد به الاعتذار من كبرها وعلوّ سنها، فكأنه قال: «لم تفتها شمس النهار بشيء» غير أنها كبيرة طاعنة فى السن، وعذرها فى ذلك أنّ الشباب ليس يدوم لأمثالها. وهذا الّذي ذكروه ليس بشيء، والأشبه والأولى أن يكون مراد حسّان أنّ شمس النهار لم تفتها بشيء غير أنّ شبابها مما لا يدوم، ولا بدّ من أن يلحقها الهرم الّذي لا يلحق الشمس، ولم يرد أنها فى الحال كذلك، وكيف يريد ما توهموه مع قوله:

يا لقوم (2) هل يقتل المرء مثلى ... واهن البطش والعظام سئوم!

شأنها العطر والفراش ويعلو ... ها لجين ولؤلؤ منظوم

لو يدبّ الحولىّ من ولد الذّرّ ... عليها لأندبتها الكلوم (3)

وهذه الأوصاف لا تليق بمن طعن فى السنّ من النساء، ولا يوصف بمثلها إلّا الصبيان والأحداث.

ومن العجائب أنّ هذا الاستخراج على ركاكته مسند إلى الأصمعىّ، وما أولى من يكون نتيجة تغلغله، وثمرة توصله مثل هذه الثمرة بالإضراب عن استخراج المعانى والبحث عنها!

ومما فسّره أصحاب المعانى على وجه، وهو بغيره أشبه، وأقلّ الأحوال أن يكون محتملا للأمرين، فلا يقصر على أحدهما قول الخنساء:

يا صخر ورّاد ماء قد تناذره ... أهل الموارد ما فى ورده عار (4)

/ لأنهم يقولون: مرادها بالبيت ما فى ترك ورده عار، يظنون أنه متى لم يحمل على ذلك لم يكن له فائدة، ولا فيه مدح، ويجرونه مجرى قول المرقّش (5):

---

(1) ديوانه: 99، والرواية فيه «لم تفقها».

(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «يا لقومى».

(3) أندبتها: أثرت فيها وجرحتها.

(4) ديوانها: 75.

(5) هو المرقش الأكبر، والبيت فى المفضليات: 239 (طبعة المعارف). ووراء هنا بمعنى أمام؛ ومنه قوله تعالى: وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ. وما يعلم: عاقبة عمله؛ أو الهرم والكبر والضعف.

(2/77)

ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم

وليس الأمر كما ظنّوه، لأنه يحتمل أن يريد أنه لا عار فى ورده على ظاهر الكلام والفائدة فيه ظاهرة لأن البيت وإن تضمّن ذكر ورود الماء فهو كناية عن ركوب الأمور الصعاب التى من جملتها إيراد الماء غلبة وقهرا، فكأنها قالت: إنك تورد ماء قد تناذره الناس، وتركب أمرا صعبا قد نكل عنه الخلق، ولك بذلك حظ فى الشجاعة والبسالة، ومع ذلك فلا عار عليك فى ركوبه، لأنّه ربما فعل الإنسان فعلا يحوز به أكثر الحظ من الشجاعة وإن لحقه بعض العار، من قطيعة رحم، أو نكث عهد، أو ما جرى هذا المجرى، فكأنها نفت عن فعله وجوه العار.

وليس يجرى ذلك مجرى قول المرقّش:

* ليس على طول الحياة ندم*

لأن البيت متى لم يحمل على أن المراد به: ليس على فوت طول الحياة ندم، لم يفد شيئا، وقد بينا فائدة قول الخنساء إذا كان المراد ما ذكرناه.

(2/78)

مجلس آخر 59

تأويل آية [وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [الزخرف: 45].

قلنا: قد ذكر فى هذه الآية وجوه:

أولها أن يكون المعنى: وسل تبّاع من أرسلنا من قبلك من رسلنا؛ ويجرى ذلك مجرى قولهم: السخاء حاتم، والشعر زهير؛ وهم يريدون السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير وأقاموا حاتما مقام السخاء المضاف إليه؛ ومثله قوله تعالى: وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ [البقرة: 177]، ومثله قول الشاعر:

لهم مجلس صهب السّبال أذلّة ... سواسية أحرارها وعبيدها

والمأمور بالسؤال فى ظاهر الكلام النبي عليه وآله السلام؛ وهو فى المعنى لأمته؛ لأنه عليه السلام لا يحتاج إلى السؤال؛ لكنه خوطب خطاب أمته، كما قال تعالى: المص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ/ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ [الأعراف: 1، 2]، فأفرده الله تعالى بالمخاطبة، ثم رجع إلى خطاب أمته فقال: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [الأعراف: 2]، وفى موضع آخر: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ [الأحزاب: 1] فخاطبه عليه السلام والمعنى لأمته، لأنه بيّن بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما

تَعْمَلُونَ خَبِيراً [الأحزاب: 2]، وقال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ [الطلاق: 1] فوحّد وجمع فى موضع واحد وذلك للمعنى الّذي ذكرناه.

(2/79)

وقال الكميت:

إلى السّراج المنير أحمد لا ... تعدلنى رغبة ولا رهب
عنه إلى غيره ولو رفع النّا ... س إلى العيون وارتقبوا
لو قيل أفرطت بل قصدت ولو عن ... فى القائلون، أو ثلبوا
جّ بتفضيلك اللّسان ولو أك ... ثر فيك الضّجاج واللّجب
أنت المصفّى المهذّب المحض فى التش ... بيه إن نصّ قومك النسب (1)

فظاهر الخطاب للنبى عليه السلام، والمقصود به أهل بيته عليهم السلام، لأن أحدا من المسلمين لا يمتنع من تفضيله عليه السلام والإطناب فى وصف فضائله ومناقبه؛ ولا يعنّف فى ذلك أحد، وإنما أراد الكميت: وإن أكثر فى أهل بيته وذويه السلام الضجاج واللجب والتقريع والتعنيف، فوجّه القول (2) إليه والمراد غيره، ولذلك وجه صحيح وهو أنّ المراد بموالاتهم والانحياز إليهم والانقطاع إلى حبهم؛ لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو المقصود بذلك أجمع جاز أن يخرج الكميت الكلام هذا المخرج، ويضعه هذا الموضع. وقيل إن المراد بتبّاع الأنبياء الذين أمر بمسألتهم هم مؤمنو أهل الكتاب (3) كعبد الله ابن سلام ونظرائه، وليس يمتنع أن يكون هو عليه السلام المأمور بالمسألة على الحقيقة كما يقتضيه ظاهر الخطاب، وإن لم يكن شاكا فى ذلك، ولامر تابا به.

ويكون الوجه فيه تقرير أهل الكتاب به، وإقامة الحجة عليهم باعترافهم، أو لأنّ بعض مشركى العرب أنكر أن تكون كتب الله تعالى المتقدمة وأنبياؤه الآتون بها دعت إلى التوحيد، فأمر عليه السلام بتقرير أهل الكتاب (4) / بذلك دعت لنزول الشبهة عمن اعترضته.

والجواب الثانى أن يكون السؤال متوجها إليه عليه السلام دون أمته، والمعنى: إذا لقيت

---

(1) نص: رفع.
(2) فى حاشية الأصل: «نسخة ش: فوجه القول»، بالإضافة.
(3) ف: «أهل الكتب».
(4) من نسخة بحاشية الأصل: «الكتاب».

(2/80)

النبيين فى السماء فاسألهم عن ذلك؛ لأن الرواية قد وردت بأنه صلى الله عليه وآله لقى النبيين فى السماء فسلّم عليهم وأمّهم؛ ولا يكون أمره بالسؤال، لأنه كان شاكا، لأن مثل ذلك لا يجوز عليه

الشكّ فيه؛ لكن لبعض المصالح الراجعة إلى الدين؛ إمّا لشيء يخصه عليه السلام، أو يتعلّق ببعض الملائكة الذين يستمعون ما يجرى بينه وبين النبيين من سؤال وجواب.
والجواب الثالث ما أجاب به ابن قتيبة، وهو أن يكون المعنى: وسل من أرسلنا إليه قبلك رسلا من رسلنا- يعنى أهل الكتاب. وهذا الجواب- وإن كان يوافق فى المعنى الجواب الأول- فبينهما خلاف فى تقدير الكلام وكيفية تأويله، فلهذا صارا مفترقين.
وقد ردّ على ابن قتيبة هذا الجواب، وقيل إنه أخطأ فى الإعراب؛ لأن لفظة «إليه» لا يصح إضمارها فى هذا الموضع؛ لأنهم لا يجيزون: «الّذي جلست عبد الله»، على معنى «الّذي جلست إليه»، لأن «إليه» حرف منفصل عن الفعل، والمنفصل لا يضمر، فلما كان القائل إذا قال: «الّذي أكرمت إياه عبد الله» لم يجز أن يضمر «إياه»؛ لانفصاله من الفعل كانت لفظة «إليه» منزلته.
وكذلك لا يجوز: «الّذي رغبت محمد»، بمعنى «الّذي رغبت فيه محمد»؛ لأن الإضمار إنما يحسن فى الهاء المتعلقة بالفعل كقولك: «الّذي أكلت طعامك»، و «الّذي لقيت صديقك»، معناهما: الّذي أكلته ولقيته.
وقال الفراء: إنما حذفت «الهاء» لدلالة الّذي عليها. وقال غيره فى حذفها غير ذلك؛ وكلّ هذا ليس مما تقدم فى
شيء، فصحّ أن جواب ابن قتيبة مستضعف، والمعتمد على ما تقدم.

تأويل خبر [«كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه»]
إن سأل سائل عن معنى ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه».
قلنا: أمّا أبو عبيد القاسم بن سلّام فإنه قال فى تأويل هذا الخبر: سألت محمد بن الحسن عن تفسيره/ فقال: كان هذا فى أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، ويؤمر المسلمون بالجهاد.
قال أبو عبيد: كأنه يذهب إلى أنه لو كان يولد على الفطرة، ثم مات قبل أن ينصّره أبواه ويهوّداه ما ورّثاه، وكذلك لو ماتا قبله ما ورّثهما، لأنه مسلم وهما كافران؛ وما كان أيضا يجوز أن يسبى، فلما نزلت الفرائض وجرت السّنن بخلاف ذلك علم أنه يولد على دين أبويه.
قال أبو عبيد: وأما عبد الله بن المبارك فإنه قال: هو بمنزلة الحديث الآخر الّذي يتضمّن أنه عليه السلام سئل عن أطفال المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» يذهب إلى أنهم يولدون على ما يصيرون إليه من إسلام أو كفر؛ فمن كان فى علمه تعالى أنه يصير مسلما فإنه يولد على الفطرة، ومن كان فى علمه أنه يموت كافرا ولد على ذلك.
قال أبو عبيد: ومما يشبه هذا الحديث حديثه الآخر أنه قال: «يقول الله عز وجل: إنى خلقت عبيدى جميعا حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم، وجعلت ما أحللته لهم حراما».
قال أبو عبيدة: يريد بذلك البحائر والسّيّب وغير ذلك مما أحله الله تعالى، فجعلوه حراما.
وأما ابن قتيبة فقال- وقد حكى ما ذكرناه عن أبى عبيد-: لست أرى ما حكاه أبو عبيد عن عبد

الله ابن المبارك ومحمد بن الحسن مقنعا لمن أراد أن يعرف معنى الحديث؛ لأنهما لم يزيدا على أن ردّا على ما قال به من أهل القدر.

(2/82)

وتفسير محمد بن الحسن يدلّ على أن الحديث عنده منسوخ، والنسخ لا يكون فى الأخبار، وإنما يكون فى الأمر والنهى؛ قال: ولا يجوز أن يراد به- على تأويل ابن المبارك- بعض المولودين دون بعض؛ لأن مخرجه مخرج العموم. قال: ولا أرى معنى الحديث إلّا ما ذهب إليه حماد بن سلمة؛ فإنه قال فيه: هذا عندنا حيث أخذ العهد عليهم فى أصلاب آبائهم؛ يريد حين مسح الله تعالى ظهر آدم؛ فأخرج منه ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذرّ، وأشهدهم: أَ
لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى
؛ [الأعراف: 172]، فأراد عليه السلام أنّ كلّ مولود يولد فى العالم على ذلك العهد وعلى ذلك الإقرار الأول وهو الفطرة.
/ قال سيدنا أدام الله علوّه: وهذا كله تخليط وبعد عن الجواب الصحيح. والصحيح فى تأويله أن قوله عليه السلام: «يولد على الفطرة» يحتمل أمرين:
أحدهما أن تكون الفطرة هاهنا الدين، وتكون «على» بمعنى اللام؛ فكأنه قال: كل مولود يولد للدّين ومن أجل الدين؛ لأن الله تعالى لم يخلق من يبلغه مبلغ المكلّفين إلّا ليعبده فينتفع بعبادته، يشهد بذلك قوله تعالى: وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ؛ [الذريات: 56]؛ والدليل على أن «على» تقوم مقام اللام ما حكاه يعقوب بن السّكّيت عن أبى زيد عن العرب أنهم يقولون: صف عليّ كذا وكذا حتى أعرفه؛ بمعنى صف لى؛ ويقولون ما أغيظك عليّ! يريدون ما أغيظك لى! والعرب تقيم بعض حروف الصفات مقام بعض فيقولون: سقط الرجل لوجهه؛ يريدون على وجهه، وقال الطّرماح:
كأنّ مخوّاها على ثفناتها ... معرّس خمس وقّعت للجناجن (1)
أراد: على الجناجن (2) -

(1) ديوانه: 166 وفى حاشية الأصل: «خوّى البعير إذا تجافى فى بروكه، ومنه خوّى الرجل فى سجوده، وخوت المرأة عند جلوسها على المجمر»، وفيها أيضا: «يعنى أن فجوات هذه الناقة عند البروك تسع خمس أينق بوارك».
(2) الجناجن: عظام الصدر.

(2/83)

وقال عنترة:
شربت بماء الدّحرضين فأصبحت ... زوراء تنفر عن حياض الدّيلم (1)

معناه: شربت الناقة من ماء الدّحرضين؛ وهما ماءان؛ يقال لأحدهما: وسيع والآخر دحرض، فغلب الأشهر؛ وهو الدّحرض. وإنما ساغ أن يريد بالفطرة- التى هى الخلقة فى اللغة- الدّين من حيث كان هو المقصود بها، وقد يجرى على الشيء اسم ماله به هذا الضرب من التعلّق والاختصاص؛ وعلى هذا يتأول قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها؛ [الروم: 30] أراد دين الله الّذي خلق الخلق له.

وقوله تعالى: لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ؛ [الروم: 30] المراد به أن ما خلق العباد له من العبادة والطاعة ليس مما يتغير ويختلف، حتى يخلق قوما للطاعة، وآخرين للمعصية.

ويجوز أن يريد بذلك الأمر، وإن كان ظاهره الخبر، فكأنه تعالى قال: ولا تبدّلوا ما خلقكم الله له من الدّين والطاعة بأن تعصوا وتخالفوا.

والوجه الآخر فى تأويل الفطرة أن يكون المراد بها الخلقة، وتكون لفظة «على» على ظاهرها/ لم يرد (2) به غيرها، ويكون المعنى: كل مولود يولد على الخلقة الدالة على وحدانية الله تعالى وعبادته والإيمان به، لأنه عز وجل قد صوّر الخلق وخلقهم على وجه يقتضي النظر فيه معرفته والإيمان به؛ وإن لم ينظروا ولم يعرفوا، فكأنه عليه السلام قال: كل مخلوق ومولود فهو يدلّ بخلقه وصورته على عبادة الله تعالى؛ وإن عدل بعضهم فصار يهوديا أو نصاريا.

وهذا الوجه يحتم له أيضا قوله تعالى: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها.

وإذا ثبت ما ذكرناه فى معنى الفطرة فقوله: «حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصرانه» يحتمل وجهين:

---

(1) من المعلقة ص 186 – بشرح التبريزى. الزوراء: المائلة، والديلم: الأعداء، عن الأصمعى.

(2) حاشية الأصل (من نسخة): «بها».

أحدهما أنّ من كان يهوديا أو نصرانيا ممن خلقته لعبادتى وديني؛ فإنما جعله كذلك أبواه، ومن جرى مجراهما ممن أوقع له الشبهة وقلده الضلال عن الدين.

وإنما خص الأبوين لأن الأولاد فى الأكثر ينشئون على مذاهب آبائهم، ويألفون أديانهم وتحلهم؛ ويكون الغرض بالكلام تنزيه الله تعالى عن ضلال العباد وكفرهم، وأنه إنما خلقهم للإيمان فصدهم عنه آباؤهم، أى ومن جرى مجراهم.

والوجه الآخر أن يكون معنى: «يهوّدانه وينصّرانه» أى يلحقانه بأحكامهما، لأنّ أطفال أهل الذمة قد ألحق الشرع أحكامهم بأحكامهم؛ فكأنه عليه السلام قال: لا تتوهموا من حيث لحقت أحكام اليهود والنصارى أطفالهم، أنهم خلقوا لدينهم، بل لم يخلقوا إلا للإيمان والدين الصحيح؛ لكنّ آباءهم هم الذين أدخلوهم فى أحكامهم. وعبّر عن إدخالهم فى أحكامهم بقولهم: «يهوّدانه وينصّرانه»؛ وهذا واضح.

فأما جواب أبى عبيد الّذي حكاه عن محمد بن الحسن فإنا إذا تمكنا من حمل الخبر على وجه نسلم معه من النسخ لم نحتج إلى غيره؛ وإنما توهّم النسخ لاعتقاده أن خلقهم على الفطرة يمنع من إلحاقهم

بحكم آبائهم؛ وذلك غير ممتنع.
وأما الجواب الّذي حكاه عن ابن المبارك ففاسد، لأن الله تعالى لا يجوز أن يخلق أحدا للكفر؛ وكيف يخلقه للكفر وهو يأمره بالإيمان ويريده منه، ويعاقبه ويذمه على خلافه!
فأما ما روى عنه/ عليه السلام- وقد سئل عن أطفال المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» - فإنه يحتمل أن يكون عليه السلام سئل عمّن لم يبلغ من أطفال المشركين:
كيف تكون صورته؟ وإلى أىّ شيء تنتهى عاقبته؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»، وأراد أن ذلك مستور عنّى؛ ولو كانت المسألة عمّن اخترم طفلا لم يجز أن يكون الجواب ذلك.

(2/85)

وأما ابن قتيبة فإنه رد على أبي عبيد من غير وجه يقتضي الرّد واعترض جواب ابن المبارك، باعتبار العموم والخصوص، وترك أن يفسده من الوجه الّذي يفسد به وهو الّذي ذكرناه، وكيف ننبه على فساده من هذه الجهة، وقد اختار فى تأويل الخبر ما يجرى فى الفساد والاختلال مجرى تأويل ابن المبارك.!
فأما النّسخ فى الأخبار فجائز إذا تضمنت معنى الأمر والنهى؛ ويكون ما دلّ على جواز النسخ فى الأوامر دالا على جواز ذلك فيها؛ وهذا مثل أن يقول: الصلاة واجبة عليكم، ثم يقول بعد زمان: ليست بواجبة، فيستدل بالثانى على نسخ الحكم الأول، كما لو قال عليه السلام:
صلوا، ثم قال: لا تصلوا كان النهى الثانى ناسخا للأول.
فأما الجواب الّذي ذكره ابن قتيبة فقد بينا فساده فيما تقدم (1) من الأمالى عند تأويلنا قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ؛ [الأعراف: 172]؛ وأفسدنا قول من اعتقد أنه مسح ظهر آدم، واستخرج منه الذرّية وأشهدها على نفوسها، وأخذ إقرارها بمعرفته بوجوه من الكلام؛ فلا طائل فى إعادة ذلك.

---

(1) انظر الجزء الأول ص 28 - 30.

(2/86)

مجلس آخر 57
تأويل آية [فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ. خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ

إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ
؛ [هود: 106 – 108].
فقال: ما معنى الاستثناء هاهنا والمراد الدوام والتأييد؟ ثم ما معنى التمثيل بمدّة السموات والأرض التى تفنى وتنقطع؟
الجواب، / قلنا: قد ذكر فى هذه الآية وجوه:
أولها أن تكون إِلَّا– وإن كان ظاهرها الاستثناء– فالمراد بها الزيادة؛ فكأنه تعالى قال: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ من الزيادة لهم على هذا المقدار؛ كما يقول الرجل لغيره: لى عليك ألف دينار إلا الألفين الذين أقرضتكهما وقت كذا وكذا، فالألفان زيادة على الألف بغير شكّ؛ لأن الكثير لا يستثنى من القليل؛ وهذا الجواب يختاره الفرّاء وغيره من المفسرين.
والوجه الثانى أن يكون المعنى: إلّا ما شاء ربّك من كونهم قبل دخول الجنة والنار فى الدنيا؛ وفى البرزخ الّذي هو ما بين الحياة والموت وأحوال المحاسبة والعرض وغير ذلك؛ لأنه تعالى لو قال: خالدين فيها أبدا، ولم يستثن لتوهّم متوهّم أنهم يكونون فى الجنة والنار من لدن نزول الآية، أو من بعد انقطاع التكليف، فصار للاستثناء وجه، وفائدة معقولة.

والوجه الثالث أن تكون إِلَّا بمعنى الواو؛ والتأويل: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، وما شاء ربك من الزيادة. واستشهد على ذلك بقول الشاعر:
وكلّ أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلّا الفرقدان (1)
معناه: والفرقدان، ويقول الآخر:
وأرى لها دارا بأغدرة السّ ... يّدان لم يدرس لها رسم (2)
إلّا رمادا هامدا دفعت ... عنه الرّياح خوالد سحم
والمراد ب «إلا» هاهنا الواو؛ وإلا كان الكلام متناقضا.
والوجه الرابع أن يكون الاستثناء الأول متصلا بقوله: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ؛ وتقدير الكلام: لهم فى النار زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضربين، ولا يتعلق الاستثناء بالخلود.
فإن قيل: فهبوا أنّ هذا أمكن فى الاستثناء الأول، كيف يمكن فى الثانى؟
قلنا: يحمل الثانى على استثناء المكث فى المحاسبة والموقف، أو غير ذلك مما تقدّم ذكره.

---

(1) البيت من شواهد سيبويه (الكتاب 1: 371)، ونسبه إلى عمرو بن معديكرب، وأورده شاهدا على نعت «كلّ»، بقوله: «إلا الفرقدان»؛ على تأويل «غير». وفى حاشية الأصل:
قوله «إلا الفرقدان» قيل «إلا» بمعنى غير، والتقدير: غير الفرقدين، ومثله قوله تعالى:
لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا أى غير الله.

(2) أغدرة السيدان: موضع وراء كاظمة؛ بين البصرة والبحرين؛ كذا ذكره ياقوت واستشهد بالبيت. والبيتان من قصيدة مفضلية؛ للمخبل السعدى؛ وقبلهما:

ذكر الرّباب وذكرها سقم ... فصبا، وليس لمن صبا حلم

وإذا ألمّ خيالها طرفت ... عينى، فماء شئونها سجم

كاللؤلؤ المسجور أغفل فى ... سلك النّظام فخانه النّظم

وانظر المفضليات 113 – 118 (طبعة المعارف).

(2/88)

/ والوجه الخامس أن يكون الاستثناء غير مؤثر فى النقصان من الخلود؛ وإنما الغرض فيه: أنه لو شاء أن يخرجهم وألّا يخلدهم لفعل، وأن التخليد إنما يكون بمشيئته وإرادته، كما يقول القائل لغيره: والله لأضربنّك إلا أن أرى غير ذلك، وهو لا ينوى إلا ضربه، ومعنى استثنائه هاهنا: أنى لو شئت ألّا أضربك لفعلت وتمكنت؛ غير أنى مجمع على ضربك.

والوجه السادس أن يكون تعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود، والتبعيد للخروج؛ لأن الله تعالى لا يشاء إلا تخليدهم على ما حكم به، ودلّ عليه؛ ويجرى ذلك مجرى قول العرب: والله لأهجرنّك إلا أن يشيب الغراب، ويبيضّ القار؛ ومعنى ذلك أنى أهجرك أبدا؛ من حيث علّق بشرط معلوم أنه لا يحصل؛ وكذلك معنى الآيتين؛ والمراد بهما أنهم خالدون أبدا؛ لأن الله تعالى لا يشاء أن يقطع خلودهم.

والوجه السابع أن يكون المراد بالذين شقوا من أدخل النار من أهل الإيمان، الذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعتهم المعاصى؛ فقال تعالى: إنهم معاقبون فى النار إلا ما شاء ربك؛ من إخراجهم إلى الجنة، وإيصال ثواب طاعاتهم إليهم.

ويجوز أيضا أن يريد بأهل الشقاء هاهنا جميع الداخلين إلى جهنم؛ ثم استثنى تعالى بقوله:

إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ أهل الطاعات منهم، ومن يستحقّ ثوابا لا بدّ أنه يوصل إليه فقال:

إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ من إخراج بعضهم؛ وهم أهل الثواب.

وأما الذين سعدوا فإنما استثنى من خلودهم أيضا لما ذكرناه؛ لأنّ من نقل من النار إلى الجنة وخلّد فيها لا بدّ من الإخبار عنه بتأبيد خلوده من استثناء ما تقدّم؛ فكأنه تعالى قال: إنهم خالدون فى الجنة ما دامت السموات والأرض؛ إلا ما شاء ربك من الوقت الّذي أدخلهم فيه النار، قبل أن ينقلهم إلى الجنة.

والذين شقوا على هذا الجواب هم الذين سعدوا، وإنما أجرى عليهم كل لفظ فى الحال التى تليق بهم؛ فهم إذا أدخلوا النار وعوقبوا فيها من أهل الشقاء، وإذا نقلوا إلى الجنة من أهل الجنة والسعادة.

(2/89)

وقد ذهب إلى هذا الوجه جماعة من المفسرين كابن عباس وقتادة والضحّاك/ وغيرهم.
وروى بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضّحاك عن ابن عباس قال: الذين شقوا ليس فيهم كافر؛ وإنما هم قوم من أهل التوحيد، يدخلون النار بذنوبهم، ثم يتفضّل الله تعالى عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنة، فيكونون أشقياء في حال، سعداء في حال أخرى.
وأما تعليق الخلود بدوام السموات والأرض؛ فقد قيل فيه: إن ذلك لم يجعل شرطا في الدوام؛ وإنما علّق به على طريق التبعيد وتأكيد الدوام؛ لأن للعرب في مثل هذا عادة معروفة خاطبهم الله تعالى عليها؛ لأنهم يقولون: لا أفعل كذا ما لاح كوكب، وما أضاء الفجر، وما اختلف الليل والنهار، وما بلّ بحر صوفة، وما تغنّت حمامة، ونحو ذلك، ومرادهم التأبيد والدوام.
ويجرى كل ما ذكرناه مجرى قولهم: لا أفعل كذا أبدا؛ لأنهم يعتقدون في جميع ما ذكرناه أنه لا يزول ولا يتغير؛ وعباراتهم إنما يخرجونها بحسب اعتقاداتهم، لا بحسب ما عليه الشيء في نفسه؛ ألا ترى أن بعضهم لما اعتقد في الأصنام أن العبادة تحقّ لها سمّاها آلهة بحسب اعتقادهم، وإن لم تكن في الحقيقة كذلك!
ومما يشهد لمذهبهم الّذي حكيناه قول أبي الجويرية العبدىّ:
ذهب الجود والجنيد جميعا ... فعلى الجود والجنيد السلام (1)
أصبحا ثاويين في قعر مرت (2) ... ما تغنّت على الغصون الحمام
وقال الأعشى:

---

(1) معجم الشعراء للمرزبانى 258، والمختلف والمؤتلف للآمدى 79؛ وذكر بعدها بيتا ثالثا:
لم تزل غاية الكرام فلمّا ... متّ مات الندى ومات الكرام
وهو الجنيد بن عبد الرحمن المرى، كان والى خراسان.
(2) المرت: القفر من الأرض؛ وفي المؤتلف:
«بطن مرو». وفي ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «قعر مرو».

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ... ولست ضائرها ما أطّت الإبل! (1)
وقال الآخر:
لا أفتأ الدّهر أبكيهم بأربعة ... ما اجترّت النّيب أو حنّت إلى بلد (2)
وقال زهير منبئا (3) عن اعتقاده دوام الجبال، وأنها لا تفنى ولا تتغير:
ألا لا أرى على الحوادث باقيا ... ولا خالدا إلّا الجبال الرّواسيا (4)
/ فهذا وجه.
وقيل أيضا في ذلك أنه أراد به الشرط، وعنى بالآية دوام السموات والأرض المبدّلتين؛ لأنه تعالى قال: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ؛ [إبراهيم: 48]، فأعلمنا تعالى أنهما تبدّلان؛ وقد يجوز أن يديمهما بعد التغيير أبدا بلا انقطاع؛ وإنما المنقطع هو دوام السموات والأرض قبل التبديل

والفناء.
ويمكن أيضا أن يكون المراد أنهم خالدون بمقدار مدّة السموات والأرض التى يعلم الله تعالى انقطاعها ثم يزيدها الله تعالى على ذلك ويخلّدهم، ويؤيد مقامهم وهذا الوجه يليق بالأجوبة التى تتضمن أن الاستثناء أريد به الزيادة على المقدار المتقدم لا النقصان.
*** قال سيدنا أدام الله تمكينه: وجدت الآمدىّ قد ظلم البحترىّ فى تفسير بيت له مضاف إليه مع ظلمه له فى أشياء كثيرة تأوّلها على خلاف مراد البحترىّ، وحكى قوله:

---

(1) ديوانه: 46. أثلة كل شيء: أصله؛ ويريد بها هاهنا الحسب؛ يقال: فلان ينحت أثلتنا إذا قال فى حقه قبيحا؛ كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت. والأطيط: صوت الإبل من ثقل أحمالها.
(2) الجرة: ما تخرجه الإبل من أجوافها، وتعيد مضغه. وفى حاشية الأصل: يعنى بأربعة أحجبة العين؛ كما قال:
يا عين بكّى عند كلّ صباح ... جودى بأربعة على الجرّاح.
(3) د، ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «مبينا».
(4) ديوانه: 288.

كالبدر إلّا أنّها لا تجتلى ... والشّمس إلّا أنها لا تغرب (1)
ثم قال: " وهذا فيه سؤال؛ لأنه لما قال:
* كالبدر إلا أنها لا تجتلى*
فالمعنى أن عيون الناس كلّهم ترى البدر وتجتليه، وهى لا تراها العيون ولا تجتلى".
ثم قال:
" والشمس إلا أنها لا تغرب
وإنما قال: «لا تجتلى» لأنها محجوبة؛ فإذا كانت فى حجاب فهى فى غروب؛ لأن الشمس إذا غربت فإنما تدخل تحت حجاب، فظاهر المعنى: كالبدر إلا أن العيون لا تراها، والشمس إلا أن العيون لا تفقدها". قال: " وهذا القول متناقض كما ترى" قال: " وأظنه أراد أنها وإن كانت فى حجاب فإنه لا يقال لها: غربت تغرب كما يقال للشمس؛ وإنما يقال لها إذا سافرت:
بعدت، واغتربت وغرّبت إذا توجهت نحو الغرب، وقد يقال للرجل اغرب عنا (2)، أى ابعد، ولو استعار لها اسم الغروب عن الأرض التى تكون فيها إذا ظعنت عنها إلى أرض أخرى كان ذلك حسنا جدا، لا سيما وقد جعلها شمسا، كما قال ابراهيم بن العباس الصولىّ:
وزالت زوال الشّمس عن مستقرّها ... فمن مخبرى: فى أىّ أرض غروبها؟ (3)
قال: " وقد يجوز أن يقول قائل: إنه أراد: لا تغرب تحت الأرض كما تغرب الشمس؛ وهذه معاذير/ ضيقة، لأبى عبادة فإن لم يكن قد أخطأ فقد أساء".
قال سيدنا أدام الله علوّه: وما المخطئ غير الآمدىّ، ومراد البحترىّ بقوله أوضح من أن يذهب على

متأمّل، لأنه أراد بقوله:
* والشمس إلا أنها لا تغرب*
أى أنها لا تصير بحيث يتعذر رؤيتها ويمتنع، كما يتعذر رؤية الشمس على من غربت

---

(1) ديوانه 1: 62.
(2) حاشية الأصل (من نسخة): «عنى».
(3) ديوانه: 140 (ضمن مجموعة الطرائف).

عن أفق بلده. والمرأة- وإن احتجبت باختيارها- فإن ذلك ليس بغروب كغروب الشمس؛ لأنها إذا شاءت ظهرت وبرزت للعيون، والشمس إذا غربت فرؤيتها غير ممكنة، ولهذا لا يصحّ أن يقال لمن استظل بدار أو جدار عن الشمس: إنها غربت عنه، وإن كان غير راء لها، لأن رؤيتها ممكنة بزوال ذلك المانع، وكذلك القول فى احتجاب المرأة؛ فلا تناقض فى بيت البحترى على ما ظنه الآمدىّ.
ولبعضهم فى هذا المعنى:
قد قلت للبدر واستعبرت حين بدا ... ما فيك يا بدر لى من وجهها خلف
تبدى لنا كلما شئنا محاسنها ... وأنت تنقص أحيانا وتنكسف
فمعنى قوله: «فأنت تنقص وتنكسف» جار مجرى غروب الشمس، لأنه فضّلها على البدر من حيث كان بروزها لمبصرها موقوفا على اختيارها، والبدر ينكسف ويغيب على وجه لا تمكن رؤيته، كما فضلها البحترىّ بأنها لا تغرب حتى تصير رؤيتها مستحيلة، والشمس كذلك.
وقد ظلم الآمدىّ البحترىّ فى قوله:
لا العذل يردعه ولا التّعنيف عن كرم يصدّه
قال الآمدىّ" وهذا عندى من أهجى ما مدح به خليفة وأقبحه، ومن ذا يعنّف الخليفة على الكرم أو يصده! إن هذا بالهجو أولى منه بالمدح".
قال سيدنا رضى الله عنه: وللبحترى فى هذا عذر من وجهين:
أحدهما أن يكون الكلام خرج مخرج التقدير؛ فكأنه قال: لو عنّف وعذل لما صدّه ذلك عن الكرم، وإن كان من حق العذل والتعنيف أن يصدّ أو يحجز عن الشيء،

وهذا له نظائر فى القرآن، وفى كلام العرب كثير مشهور، وقد مضى فيما أمليناه شيء من ذلك.
والوجه الآخر أن العذل والتعنيف/ وإن لم يتوّجها إليه فى نفسه فهما موجودان فى الجملة على الإسراف فى البذل والجود بنفائس الأموال، ولم يقل البحترىّ: إن عذله يردعه، أو تعنيفه يصدّه، وإنما

قال: «لا العذل يردعه ولا التعنيف يصده»، فكأنه أخبر أن ما يسمعه من عذل العذال على الكرم وتعنيفهم على الجود وإن كان متوجّها إلى غيره فهو غير صادّ له لقوة عزيمته، وشدّة بصيرته.
*** ومما خطأ الآمدىّ فيه البحترىّ وإن كان له فيه عذر صحيح لم يهتد إليه قوله:
ذنب كما سحب الرّداء يذبّ عن ... عرف وعرف كالقناع المسبل
قال الآمدىّ: " وهذا خطأ من الوصف لأنّ ذنب الفرس إذا مسّ الأرض كان عيبا فكيف إذا سحبه! وإنما الممدوح من الأذناب ما قرب من الأرض، ولم يمسها كما قال امرؤ القيس:
* يضاف فويق الأرض ليس بأعزل (1) "*
قال" وقد عيب امرؤ القيس بقوله:
لها ذنب مثل ذيل العروس ... تسدّ به فرجها من دبر" (2)
قال" وما أرى العيب يلحق امرأ القيس، لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها، وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض عيبا فليس بمنكر أن يشبّه به الذنب، وإن لم يبلغ إلى

---

(1) ديوانه 44، وصدره:
* كميت إذا استدبرته سدّ فرجه*
استدبرته: جئت من ورائه. والضافى: الذنب الطويل الشعر. والأعزل: الّذي يميل ذنبه إلى جانبه، وهو عادة لا خلقة؛ وذلك عيب عندهم.
(2) ديوانه: 13.

أن يمسّ الأرض، لأن الشيء إنما يشبّه الشيء إذا قاربه، أو دنا من معناه، فإذا أشبهه فى أكثر أحواله فقد صحّ التشبيه ولاق به.
وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول الذنب بطول ذيل العروس فقط، وإنما أراد السّبوغ والكثرة والكثافة، ألا ترى أنه قال:
* تسدّ به فرجها من دبر*
وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفا، ولا يسد فرج الفرس فلما قال: «تسد به فرجها» علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول، فإذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان فى الطول قريبا منه، فالتشبيه صحيح، وليس ذلك بموجب للعيب وإنما العيب فى قول البحترى: «ذنب كما سحب الرداء»، فأفصح بأن الفرس يسحب ذنبه.
ومثل قول امرئ القيس قول خداش بن زهير:
/ لها ذنب مثل ذيل الهدىّ ... إلى جؤجؤ أيّد الزّافر
والهدىّ: العروس التى تهدى إلى زوجها. والأيّد: الشديد. والزافر: الصّدر، لأنها تزفر منه". قال" فشبه الذنب الطويل السابغ بذيل الهدىّ، وإن لم يبلغ فى الطول إلى أن يمس الأرض"
قال سيدنا أدام الله تمكينه: وللبحترىّ وجه فى العذر يقرب من عذر امرئ القيس فى قوله: «مثل ذيل

العروس» غير أن الآمدىّ لم يفطن له؛ وأول ما نقوله: إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه فى كلامه التحقيق والتحديد، فإن ذلك متى اعتبر فى الشعر بطل جميعه، وكلام القوم مبنىّ على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والإيماء على المعانى تارة من بعد، وأخرى من قرب؛ لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق؛ وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم.

(2/95)

وإنما أراد البحترىّ بقوله: «ذنب كما سحب الرداء» المبالغة فى وصفه بالطول والسبوغ وأنه قد قارب أن ينسحب، وكاد يمسّ الأرض. ومن شأن العرب أن تجرى على الشيء الوصف الّذي قد كان قد يستحقه، وقرب منه القرب الشديد فيقولون: قد قتل فلانا هوى فلانة، ودلّه (1) عقله؛ وأزال تمييزه وأخرج نفسه، وكل ذلك لم يقع وإنما أرادوا المبالغة وإفادة المقاربة والمشارفة؛ ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.

ومن شأنهم أيضا إذا أرادوا المبالغة التامة أن يستعملوا مثل هذا؛ فيشبهون الكفل بالكثيب وبالدّعص وبالتلّ، ويشبهون الخصر بوسط الزنبور، وبمدار (2) حلقة الخاتم، ويعدّون هذا غاية المدح وأحسن الوصف، ونحن نعلم أنا لو رأينا من خصره مقدار وسط الزنبور، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجنا صورته لنكارتها وقبحها، وإنما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقا، لا لتحمل على ظواهرها تحديدا وتحقيقا؛ بل ليفهم منها الغاية المحمودة، والنهاية المستحسنة، ويترك ما وراء ذلك، فإنا نفهم من قولهم: خصرها كخصر الزنبور أنه فى نهاية الدقة المستحسنة فى البشر، ومن قولهم/: كفلها كالكثيب أى أنه فى نهاية الوثارة المحمودة المطلوبة، لا أنه كالتل على التحقيق؛ فهكذا لا ننكر أن يريد البحترى بقوله:

«كما سحب الرداء» أنه فى غاية الطول الممدوح، لا أنه ينجرّ على الأرض الحقيقة، ووكلنا فى تخليص معناه وتفصيله إلى العادة الجارية لنظرائه من الشعراء فى استعمال مثل اللفظ الّذي استعمله؛ وقد قال بعضهم فى ثقل العجيزة:

تمشى فتثقلها روادفها ... فكأنها تمشى إلى خلف

وقال المؤمل:

من رأى مثل حبّتى ... تشبه البدر إذ بدا

تدخل اليوم ثمّ تد ... خل أردافها غدا

وقال ذو الرمة:

ورمل كأوراك العذارى قطعته ... وفد جلّلته المظلمات الحنادس

---

(1) حاشية الأصل: «نسخة ش: وولّه».

(2) حاشية الأصل (من نسخة): «بمقدار».

(2/96)

وهذا كلام لو حمل على ظاهره وحقيقته لكان الموصوف به فى نهاية القبح؛ لأن من يمشى إلى خلف، ومن يدخل كفله بعده لا يكون مستحسنا.
وقال بكر بن النطاح:
فرعاء تسحب من قيام شعرها (1) ... وتغيب فيه وهو جثل أسحم
فكأنّها فيه نهار مشرق (2) ... وكأنّه ليل عليها مظلم
فوصف شعرها بأنه ينسحب مع قيامها، ونحن نعلم أن طول الشعر- وإن كان مستحسنا- فليس إلى هذا الحد؛ وإنما أراد بقوله: «تسحب شعرها» ما أراده البحترىّ بقوله: «كما سحب الرداء» من المبالغة فى الوصف بالطول المحمود دون المذموم.

---

(1) م: «فرعها».
(2) م: «ساطع».

مجلس آخر 58
تأويل آية [أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا، لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا، لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ؛ [مريم: 38].
فقال: ما تأويل هذه الآية؟ فإن كان المراد بها التعجّب من قوة أسماعهم ونفاذ أبصارهم؛ فكيف يطابق ما خبّر به
عنهم فى مواضع كثيرة من الكتاب/ بأنهم لا يبصرون ولا يسمعون وأن على أسماعهم وأبصارهم غشاوة؟ وما معنى قوله تعالى: لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ؟ أىّ يوم هو اليوم المشار إليه؟ وما المراد بالضلال المذكور؟ .
الجواب، قلنا: أمّا قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ؛ فهو على مذهب العرب فى التعجّب؛ ويجرى مجرى قولهم: ما أسمعه! وما أبصره! والمراد بذلك الإخبار عن قوة علومهم بالله تعالى فى تلك الحال؛ وأنهم عارفون به على وجه الاعتراض للشبهة عليه؛ وهذا يدلّ على أنّ أهل الآخرة عارفون بالله تعالى ضرورة؛ ولا تنافى بين هذه الآية وبين الآيات التى أخبر عنهم فيها بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون؛ وبأن على أبصارهم غشاوة؛ لأنّ تلك الآيات تناولت أحوال التكليف، وهى الأحوال التى كان الكفار فيها ضلّالا عن الدين، جاهلين بالله تعالى وصفاته. وهذه الآية تناولت يوم القيامة؛ وهو المعنىّ بقوله تعالى: يَوْمَ يَأْتُونَنا؛ وأحوال يوم القيامة لا بدّ فيها من المعرفة الضرورية. وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى:
لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [ق: 22].
فأما قوله تعالى: لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فيحتمل أن يريد تعالى بقوله: الْيَوْمَ الدّنيا

وأحوال التكليف؛ ويكون الضلال المذكور إنما هو الذّهاب عن الدين والعدول عن الحق، فأراد تعالى أنّهم فى الدنيا جاهلون، وفى الآخرة عارفون؛ بحيث لا تنفعهم المعرفة. ويحتمل أن يريد تعالى باليوم يوم القيامة؛ ويعنى تعالى

«بالضلال» العدول عن طريق الجنة ودار الثواب إلى دار العقاب؛ فكأنه تعالى قال: أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا؛ غير أنهم مع معرفتهم هذه وعلمهم يصيرون فى هذا اليوم إلى العقاب؛ ويعدل بهم عن طريق الثواب.

وقد روى معنى هذا التأويل عن جماعة من المفسرين فروى عن الحسن فى قوله تعالى:

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا قال: يقول تعالى: هم يوم القيامة سمعاء بصراء؛ لكن الظالمون اليوم فى الدنيا ليسوا سمعاء وبصراء؛ ولكنهم فى ضلال عن الدين مبين.

وقال قتادة وابن زيد: ذلك والله يوم القيامة؛ سمعوا حين لم ينفع السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم؟ البصر.

وقال أبو مسلم بن بحر فى تأويل هذه الآية كلاما جيدا، قال: " معنى أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ما أسمعهم! وما أبصرهم! وهذا على طريق المبالغة فى الوصف؛ يقول: فهم يوم يأتوننا أى يوم القيامة سمعاء بصراء؛ أى عالمون وهم اليوم فى دار الدنيا فى ضلال مبين، أى جهل واضح". قال:

" وهذه الآية تدلّ على أنّ قوله: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ، [البقرة: 171] ليس معناه الآفة فى الأذن، والعين والجوارح؛ بل هو أنهم لا يسمعون عن قدرة، ولا يتدبرون ما يسمعون، ولا يعتبرون بما يرون؛ بل هم عن ذلك

غافلون؛ فقد نرى أنّ الله تعالى جعل قوله تعالى: لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ مقابلا لقوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا، أى ما أسمعهم! وما أبصرهم! فأقام تعالى السمع والبصر مقام الهدى؛ إذ جعله بإزاء الضلال المبين."

وأما أبو على بن عبد الوهاب فإنه اختار فى تأويل هذه الآية غير هذا الوجه، ونحن نحكى كلامه على وجهه، قال: " وعنى بقوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ أى أسمعهم وبصّرهم وبيّن لهم أنّهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء سيكونون فى ضلال عن الجنة وعن الثواب الّذي يناله المؤمنون والظالمون الذين ذكرهم الله هم هؤلاء الذين توعّدهم الله بالعذاب فى ذلك اليوم".

ويجوز أيضا أن يكون عنى بقوله: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ، أى أسمع الناس بهؤلاء الأنبياء وأبصرهم بهم؛ ليعرفوهم ويعرفوا خبرهم، فيؤمنوا بهم، ويقتدوا بأعمالهم.

وأراد بقوله تعالى لكِنِ الظَّالِمُونَ لكن من كفر بهم من الظالمين اليوم؛ وهو يعنى يوم القيامة فى ضلال

عن الجنة، وعن نيل الثواب، مبين.
وهذا الموضع من جملة المواضع التى استدركت على أبى على، وينسب فيها إلى الزلل؛ لأن الكلام وإن كان محتملا لما ذكره بعض الاحتمال من بعد، فإن الأولى والأظهر فى معنى ما تقدم ذكره من المبالغة فى وصفهم وقوله تعالى: لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ بعد ما تقدّم لا يليق إلا بالمعنى الّذي ذكرناه؛ لا سيما إذا حمل اليوم على أنّ المراد به يوم القيامة؛ على أن أبا عليّ جعل قوله تعالى: لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ من صلة قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ وتأوله على أنّ المعنىّ به أعلمهم وبصّرهم/ بأنهم يوم القيامة فى ضلال عن الجنة. والكلام يشهد بأنّ ذلك لا يكون من صلة الأول وأنّ قوله تعالى: لكِنِ استئناف لكلام ثان.
وما يحتاج أبو عليّ إلى هذا؛ بل لو قال على ما اختاره من التأويل أنه أراد أسمعهم وأبصرهم يوم يأتوننا أى ذكّرهم بأهواله، وأعلمهم بما فيه؛ ثم قال مستأنفا. لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ لم يحتج إلى ما ذكره؛ وكان هذا أشبه بالصواب.
فأما الوجه الثانى الّذي ذكره فباطل، لأن قوله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ إذا تعلّق بالأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقى قوله يَوْمَ يَأْتُونَنا بلا عامل (1) ومحال أن يكون ظرف لا عامل له؛ فالأقرب والأولى أن يكون على الوجه الأول مفعولا.
ووجدت بعض من اعترض على أبى عليّ يقول رادا عليه: لو كان الأمر على ما ذهب إليه أبو عليّ لوجب أن يقول
تعالى: أسمعهم وأبصرهم بغير باء، وهذا الردّ غير صحيح؛ لأن

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «لا علاقة له بذلك».

الباء فى مثل هذا الموضع غير منكر زيادتها؛ وذلك موجود كثير فى القرآن والشعر؛ قال الله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ؛ [العلق: 96]، عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ؛ [الإنسان: 6]، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ [مريم: 25]، تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ؛ [الممتحنة: 1].
وقال الأعشى:
ضمنت برزق عيالنا أرماحنا
وقال امرؤ القيس:
هصرت بغصن ذى شماريخ ميّال (1)
وأظنّ أبا عليّ إنما أنّسه بهذا الجواب أنه وجد تاليا للآية لفظ أمر؛ وهو قوله تعالى: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، فحمل الأول على الثانى؛ والكلام لا تشتبه معانيه من حيث المجاورة؛ بل الواجب أن يوضع كلّ منه حيث يقتضيه معناه.
*** قال: المرتضى وجدت جماعة من أهل الأدب يستبعدون أن يرتج على إنسان فى خطبة أو كلام قصد له، فينبعث منه فى تلك الحال كلام هو أحسن مقصد إليه؛ وأبلغ ممّا أرتج عليه دونه ويقولون:

إنّ النسيان لا يكون إلا عن حيرة وضلالة؛ فكيف يجتمع معهما البراعة الثاقبة، والبلاغة المأثورة؛ مع حاجتهما إلى اجتماع الفكرة وحضور (2) الذكر! وينسبون جميع ما يحكى من كلام مستحسن، ولفظ مستغرب (3) عمّن حصر فى خطبة أو فى منطق إلى أنه موضوع مصنوع.

---

(1) ديوانه: 19؛ وصدره:
* فلما تنازعنا الحديث وأسمحت*
تنازعنا: تعاطينا. أسمحت: لانت وانقادت.؛ ويريد بالشماريخ هاهنا خصائل الشعر؛ وأصل الشمراخ: الغصن.
(2) حاشية ف (من نسخة): «حصول».
(3) حاشية ف (من نسخة): «مستعذب».

/ وليس الّذي استبعدوه وأنكروه ببعيد ولا منكر، لأن النسيان قد يخص شيئا دون شيء، ويتعلّق بجهة دون جهة، وهذا أمر متعارف، فلا ينكر أن ينسى الإنسان شيئا قصده وعزم على الكلام فيه، ويكون مع ذلك ذاكرا لغيره، متكلّما فيه بأبلغ الكلام وأحسنه، بل ربما كان الحصر والذّهاب عن القصد بحميان القريحة، ويوقدان الفكرة، ويبعثان على أحسن الكلام وأبرعه، ليكون ذلك هربا من العيّ وانتفاء من اللّكنة.
ومن أحسن ما روى من الكلام وأبرعه فى حال الحصر والانقطاع عن المقصود من الكلام ما أخبرنى به أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنا ابن دريد قال حدثنا أبو حاتم.
قال المرزبانىّ: وأخبرنا ابن دريد مرة أخرى قال حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبىّ قالا: صعد خالد بن عبد الله القسرىّ (1) يوما المنبر بالبصرة فأرتج عليه، فقال: «أيها الناس، إن الكلام- وقال أبو حاتم: إن هذا القول- يجيء أحيانا، ويذهب أحيانا، فيتسبب عند مجيئه سببه، ويعزّ عند عز وبه طلبه، وربما كوبر فأتى، وعولج فأبطأ وقال ابن الكلبى: ربما طلب فأبى، وعولج فقسا- فالتّأتى لمجيئه أصوب من التعاطى لأبيّه». ثم نزل. فما رؤى حصر أبلغ منه.
وقال أبو حاتم: «والترّك لأبيّه أفضل من التعاطى لمجيئه، وتجاوزه عند تعززه أولى من طلبه عند تنزّحه؛ وقد يختلج من الجريء جنانه، ويرتج على البليغ لسانه»، ثم نزل.
وأخبرنا بهذا الخبر أبو عبيد الله المرزبانىّ على وجه آخر قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطىّ قال: كان خالد بن عبد الله القسرى حين ولّاه هشام بن عبد الملك يكثر الخطب والتبالغ، فقدم واسطا، فصعد المنبر فحاول الخطبة فأرتج عليه، فقال: «أيها الناس، إن هذا الكلام يجيء أحيانا ويعزب أحيانا، فيعز عند عزوبه طلبه؛ ويتسبب عند مجيئه سببه، وربما كوثر فأبى، وعوسر فقسا، والتأتّى لمجيئه أسهل من التعاطى لأبيه؛ وتركه عند تعزّزه (2) أحمد من طلبه

---

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «القسرىّ: منسوب إلى قسر، وهى قرية من قرى العرب».
(2) ف: «تعذره».

(2/102)

عند تنكّره، فقد يرتج على اللسن لسانه، فلا ينظره القول إذا اتسع، ولا ينشأ إذا امتنع، ومن لم تمكن له الخطوة، فخليق أن تعنّ له النّبوة».
وأخبرنا المرزبانىّ قال أخبرنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنى أبو العباس المنصورىّ قال: صعد أبو العباس السفّاح/ المنبر فأرتج عليه فقال: «أيها الناس، إنما اللسان بضعة من الإنسان، يكلّ إذا كلّ، وينفسح بانفساحه إذا انفسح، ونحن أمراء الكلام، منّا تفرعت فروعه، وعلينا تهدّلت غصونه، ألا وإنّا لا نتكلم هذرا؛ ولا نسكت إلا معتبرين».
ثم نزل.
فبلغ ذلك أبا جعفر فقال: لله هو! لو خطب بمثل ما اعتذر لكان من أخطب الناس.
وهذا الكلام يروى لداود بن على.
وبهذا الإسناد عن محمد بن الصباح عن قثم بن جعفر بن سليمان عن أبيه قال: أراد أبو العباس السفّاح يوما أن يتكلم فى أمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه، وكان فيه حياء مفرط فأرتج عليه، فقال داود بن علىّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه:
إن أمير المؤمنين، الّذي قلّده الله سياسة رعيته عقل من لسانه عند ما تعهّد من بيانه، ولكل مرتق بهر، حتى تنفّسه العادات، فأبشروا بنعمة الله فى صلاح دينكم، ورغد عيشكم».
وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدثنا عبد الله بن إسحاق بن سلّام قال: صعد عثمان بن عفان المنبر فأرتج عليه فقال: «أيها الناس، سيجعل الله بعد عسر يسرا، وبعد عىّ نطقا، وإنكم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال».
وروى محمد بن يزيد النحوىّ هذا الكلام بعينه عن زياد بن يزيد بن أبى سفيان (1) وقد

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «يزيد بن أبى سفيان»؛ وفيهما أيضا. «يزيد بن أبى سفيان يقال له: يزيد الخير؛ واستعمله أبو بكر على الشام، ثم أقره عمر بعده؛ ومات بالشام وهو عامل عمر فى طاعون عمواس فى سنة ثمانى عشرة؛ فولى عمر أخاه معاوية ما كان يليه، ولا عقب له».

(2/103)

خطب على بعض منابر الشام وإن عمرو بن العاص لما بلغه كلامه قال: هنّ مخرجاتى من الشام؛ استحسانا لكلامه.
وروى محمد بن يزيد النحوىّ قال: بلغنى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد- وكان واليا على قوم- فقال

لهم: «أيها الناس، إنى إلّا أكن فارسا طبّا بهذا القرآن فإن معى من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفا منه، وما أساء القائل
أخو البراجم (1) حيث يقول:
وما عاجلات الطّير يدنين للفتى ... رشادا، ولا من ريثهنّ يخيب (2)
وربّ أمور لا تضيرك ضيرة ... وللقلب من مخشاتهنّ وجيب (3)
ولا خير فيمن لا يوطّن نفسه ... على حادثات الدّهر حين تنوب (4)
وفى الشّكّ تفريط، وفى الحزم قوّة ... ويخطى الفتى فى حدسه ويصيب (5)
/ فقال له رجل من كلب: إنّ هذا المنبر لم ينصب للشعر، بل ليحمد الله عليه ويصلّى على النبي صلّى الله عليه وآله وللقرآن، فقال: أما لو أنشدتكم شعر رجل من كلب لسرّكم، فكتب إلى يزيد بذلك فعزله، وقال: قد كنت أرى أنك جاهل، ولم أحسب أنّ الحمق بلغ بك هذا كلّه، فقال له: أحمق منّى من ولّانى.

---

(1) الأبيات فى الكامل 3: 201 – بشرح المرصفى؛ ونسبها إلى ضابئ بن الحارث البرجمى؛ وقبلها:
ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيار بها لغريب.
(2) رواية الكامل:
وما عاجلات الطّير تدنين من الفتى ... نجاحا ولا عن ريبهنّ يخيب
قال المبرد فى شرح البيت: " يقول: إذا لم تعجل له طير سانحة فليس ذلك بمبعد خيرا عنه، ولا إذا أبطأت خاب؛ فعاجلها لا يأتيه بخير، وآجلها لا يدفعه عنه إنما له ما قدّر له؛ والعرب تزجر على السانح وتتبرك به، وتكره البارح وتتشاءم به؛ والسانح ما أراك ميامنه فأمكن الصائد، والبارح ما أراك مياسره فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له".
(3) المخشاة كالمخشية: مصدر خشية يخشاه، ووجيب القلب:
خفقانه واضطرابه.
(4) حاشية الأصل (من نسخة): «حيث تنوب».
(5) وبعده:
ولست بمستبق صديقا ولا أخا ... إذا لم تعدّ الشيء وهو يريب.

وكان يزيد بن المهلب (1) ولى ثابت قطنة بعض قرى خراسان، فصعد المنبر فحصر فنزل وهو يقول:
فإلّا أكن فيكم خطيبا فإننى ... بسيفى إذا جدّ الوغى لخطيب
فقيل: لو قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس؛ فبلغ ذلك حاجب (2) الفيل فقال:
أبا العلاء لقد لاقيت معضلة ... يوم العروبة من كرب وتحنيق
أما القرآن فلا تهدى لمحكمه ... ولم تسدّد من الدّنيا بتوفيق
لمّا رمتك عيون النّاس هبتهم ... وكدت تشرق لمّا قمت بالريق

تلوى اللّسان إذا رمت الكلام به ... كما هوى زلق من حالق نيق (3)
وروى أن بعض خلفاء بنى العباس- وأظنه الرشيد- صعد المنبر ليخطب، فسقطت ذبابة على وجهه فطردها، فعادت فحصر وأرتج عليه، فقال: أعوذ بالله السميع العليم: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [الحج: 73]، ثم نزل، فاستحسن ذلك منه.
ومما يشاكل هذه الحكاية ما حكاه عمرو بن بحر الجاحظ قال: " كان (4) لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوّار لم ير الناس حاكما قطّ [ولا زمّيتا] (5)، ولا ركينا (6)، ولا وقورا، ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الّذي ضبط وملك؛ وكان يصلى الغداة

---

(1) الخبر فى الأغانى 13: 47 - 48.
(2) اسمه حاجب بن دينار المازنى؛ ذكره الجاحظ فى الحيوان 1: 191، والبيتان 2: 183.
(3) د، ف، حاشية الأصل (من نسخة): «من جانبى نيق». ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف أيضا: «من جانب النيق»، والنيق: أعلى الجبل.
(4) الحيوان 3: 343، ونقله الثعالبى فى ثمار القلوب 396 - 397.
(5) زيادة من م؛ وهى توافق ما فى الحيوان والزميت، كسكيت العظيم الوقار.
(6) الركين: الرزين.

فى منزله وهو قريب الدار من مسجده، فيأتى مجلسه، فيحتبى ولا يتّكئ، ولا يزال منتصبا لا يتحرّك له عضو، ولا يلتفت، ولا تحلّ حبوته (1)، ولا يحوّل رجلا عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقّيه، حتى كأنه بناء مبنىّ أو صخرة منصوبة؛ فلا يزال كذلك؛ حتى يقوم لصلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه، فلا يزال كذلك/ حتى يقوم لصلاة العصر، ثم يرجع إلى مجلسه (2)، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى مجلسه (3)، بل كثيرا ما يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهد والشروط والوثائق، ثم يصلى العشاء (4) وينصرف، لم يقم فى تلك الولاية مرة
واحدة إلى الوضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، وكذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها، وفى صيفها وشتائها، وكان مع ذلك لا يحرّك يدا (5)، ولا يشير برأسه؛ وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز؛ ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة.
فبينما هو ذات يوم كذلك، وأصحابه حوله (6) وفى السّماطين (7) بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال السكوت والمكث، ثم تحوّل إلى مؤق (8) عينه؛ فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضّته، ونفاذ خرطومه؛ كما رام الصبر على سقوطه على أنفه، من غير أن يحرّك أرنبته، أو يغضّن وجهه؛ أو يذبّ بإصبعه؛ فلما طال عليه ذلك من الذباب وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل عنه أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح؛ فتنحى ريثما سكن جفنه.

ثم عاد إلى موقفه (9) ثانيا، أشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه فى مكان قد كان أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى، فحرّك أجفانه، وزاد

---

(1) الحبوة، بالفتح وتضم: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها.
(2) الحيوان: «لمجلسه».
(3) الحيوان: «إلى محله».
(4) فى ثمار القلوب: «العشاء الأخيرة».
(5) الحيوان: «يده».
(6) م: «حواليه»؛ وهى رواية الحيوان.
(7) السماط: الصف.
(8) المؤق: طرف العين مما يلى الأنف.
(9) د، ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «موقه».

فى شدة الحركة (1) فى تتابع الفتح والإطباق، فتنحّى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلحّ عليه حتى استفرغ جهده (2)، وبلغ مجهوده، فلم يجد بدّا من أن يذبّ عنه بيده، ففعل ذلك وعيون القوم إليه يرمقونه، كأنهم لا يرونه، فتنحى عنه بمقدار ما ردّ يده، وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه؛ فألجأه إلى أن ذبّ عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أن ذلك كلّه بعين من حضر من أمنائه وجلسائه، فلما
نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألجّ (3) من الخنفساء، وأزهى من الغراب، وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله أن يعرّفه من ضعفه ما كان عنه مستورا. وقد علمت أنى كنت/ عند الناس من أرصن الناس، وقد غلبنى وفضحنى أضعف خلق الله، ثم تلا قول الله تعالى: ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ".

---

(1) الحيوان: «فى فتح العين وتتابع الفتح».
(2) م: «صبره». وهى رواية الحيوان وثمار القلوب.
(3) فى الثمار: «ألح»، بالحاء.

مجلس آخر 59
تأويل آية [وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ،

وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ]
إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ، وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ؛ [البقرة: 49].
فقال: ما تنكرون أن يكون فى هذه الآية دلالة على إضافة الأفعال التى تظهر من العباد إليه تعالى، من وجهين: أحدهما أنه قال بعد ما تقدم من أفعالهم ومعاصيهم: وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ فأضافها إلى نفسه، والثانى أنه أضاف نجاتهم من آل فرعون إليه فقال: وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ، ومعلوم أنهم هم الذين ساروا حتى نجوا؛ فيجب أن يكون ذلك السير من فعله على الحقيقة حتى تصح الإضافة.
الجواب، قلنا: أما قوله تعالى: وَفِي ذلِكُمْ فهو إشارة إلى ما تقدّم ذكره من إنجائه لهم من المكروه والعذاب: وقد قال قوم: إنه معطوف على ما تقدّم من قوله تعالى:
يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ؛ [البقرة: 47]، والبلاء هاهنا الإحسان والنعمة.
ولا شك فى أن تخليصه لهم من ضروب المكاره التى عددها الله نعمة عليهم وإحسان إليهم؛ والبلاء عند العرب قد يكون حسنا، ويكون شيئا، قال الله تعالى: وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً [الأنفال: 17]؛ ويقول الناس فى الرجل إذا أحسن القتال والثبات فى الحرب: قد أبلى فلان، ولفلان بلاء؛ والبلوى أيضا قد يستعمل فى الخير والشر؛ إلا أن
أكثر ما يستعملون البلاء الممدود فى الجميل والخير، والبلوى المقصور فى السوء

والشر، وقال قوم: أصل البلاء فى كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل فى الخير والشر؛ لأن الاختبار والامتحان قد يكون فى الخير والشر جميعا، كما قال تعالى:
وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ؛ [الأعراف: 168]، يعنى اختبرناهم، وكما قال تعالى:
وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً؛ [الأنبياء: 35]، فالخير يسمى بلاء، والشر يسمى بلاء؛ غير أن الأكثر فى الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلاء، وفى الخير: أبليته أبليه إبلاء وبلاء؛ وقال زهير فى البلاء الّذي هو الخير:
/ جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الّذي يبلو (1)
فجمع بين اللغتين، لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعمة التى يختبر بها عباده. وكيف يجوز أن يضيف تعالى ما ذكره عن آل فرعون من ذبح الأبناء وغيره إلى نفسه، وهو قد ذمّهم عليه، ووبّخهم! وكيف يكون ذلك من فعله؛ وهو تعالى قد عدّ تخليصهم منه نعمة عليهم! وكان يجب على هذا أن يكون إنما نجاهم من فعله تعالى بفعله، وهذا مستحيل لا يعقل ولا يحصل؛ على أنّه يمكن أن ترد قوله: ذلِكُمْ إلى ما حكاه عن آل فرعون من الأفعال القبيحة؛ ويكون المعنى: فى تخليته بين هؤلاء وبينكم، وتركه منعهم من إيقاع هذه الأفعال بكم بلاء من ربّكم عظيم؛ أى محنة واختبار لكم.
والوجه الأول أقوى وأولى، وعليه جماعة من المفسرين.
وروى أبو بكر الهذلىّ عن الحسن فى قوله تعالى: وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ، قال: نعمة عظيمة؛

إذ أنجاكم من ذلك؛ وقد روى مثل ذلك عن ابن عباس والسّدّيّ ومجاهد وغيرهم.
فأما إضافة النّجاة إليه وإن كانت واقعة بسيرهم وفعلهم؛ فلو دلّ على ما ظنّوه لوجب إذا قلنا: إنّ الرسول أنقذنا من الشّكّ، وأخرجنا من الضلالة إلى الهدى، ونجّانا من الكفر أن يكون فاعلا لأفعالنا.
وكذلك قد يقول أحدنا لغيره: أنا نجيتك من كذا وكذا، واستنقذتك وخلصتك،

(1) ديوانه: 109؛ والرواية فيه: «رأى الله بالإحسان .. »، وهى رواية الأصمعى.

ولا يريد أنّه فعل بنفسه فعله. والمعنى فى ذلك ظاهر؛ لأن ما وقع بتوفيق الله تعالى ودلالته وهدايته ومعونته وألطافه قد يصح إضافته إليه فعلى هذا صحت إضافة النجاة إليه تعالى.
ويمكن أيضا أن يكون مضيفا لها من حيث ثبّط عنهم الأعداء، وشغلهم عن طلبهم؛ وكل هذا يرجع إلى المعونة؛ فتارة تكون بأمر يرجع إليهم، وتارة بأمر يرجع إلى أعدائهم.
فإن قيل: كيف يصحّ أن يقول: وَإِذْ نَجَّيْناكُمْ فيخاطب بذلك من لم يدرك فرعون ولا نجا من شره؟
قلنا: ذلك معروف مشهور فى كلام العرب؛ وله نظائر؛ لأن العربىّ قد يقول مفتخرا على غيره: قتلناكم يوم عكاظ (1) وهزمناكم؛ وإنما يريد أنّ قومى فعلوا ذلك بقومك.
قال الأخطل يهجو جرير بن عطية:
/ ولقد سما لكم الهذيل فنالكم ... بإراب حيث يقسّم الأنفالا (2)
فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن ... فرسانه عزلا ولا أكفالا (3)
ولم يلحق جرير الهذيل؛ ولا أدرك اليوم الّذي ذكره؛ غير أنّه لما كان يوم من أيام قوم الأخطل على قوم جرير، أضاف الخطاب إليه وإلى قومه؛ فكذلك خطاب الله تعالى بالآية إنما توجّه إلى أبناء من نجّى من آل فرعون وأحلافهم. والمعنى: وإذ نجينا آباءكم وأسلافكم؛ والنعمة على السلف نعمة على الخلف.
***

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «عكاظ: سوق للعرب معروفة كانوا يجتمعون فيها فيتفاخرون».
(2) ديوانه 48 وفى حاشيتى الأصل، ف: «الهذيل بن هبيرة التغلبى، وكان غزا بنى رباح يوم إراب؛ وإراب اسم ماء».
(3) الأراقم: قبائل معروفة، والعزل: الضعفاء والأكفال: جمع كفل، وهو الّذي لا يثبت على ظهور الخيل؛ ومثله قول الشاعر:
ما كنت تلقى فى الحروب فوارسى ... ميلا إذا ركبوا ولا أكفالا.

قال سيدنا أدام الله تمكينه: ومن أحسن الشعر فى تعوّد الضيافة والأنس بها والاستمرار عليها قول حاتم بن عبد الله الطائى:

إذا ما بخيل القوم هرّت كلابه ... وشقّ على الضّيف الغريب عقورها (1)

فإنى جبان الكلب، بيتى موطّا ... جواد إذا ما النّفس شحّ ضميرها

وإنّ كلابى مذ أقرّت (2) وعوّدت ... قليل على من يعترينا هريرها

أراد بقوله:

* قليل على من يعترينا هريرها*

أنها لا تهرّ جملة؛ ولذلك نظائر كثيرة، ومثله قوله تعالى: فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ؛ [البقرة: 88] ومثل قوله: «فإنى جبان الكلب» معنى ولفظا قول الشاعر:

وما يك فىّ من عيب فإنى ... جبان الكلب مهزول الفصيل (3)

وإنما أراد أنى أوثر الضيف بالألبان ففصالى مهازيل.

ومثل اللفظ والمعنى (4) قول أبى وجزة:

وآل الزّبير بنو حرّة ... مروا بالسّيوف الصّدور الجنافا (5)

---

(1) ديوانه: 110؛ والفاضل والمفضول 40 – 41، وفى د، ونسخة بحاشيتى الأصل، ف: «بخيل الناس»؛ وهى راية الديوان.

(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «أقرت»؛ بالفتح.

(3) كتاب الصناعتين 351. والحيوان 1: 384، والحماسة بشرح المرزوقى 1650 من غير عزو.

(4) من أبيات ستة مذكورة فى الأغانى 12: 252 (طبع دار الكتب المصرية)؛ وكان أبو وجزة متقطعا إلى آل الزبير؛ وإلى عبد الله بن عروة بن الزبير خاصة، وكان يفضل عليه ويقوم بأمره؛ ثم بلغه أن أبا وجزة أتى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فمدحه ووصله؛ فاطرحه عبد الله بن عروة، وأمسك يده عنه؛ فلم يزل أبو وجزة يمدح آل الزبير ويستعطف ابن عروة؛ وهو يشيح عنه إلى أن قال فيه هذه الأبيات، فرضى عنه وعاد إلى صلته.

(5) بعده.

سل الجرد عنهم وأيامها ... إذا امتعطوا المرهفات الخفافا

امتعطوا: سلوا؛ ومنه ذئب أمعط، منسل من شعره–

يموتون والقتل من دأبهم ... ويغشون يوم السّيوف السّيافا (1)

وأجبن من صافر كلبهم ... وإن قذفته حصاة أضافا

يقول: أدركوا بسيوفهم ثاراتهم؛ فكأنهم شفوا وغر قلوبهم، وأزالوا ما كان فيها من الأحقاد.

ومعنى «مروا» استخرجوا كما ترى الناقة إذا أردت أن تحلبها لتدرّ. والجانف: المائل.

ثم قال: وإن مات بعضهم على فراشه فإن أكثرهم يموت مقتولا؛ لشجاعتهم وإقدامهم، فلذلك قال:

«والقتل من/ دأبهم».
وجعل كلبهم جبانا لكثرة من يغشاهم ويطرقهم من النّزّال والأضياف فقد ألفتهم كلابهم وأنست بهم؛ فهى لا
تنبحهم. وقيل أيضا: إنها لا تهرّ عليهم؛ لأنها تصيب مما ينحر لهم وتشاركهم فيه. ومعنى:
* وإن قذفته حصاة أضافا*
أى أشفق؛ وهذا تأكيد لجبنه؛ ويقال: أضاف الرجل من الأمر إذا أشفق منه.
ومعنى «وأجبن من صافر كلبهم» قد تقدم ذكره فى الأمالى.
ومثله فى المعنى:
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السّواد المقبل (2)
وقال المرار بن المنقذ العدوىّ:
أعرف الحقّ ولا أنكره ... وكلابى أنس غير عقر (3)

---

(1) رواية الأغانى:
يموتون والقتل داء لهم ... ويصلون يوم السّياف السّيافا
وبعده:
إذا فرج القتل عن عيصهم ... أبى ذلك العيص إلا التفافا
مطاعيم تحمد أبياتهم ... إذا قنّع الشاهقات الطّخافا
قنعت: غطى رأسها. والطخاف: السحاب المرتفع.
(2) البيت لحسان؛ ديوانه 80.
(3) من قصيدة مفضلية (82 – 93، طبعة المعارف).

لا ترى كلبى إلّا آنسا ... إن أتى خابط ليل لم يهرّ (1)
كثر النّاس فما ينكرهم ... من أسيف يبتغى الخير وحرّ
الأسيف: العبد هاهنا–
وقال آخر:
إلى ماجد لا ينبح الكلب ضيفه ... ولا يتأدّاه احتمال المغارم (2)
معنى «يتأداه» يثقله؛ وأراد أن يقول: يتأوّده؛ فقلب.
وقال ابن هرمة:
وإذا أتانا طارق متنوّر ... نبحت فدلّته عليّ كلابى (3)
وفرحن إذ أبصرنه فلقينه ... يضربنه بشراشر الأذناب (4)
وإنما تفرح به، لأنها قد تعودت إذا نزلت الضيوف أن ينحر لهم فتصيب من قراهم.
ومثله له:

ومستنبح تستكشط الرّيح ثوبه ... ليسقط عنه، وهو بالثّوب معصم (5)
عوى فى سواد اللّيل بعد اعتسافه ... لينبح كلب، أو ليفزع نوّم (6)
فجاوبه مستسمع الصّوت للقرى ... له مع إتيان المهبّين مطعم

---

(1) خابط ليل: ضيف يسير على غير هدى.
(2) البيت فى اللسان (أود) من غير نسبة.
(3) البيتان فى الخزانة 4: 584.
(4) حاشية الأصل: «شراشر الذنب: ذباذبه؛ وهى ما تدلى من شعر ذنبه»، ويقال: شرشر الكلب؛ إذا ضرب بذنبه.
(5) حماسة أبى تمام- بشرح التبريزى 4 - 136 - 137، والحيوان 1: 377، والفاضل للمبرد 37 - 38، من غير عزو، والخزانة 4: 584. وكشط واستكشط بمعنى، والمعصم: المستمسك بالشيء.
(6) الاعتساف: السير على غير هدى.

يكاد إذا ما أبصر الضّيف مقبلا ... يكلّمه من حبّه، وهو أعجم
أراد بقوله: «فجاوبه مستسمع الصوت» أنه جاوبه كلب. والمهبّون: الموقظون له ولأهله وهم/ الأضياف؛ وإنما كان له معهم مطعم، لأنه ينحر لهم ما يصيب منه.
وأراد بقوله:
* يكلّمه من حبّه وهو أعجم*
بصبصته وتحريكه ذنبه.
وأما قوله: «ليفزع نوّم» فإنما أراد ليعين (1) نوم، يقال: فزعت لفلان إذا أعنته (2).
ومعنى «عوى فى سواد الليل» أنّ العرب تزعم أنّ سارى الليل إذا أظلم عليه وادلهمّ فلم يستبن محجة، ولم يدر أين الحلّة وضع وجهه على (3) الأرض، وعوى عواء الكلب لتسمع (4) ذلك الصوت الكلاب إن كان الحىّ قريبا منه
فتجيبه، فيقصد الأبيات. وهذا معنى قوله أيضا: «ومستنبح»، أى ينبح نبح الكلاب (5).

---

(1) حاشية الأصل، ف (من نسخة): «ليغيث».
(2) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف:
«أغثته».
(3) ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «مع الأرض».
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «لتستمع».
(5) حاشية الأصل: «مما يناسب هذا الفن قول امرأة من بنى عامر ترثى رجلا:

أيا شجرات الواد من يضمن القرى ... إذا لم يكن بالواد عمرو بن عامر
فتى جعفريّ كان غير ميامن ... طريق الندى عنه وغير مياسر
ولكن إليه قصد كلّ محصّب ... صبور على مستصعبات الجرائر
ومستنبح تزهى الصّبا عنه ثوبه ... تقلّبه الأرواح بين الدياجر
يجاوبه كلبان، والليل مسدف ... يكادان يبتدّانه بالشراشر
يكادان من وجد به وتملق ... يقولان: أهلا بالمكلّ المسافر
قولها «يبتدانه»، أى يأتيانه من جانبيه يتبصبصان ويقال: السبعان يبتدان الرجل ابتدادا، أى يأتيانه، والرضيعان يبتدان أمهما، ولا تقل: فلانة يبتدها ابنها حتى يكونا اثنين».

(2/114)

وقال الفرزدق:
وداع بلحن الكلب يدعو ودونه ... من اللّيل سجفا ظلمة وغيومها (1)
دعا وهو يرجو أن ينبّه إذ دعا ... فتى كابن ليلى حين غارت نجومها
ابن ليلى، يعنى أباه غالبا-
بعثت له دهماء ليست بلقحة (2) ... تدرّ إذا ما هبّ نحسا عقيمها
معنى «بعثت له دهماء» أى رفعتها على أثافيّها؛ ويعنى بالدهماء القدر. واللّقحة: الناقة؛ وأراد أن قدره تدرّ إذا هبت الريح عقيما لا مطر فيها-
كأنّ المحال (3) الغرّ فى حجراتها ... عذارى بدت لمّا أصيب حميمها
أراد أن قطع اللحم لا تستتر منها (4) بشيء؛ كما لا تستتر العذارى اللواتى أصيب حميمهنّ فيظهرن حواسر-
غضوبا كحيزوم النعامة أحمشت ... بأجواز خشب زال عنها هشيمها (5)
الأجواز: الأوساط، وأوسط الخشب أصلبه وأبقى نارا-
محضرة لا يجعل السّتر دونها ... إذا المرضع العوجاء جال يريمها
البريم: الحقاب (6)؛ وإنما يجول من الهزال والجهد والطوى. والعوجاء: التى قد اعوجّت من الطوى.
وقال الأخطل فى الضيف:
دعانى بصوت واحد فأجابه ... مناد بلا صوت، وآخر صيّت (7)

---

(1) ديوانه: 803؛ والرواية فيه:
وداع بنبح الكلب يدعو ودونه ... غياطل من دهماء داج بهيمها.
(2) الديوان: «بناقة».
(3) المحال: القطع.
(4) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «فيها».
(5) هذا البيت والّذي يليه لم يذكرا فى الديوان.

(6) الحقاب: شيء محلى تشده المرأة على وسطها.
(7) الخزانة 4: 584.

ذكر ضيفا عوى بالليل والصّدى من الجبل يجيبه؛ فذلك معنى قوله: «بصوت واحد»، وقوله: «فأجابه مناد/ بلا صوت»، يعنى نارا رفعها له فرأى سناها فقصدها، والآخر الصّيت الكلب، لأنه أجاب دعواه.
ومثله:
وسارى ظلام مقفعلّ وهبوة ... دعوت بضوء ساطع فاهتدى ليا
يعنى نارا رفعها ليقصده طرّاق الليل. والمقفعلّ: المنتفض (1) من شدة البرد.
وأنشد محمد بن يزيد:
ومستنبح تهوى مساقط رأسه ... إلى كلّ شخص فهو للصّوت أصور (2)
حبيب إلى كلب الكرام مناخه ... بغيض إلى الكوماء، والكلب أعذر (3)
دعته بغير اسم: هلمّ إلى القرى ... فأسرى يبوع الأرض شقراء تزهر
معنى «أصور» مائل؛ أراد أنه يميل رأسه إلى كلّ شخص يتخيل له يظنه إنسانا.
ومعنى: «حبيب إلى قلب الكرام» المعنى الّذي تقدم
ومعنى: «بغيض إلى الكوماء» إلى الناقة لأنها تنحر له.
وقوله: «دعته شقراء بغير اسم» يعنى نارا رأى ضوأها فقصدها؛ فكأنها دعته.
وقال ابن هرمة وقد نزل به ضيف:
فقلت لقينىّ ارفعاها وحرّقا ... لعلّ سنا نارى بآخر تهتف (4)
وفى معنى قوله: «بغيض إلى الكوماء» قول بعض الشعراء يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله:
وأبيك حيرا إنّ إبل محمّد ... عزل تناوح أن تهبّ شمال

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة): «المتقبض».
(2) حماسة أبى تمام- بشرح المرزوقى 1645.
(3) ف: «أبصر»؛ وهى رواية الحماسة. وفى حاشية الأصل: «أعذر، أى أمعن فى كونه معذورا فى الحب».
(4) القين: الخادم.

وإذا رأين لدى الفناء غريبة ... ذرفت لهنّ من الدّموع سجال
وترى لها زمن الشّتاء على الثّرى ... رخما، وما تحيا لهنّ فصال
أراد أبيك الخير، فلما طرح الألف واللام نصب. والعزل: التى لا سلاح معها؛ وسلاح الإبل سنامها (1) وأولادها؛ وإنما جعلوا ذلك كالسلاح لها من حيث كان صاحبها إذا رأى سمنها وحسن أجسامها، ورأى أولادها تتبعها نفس بها على الأضياف فامتنع من نحرها، فلما كان ذلك صادّا عن الذبح، ومانعا منه جرى مجرى السلاح لها؛ فكأنه يقول: هذه الإبل وإن كانت ذوات سلاح؛ من حيث كانت شحيمة سمينة فهى كالعزل إذ كان سلاحها لا يغنى عنها شيئا، ولا يمنع من عقرها.
ومعنى: «تناوح» يقابل بعضها بعضا، أى هنّ مدفآت بأسنمتها وأوبارها/ لا تبالى بهبوب الشمال، ولا يدخل بعضها فى بعض من البرد.
وقوله:
* وإذا رأين لدى الفناء غريبة*
أى إذا نزل ضيف فعقل ناقته التى جاء عليها وهى الغريبة علمن أنه سينحر بعضهم لا محالة؛ فلذلك تذرف دموعهن.
وقوله:
وترى لها زمن الشّتاء على الثرى ... رخما .....
فقد قيل فيه: إنه أراد به أن يهب فصالهن فتبقى ألبانهن على الأرض كهيئة الرّخم.
وحكى عن ابن عباس أنه قال: الرّخم: قطع العلق من الدم.
وعندى أن المعنى غير هذين جميعا؛ وإنما أراد أنها تنحر وتعقر فتسقط الرّخم على موضع عقرها وبقايا دمائها وأشلائها؛ فهذا معنى قوله، لا ما تقدّم.

---

(1) د، ف: «سمنها».

وقال آخر فى معنى سلاح الإبل يمدح بنى عوذ بن غالب من عبس (1)؛
جزى الله عنى غالبا خير ما جزى ... إذا حدثان الدّهر نابت نوائبه (2)
إذا أخذت بزل المخاض سلاحها ... تجرّد فيها متلف المال كاسبه (3)
أراد أن سمنها وحسنها وتمامها لا يمنعنى (4) من عقرها للأضياف.
ومثله:
إذا البقل فى أصلاب شول ابن مسهر ... نما لم يزده البقل إلّا تكرّما
إذا أخذت شول البخيل رماحها ... دحا برماح الشّول حتّى تحطّما
وقوله: «أخذت رماحها» من المعنى المتقدم.
وقال مسكين الدارمىّ:
فقمت ولم تأخذ إلى رماحها ... عشارى، ولم أرجب (5) عراقبها عقرا

لم أرجب: لم أكبر ذلك ولم يعظم عليّ، وسمّى رجب رجبا من ذلك؛ لأنه شهر معظّم.
وقالت ليلى الأخيلية:

---

(1) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «قيس».
(2) من أبيات أربعة فى حماسة أبى تمام- بشرح المرزوقى 1666 - 1667؛ وبعده:
فكم دافعوا من كربة قد تلاحمت ... عليّ، وموج قد علتنى غواربه
إذا قلت عودوا عاد كلّ شمردل ... أشمّ من الفتيان جزل مواهبه
إذا أخذت ...
(3) البزل: جمع بازل؛ وهو المتناهى قوة وشبابا. والمخاض: النوق الحوامل.
(4) د، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «يمنعه».
(5) فى حاشيتى الأصل، ف: «ولم أحفل».

ولا تأخذ الكوم الحياد سلاحها ... لتوبة فى قرّ الشّتاء الصنابر (1)
ومثله:
لا أخون الصّديق ما حفظ العه ... د، ولا تأخذ السّلاح لقاحى
وقال النمر بن تولب:
أزمان لم تأخذ إلى سلاحها ... إبلى بجلّتها ولا أبكارها (2)
ابتزّها ألبانها ولحومها ... فأهين ذاك لضيفها ولجارها
/ وقال مضرّس بن ربعىّ الأسدىّ:
وما نلعن الأضياف إن نزلوا بنا ... ولا يمنع الكوماء منّا نصيرها
ومعنى: «لا نلعنهم»، أى لا نبعدهم، واللعين: البعيد. ونصيرها هاهنا:
ما يمنع من عقرها من حسن وتمام وولد وما جرى مجرى ذلك. والنصير والسلاح فى المعنى واحد.

---

(1) حماسة ابن الشجرى: 84؛ من أبيات ترثى فيها توبة بن الحمير الخفاجى، ورواية البيت هناك:
ولا تأخذ الكوم المخاض سلاحها ... لتوبة فى صرّ الشتاء الصّنابر
والصنابر: جمع صنبر؛ وهو البرد الشديد.
(2) البيت فى اللآلى 632. والجلة: المسان.

مجلس آخر 60

تأويل آية [وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ]

إن سأل سائل عن قوله تعالى: وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ؛ [الكهف: 23].

فقال: ما تنكرون أن يكون ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون جميع ما نفعله يشاؤه ويريده؟ لأنه لم يخصّ شيئا من شيء؛ وهذا بخلاف مذهبكم. وليس لكم أن تقولوا: إنه خطاب للرسول عليه وآله السلام خاصة؛ وهو لا يفعل إلا ما يشاؤه الله؛ لأنه قد يفعل المباح بلا خلاف؛ ويفعل الصغائر عند أكثركم؛ فلا بد من أن يكون فى أفعاله تعالى ما لا يشاؤه عندكم، ولأنه أيضا تأديب لنا، كما أنه تعليم له عليه السلام؛ ولذلك يحسن منا أن نقول ذلك فيما يفعله.

الجواب، قلنا: تأويل هذه الآية مبنىّ على وجهين:

أحدهما أن نجعل حرف الشرط الّذي هو «إن» متعلقا بما يليه وبما هو متعلّق به فى الظاهر من غير تقدير محذوف؛ ويكون التقدير: ولا تقولن إنك تفعل إلا ما يريد الله.

وهذا الجواب ذكره الفراء، وما رأيته إلا له. ومن العجب تغلغله إلى مثل هذا؛ مع مع أنه لم يكن متظاهرا بالقول بالعدل. وعلى هذا الجواب لا شبهة فى الآية، ولا سؤال للقوم علينا.

وفى هذا الوجه ترجيح (1) لغيره من حيث اتبعنا فيه الظاهر، ولم نقدّر محذوفا، وكلّ جواب مطابق الظاهر ولم يبن على محذوف كان أولى.

---

(1) فى حاشيتى الأصل، ف: «المعنى أن الله تعالى ينهى أن يقول أحد إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله؛ لأن الله تعالى لا يشاء جميع ما يفعلونه؛ وكأنه تعالى نهاهم عن تعليق أفعالهم بمشيئة الله عز وجل. وهو حسن».

والجواب الآخر أن نجعل «أن» متعلقة بمحذوف؛ ويكون التقدير: ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن تقول: «إن شاء الله»؛ لأن من عاداتهم إضمار القول فى مثل هذا الموضع، واختصار الكلام إذا طال وكان فى الموجود منه دلالة على المفقود.

وعلى هذا الجواب يحتاج إلى الجواب عما سئلنا عنه، فنقول: هذا تأديب من الله تعالى/ لعباده، وتعليم لهم أن يعلّقوا ما يخبرون به بهذه اللفظة؛ حتى يخرج من حد القطع.

ولا شبهة فى أن ذلك مختصّ بالطاعات، وأنّ الأفعال القبيحة خارجة عنه؛ لأن أحدا من المسلمين لا يستحسن أن يقول: إنى أزنى غدا إن شاء الله، أو أقتل مؤمنا، وكلهم يمنع من ذلك أشدّ المنع؛ فعلم سقوط شبهة من ظن أن الآية عامّة فى جميع الأفعال.

وأما أبو عليّ محمد بن عبد الوهاب فإنه ذكر فى تأويل هذه الآية ما نحن ذاكروه بعينه، قال" إنما عنى بذلك أنّ من كان لا يعلم أنه يبقى إلى غد حيا فلا يجوز أن يقول: إنى سأفعل غدا كذا وكذا، فيطلق الخبر بذلك وهو لا يدرى، لعله سيموت ولا يفعل ما أخبر به؛ لأن هذا الخبر إذا [لم يوجد مخبره على